المرأة والصراع النفسي

نوال السعداوي



المرأة والصراع النفسي

تأليف
نوال السعداوي



المرأة والصراع النفسي

نوال السعداوي

الناشر مؤسسة هنداوي سي آي سي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

٣ هاي ستريت، وندسور، SL4 1LD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: ليلى يسري.

الترقيم الدولي: ٣ ١٤٨٦ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

المحتويات

ثمن الكتابة

مقدمة قصيرة

لا أجيد كتابة المقدمات، يمكن أن أكتب قصةً من ألف صفحة، ولا أستطيع كتابة مقدمةٍ من نصف صفحة، أما رفيقة عمري فهي شخصية عصية على الفهم، تكتب في النوم كما تكتب وهي صاحية، لا تهتم بدورة الأرض حول نفسها، أو دورتها حول الشمس.

تضحك وتقول: نحن أحرار، ندور كما نشاء؛ حول أنفسنا، أو حول غيرنا، أو لا ندور.

لكن عقلي يدور، رغم مشيئتي، في النوم كما في اليقظة.

أصحو من النوم كل صباح على رنين الجرس، صوتها يأتيني من حيث تكون، في أي مكانٍ فوق كوكب الأرض، هي تعشق السفر منذ كانت طفلة، لا تعود إلى الوطن حتى ترحل، مهما ابتعدتْ وطال الغياب، أراها أمام باب بيتي، بحقيبتها العتيقة بلون النبيذ الأحمر، حرقتْها الشمس وأغرقتها الأمطار في الجنوب والشمال، أصبحتْ أقلَّ حُمرة مما كانت، وإن ظلت حمراء اللون، متينة العجلات قوية العضلات، أقل قوةً بمرور الزمن، تجرُّها من خلفها وهي تجتاز المطارات والمحطات، تنزلق وراءها بخفة فوق الشوارع المرصوفة الناعمة، وتغوص بثقلها في الأزقة حيث الحفر والمطبات، مليئة بالكتب وملابسها وأوراقها، مقبضها متين لا ينخلع، يحمل اسمها، داخل قطعة من البلاستيك الأبيض بحجم كف اليد.

اسمها الثلاثي كان مسجلًا في أقسام وزارة الداخلية والشئون الاجتماعية ومصلحة السجون وإدارات الرقابة على النشر والكتابة والمصنفات الفنية.

يحملق ضابط الشرطة بمطار القاهرة في اسمها الثلاثي، يتأمل صورتها في جواز سفرها، يبتسم في وجهها: حمد الله ع السلامة يا أستاذة. يدقُّ بالمطرقة على جواز سفرها فتدخل. وإن وصلت القائمة السوداء إليه قبل عودتها، يعتذر لها بِرقَّة ورثها عن أمه، يناولها كرسيًّا لتستريح وكوب ماء: آسف يا أستاذة، عندي أوامر لازم أنفذها. وإن كان عضوًا بحزب الجهاد أو داعش أو حزب الحكومة، يكشر عن أنيابه مبرطمًا بصوتٍ غليظ، ويحجزها مع حقيبتها في غرفة الحجر الصحي؛ حيث تلتقي بأنواعٍ مختلفة من البشر، بعضهم مرضى بالجُذام وإنفلونزا الخنازير، وبعضهم مصاب بالجنون أو الكفر، منهم الكوافير سوسو، كان شهيرًا في الحي الراقي بجاردن سيتي، اكتسب ثقافة نادرة من الحلاقة للنساء والرجال، أصابعه ماهرة تدرك أفكارًا مدهشة في الرءوس التي تغوص فيها، يأتي سكان الحي الراقي إلى محله الأنيق بشارع التنهدات، نساءٌ ورجالٌ من المثقفين أو الطبقة العليا، يؤمنون أن الإنسان تطوَّر عبر ملايين السنين من فصيلة الثدييات على رأسها الشمبانزي الأم الكبرى، وأن الأرض كروية تدور حول الشمس وليس العكس، وأن الكون نشأ بالصدفة البحتة حين حدث الانفجار الكبير وانتشرت في الفضاء ذرات، تناثرت وتجمَّع بعضها لتكوين أول مادة أو أول كتلة مادية في الوجود.

وكان من زبائن الكوافير سوسو، أيضًا، البوابون والطباخون في قصور الباشوات القدامى والجدد في جاردن سيتي، منهم الحاج منصور الشهير باسم طباخ الباشا؛ رجل سمين مملوء بالسمن البلدي والطعام الفاخر الذي يبتلعه سرًّا.

وبينما هو يترك رأسه بين يدي الكوافير سوسو، يحكي الحكايات القديمة عن المماليك والأتراك، كيف عاشوا في الأناضول، ولا بد أن يذكر الأسلاف من أجداده وعلى رأسهم جده الكبير، الذي حكى له وهو صغير أن الله خلق للثور قرنين؛ لأنه يحمل الأرض فوق قرن، وإن تعب من ثقلها حرك رأسه ونقلها إلى قرنه الثاني.

ويضحك الكوافير سوسو: مش معقول يا حاج منصور.

– لا، معقول يا سوسو، أمَّال الزلازل والبراكين والبرق والرعد بييجوا منين؟

– منين يا حاج منصور؟

– لما الثور يحرك الأرض على راسه من قرن لقرن يحدث البرق والرعد، والزلازل تهز الأرض.

يضحك الكوافير سوسو: مش معقول يا حاج منصور.

– لا، معقول يا سوسو.

– الكلام ده كان زمان قبل جاليليو.

– جاليليو خواجة يهودي نصراني ما يعرفش ربنا.

– لازم تعرف حاجة عن جاليليو يا حاج، اسمعني.

– سامعك يا خويا.

– جاليليو أمه ولدته في إيطاليا بعد العدرا مريم ما ولدت المسيح بألف وخمسميت سنة أو أكتر، وكانت إيطاليا وأوروبا كلها محكومة بالكنيسة وعايشة في الجهل والظلام، درس جاليليو الطب والهندسة والفلك، واكتشف أخطاء العلماء اللي قبله في اليونان، منهم أرسطو.

– أرسطو كان مؤمن بربنا يا سوسو؟

– أرسطو كان مؤمن بالكنيسة يا حاج منصور وبينشر أفكارها في كتبه، واعتبرته الكنيسة الفيلسوف الأعظم وأغدقت عليه الأموال والمناصب، لكن جاليليو عمل منظار جديد واكتشف خطأ أرسطو، وإن الأرض بتدور حول نفسها وحول الشمس، غضبت منه الكنيسة واتهمته بالكفر والإلحاد والخيانة؛ لأنه بيعارض الكتاب المقدس وتعاليم الكنيسة ونظرية أرسطو عن إن الأرض ثابتة لا تتزعزع ولا تتحرك أبد الدهر، قدموا جاليليو للمحاكمة وأدانوه، ومات فقير مسكين معزول في بيته.

– مين قال لك الكلام ده؟

– الباشا اللي باحلق له شنبه ودقنه.

– الباشا بنفسه يا سوسو؟

– أيوة يا حاج منصور.

– لازم كلامه صح مية المية، لكن أنا مش حاسس إن الأرض بتدور يا سوسو!

– لأنها بتدور بسرعة كبيرة يا حاج، وانت جزء منها وبتدور معاها.

– مش معقول يا سوسو.

– مثلًا وانت راكب جوة القطر يا حاج، لا يمكن تحس إنه بيجري بسرعة.

– لكن القطر غير الأرض يا سوسو، ولا إيه؟

– إيه يا حاج!

وينفجر الكوافير والحاج منصور في الضحك.

تخرج هي، رفيقة العمر، تجرُّ حقيبتها الحمراء ذات العجلات، من غرفة الحجر الصحي بالمطار بعد عدة ساعات، أو عدة أيام حسب مزاج الحكومة والمخابرات، ثوبها مكرمش وشعرها منكوش، نامت على الكرسي وإلى جوارها الحقيبة، تلمسها بيدها إن أفاقت في الظلمة فجأة، تخشى أن يسرقها أحد وهي غارقة في النوم، أو غائبة عن الوعي من شدة التعب، وفي أحد الصباحات، دون سابق إنذار، يأتي الضابط مبتسمًا، ويقول: مبروك يا أستاذة، صدر العفو الرئاسي عن بعض المعتقلين والمعتقلات بمناسبة العيد.

– أي عيد؟

الأضحى الكبير، أو العبور العظيم، أو شم النسيم في بداية الربيع، يصحو الناس في الصباح الباكر ليشموا البصل والرنجة والفسيخ، يتمشون على شاطئ النيل، الأغنياء منهم يشمون النسيم في المنتجعات الجديدة على شاطئ البحر الأبيض بالساحل الشمالي، أو في الغردقة وسواحل البحر الأحمر.

لكن يظل الفسيخ اللذيذ من نبروه، مع أصناف الطعام الفاخر ومعه البصل الأخضر والملانة والرنجة من ضرورات العيد، لإعادة الذاكرة الطفولية والخصوصية الثقافية وتاريخ الأجداد.

كنت أحب الفسيخ وهي لا تُطيق رائحته، لا تزورني أبدًا في المواسم، لا تحتفل بالأعياد، وعيد ميلادها لا تذكره، إن ذكَّرتها به تمطِّ شفتها السفلى وتنهمك في الكتابة.

– كم عمرك؟

– مش فاكرة.

– مش معقولة انتي.

– انتي اللي مش معقولة.

– ازاي؟

– إيه يهمك من عمري؟
– عاوزة أعرف انتي عشتي كام سنة.
– ليه؟
– مش عارفة.

(انتهت المقدمة)[1]

نوال السعداوي
القاهرة
٢٢ مارس ٢٠١٧

[1] تتصدر هذه المقدمة كافة أعمال الدكتورة نوال السعداوي.

الجزء الأول

دراسة

المقدمة

خلال السنوات الطويلة التي مارستُ فيها مهنة الطب في عيادتي الخاصة أو في المستشفيات العامة، أو من المترددين والمترددات على بيتي من أصحاب المشاكل النفسية والجنسية والاجتماعية، أو من القرَّاء والقارئات الذين تابعوا مقالاتي في مجلة «الصحة» قبل أن تتوقف، أو الكتب والدراسات التي نشرتها؛ من خلال ذلك كله، ومن خلال زميلاتي وصديقاتي من النساء والفتيات اللائي يفتحن قلوبهن لي بحكم الصداقة، وبحكم الفهم المشترك، وبحكم أنني امرأة مثلهن، أدرك معاناتهن وأقدِّرها، بل وأحترم الأخطاء (أو ما تُسمَّى الأخطاء) مثلما أحترم أي تصرف آخر يعتبره المجتمع التصرف الصحيح السليم.

من خلال كل ذلك أدركتُ الحاجة الشديدة إلى أن نبدأ في دراسة «العُصاب» الذي تشكو منه النساء والفتيات، والذي يمثل ظاهرة جديدة بين النساء، وخاصة النساء المتعلمات.

والعُصاب كمرضٍ نفسي قد لا يكون شديدًا إلى الحد الذي يعطِّل المرأة عن عملها أو روتين حياتها اليومية، وقد لا يدفع المرأة إلى الذهاب إلى طبيبٍ نفسي، وقد تعيش به المرأة وتموت به دون أن يدري من حولها أنها مصابة بالعصاب، بل دون أن تدري هي نفسها أنها مصابة بالعصاب، أو أسباب تلك الكآبة التي تشعر بها من حين إلى حين، أو أسباب ذلك الصداع المستمر في نصف رأسها، أو ذلك الخمول والرغبة في الكسل والنوم، أو ذلك الأرق في بعض الليالي، أو تلك الأحلام المزعجة التي تراها في نومها بعض الأحيان القليلة أو الكثيرة، أو ذلك الإعراض عن الأكل أو الجنس أحيانًا، أو ذلك النهم الشديد للأكل إلى حد الزيادة في الوزن بشكلٍ لافت للنظر، أو ... أو ... عشرات الأعراض البسيطة أو الشديدة، المؤقتة أو الدائمة، لكنها في معظم الأحيان غير قاتلة، أو غير متعارضة مع الاستمرار في الحياة اليومية وروتين الحياة اليومية، صحيحٌ أن النشاط لم يعد كما كان، وصحيح أن الإقبال على الحياة لم يعد كما كان، وصحيح أن هناك بعض الآلام الجسدية أو النفسية من

حين إلى حين، لكن الحياة تسير، ربما تسير ببطء أكثر، وربما تسير بغير بهجة وبغير لذة، لكنها تسير، وما دامت تسير فلا داعي للبحث عن أسباب تلك الأعراض أو إدراك كنهها، ربما لا تكون مرضًا يستدعي العلاج، وربما تكون شيئًا طبيعيًّا تشعر به كل النساء بسبب الدورة الشهرية أو يُسَمَّى عُرفًا بالمرض الشهري (الحيض) أو بسبب الحمل أو الولادة، أو بسبب تغير الجو والمواسم، أو بسبب التقدم في العمر (قد لا تكون المرأة قد بلغت الثلاثين بعدُ) أو لأي سببٍ آخر.

وبمثل ما تتجاهل المرأة الأعراض التي تشعر بها، بمثل ما يتجاهلها من حولها من أفراد الأسرة، وبالذات إذا كانت الأسرة من الطبقة الكادحة أو الطبقة المتوسطة أو تحت المتوسطة، وهذه الطبقات في مجتمعنا المصري تشكل الأغلبية الساحقة من الرجال والنساء والأطفال، وتتميز هذه الطبقات بأن مشاكلها الاقتصادية والاجتماعية تغلب على مشاكلها الأخرى، وليس هناك من جهد أو وقت للاهتمام بالأغراض الجسدية غير المُلحَّة أو غير المتعارضة مع سير الحياة، أو غير القاتلة أو المعجِزة لرب الأسرة الكادح أو الرجال الذين ينفقون على الأسرة. أمَّا الأعراض غير الجسدية (أو النفسية) فلا أحد يهتم بها أو يلحظها، اللهم إلا إذا تحولت إلى مرضٍ عقليٍّ شديد، أو الجنون الكامل الذي يحُول دون ذهاب الرجل إلى عمله أو يجعله خطرًا على الأسرة أو المجتمع.

وحيث إن مكانة المرأة في الأسرة المصرية أقل من الرجل بصفةٍ عامة، فإن نصيب المرأة من التجاهل والإهمال أكثر من نصيب الرجل، وصحة المرأة الجسدية ليست في أهمية صحة الرجل الجسدية. أمَّا صحة المرأة النفسية فهذا أمر لا تفطن إليه الأغلبية الساحقة من الأسرة المصرية إلا في حالةٍ واحدة، وهي حالة جنون المرأة الواضح، الذي يعطل المرأة عن عملها في البيت أو في الحقل أو في المصنع أو في المكتب، وتصبح بلا فائدة، أو تصبح مصدرًا للمشاكل؛ حينئذٍ يدرك الجميع أنها مريضة ولا بد من إدخالها المستشفى العقلي أو النفسي بغرض العلاج أو بغرض التخلص من وجودها داخل الأسرة.

لكن المرأة في الطبقات المستريحة اقتصاديًّا هي أكثر حظًّا بالعناية، وإن كان حظها من العناية أقل من حظ الرجل في الأسرة نفسها، اللهم إلا إذا كانت امرأة ثريَّة، وهي التي تنفق من أموالها على زوجها وأولادها، حينئذٍ تتغير القيم، وتشعر المرأة بقيمتها، ويشعر من حولها أيضًا بقيمتها، وتصبح أعراضها الجسدية أو النفسية محط الاهتمام والعناية، فهي في النهاية التي تدفع نفقات الطبيب والعلاج، وهي صاحبة القرار في اعتبار «الصداع» مثلًا مرضًا يستحق زيارة الطبيب، أو هو مجرد شيءٍ طبيعي يحدث لكل النساء، وهي التي تقرر ما إذا كان المفروض أن تذهب إلى طبيبٍ باطني أو أمراض نساء أو طبيبٍ نفسي.

على أن مثل هؤلاء النساء قليلات؛ فالمرأة حتى وإن كانت تنفق على الأسرة أو تشارك في الإنفاق فهي ما زالت خاضعة بحكم العُرف والقوانين والأديان للرجل، وكثيرًا ما يسيطر الرجل على مالها أو راتبها الشهري، ويصبح هو صاحب القرار فيما إذا كان الصداع أو الأرق سببًا يستحق التضحية بخمسة جنيهات أو عشرة.

ويمكن لنا أن نتصور هذه النسبة القليلة جِدًّا من النساء اللائي يستطعن في النهاية الوصول إلى الطبيب النفسي بسبب أعراض العصاب المؤقتة أو الدائمة، وليس بسبب الهستيريا الواضحة.

وإذا عرفنا أن أغلبية أطباء النفس في مصر رجال، وأنهم لا يختلفون كثيرًا بحكم التربية والتعليم والدين والعرف عن الرجال الآخرين من حيث نظرتهم إلى المرأة، وأنهم بحكم التعليم الطبي التقليدي المتوارث عن سيجموند فرويد الوريث الشرعي لكهنة العصور الوسطى، لا يعرفون حقيقة المرأة جسدًا ونفسًا، أو يعرفونها من خلال نظرية فرويد الخالدة التي حكمت بأن المرأة ذكر ينقصه عضو الذكر، أو أنثى خُصيت جسدًا وعقلًا بحيث لا يزيد طموحها الجسدي أو العقلي عن الأكل والإنجاب والطاعة وخدمة الرجل والأطفال.

إذا عرفنا أن أغلبية أطباء النفس في مصر (بل في العالم الأبوي كله أيضًا) على هذا النحو، فما الذي يمكن أن يفعله الطبيب النفسي لعلاج امرأةٍ مصابة بالعصاب، خاصة إذا علمنا أن العصاب يصيب النساء بسبب ذلك الإحباط المستمر في طموحهن الجسدي والعقلي نتيجة ذلك المفهوم التقليدي عن أن المرأة أقل من الرجل جسدًا وعقلًا، وأنها لم تُخلق إلا لخدمة الرجل والأطفال والطاعة والإنجاب؟

ولا أعني بذلك أن الطبيبات النفسيات أحسن حالًا من الأطباء لمجرد كونهن نساء، فكم من امرأة أكثر تخلُّفًا في نظرتها لنفسها ولبنات جنسها من الرجل! لكن أعني أن الطب النفسي والجسدي لا يزال يشتمل على حقائق غير حقيقية، ولا زال في حاجة إلى عقول ثورية تُنقِّيه من خزعبلات العصور الوسطى، وتدعمه بالأفكار المتنوِّرة الحديثة عن المرأة وعن الرجل أيضًا.

بل لا بد من الاعتراف بفضل عدد من النساء والرجال من مختلف البلاد في الشرق والغرب، الذين ساهموا في الماضي القريب والبعيد في تغيير الحقائق النفسية والطبية التقليدية، والذين يساهمون حتى اليوم، وما زالوا يدرسون ويبحثون ويكتبون ويثورون، رغم ما يصادفون من معاناة ومشاق قد تصل إلى حد السجن، أو الضرب، أو الفصل من العمل، أو التجويع، أو القتل.

إن هؤلاء الرواد القلائل من النساء والرجال هم الذين مهَّدوا الطريق أمامنا، وعلينا أن نواصل المسيرة والبحث من أجل حياة أفضل للنساء والرجال والأطفال، لا يقلل من عزيمتنا تشريد أو تجويع أو اضطهاد؛ فالأفكار الجديدة في كل مكان وزمان تُصارِعها الأفكار القديمة، والتاريخ البشري قد أثبت في جميع الأزمنة والعهود أن الانتصار دائمًا في صف الجديد، وهو صف التقدم، ومن أجل هذا تسير حياة البشر إلى الأمام وليس إلى الوراء.

ما هو حجم المشكلة؟

أدركت وجود المشكلة (وهي إصابة النساء المصريات بالعصاب) من كثرة الأعراض العصابية التي كانت تشكو منها النساء والفتيات اللائي كُنَّ يترددن على عيادتي أو بيتي أو مكتبي في مجلة «الصحة»، ومن أن نسبة كبيرة من صديقاتي النساء المتعلمات كن يشْكُون لي دائمًا من أعراض نفسية وعصابية، وقد لاحظت بصفة عامة أن حياة المرأة في مجتمعنا المصري حياة لا تحقق لها السعادة أو الصحة النفسية، وأنه من النادر جدًّا إذا ما صادفت امرأة تشعر بالرضى أو بالتحقق جسديًّا أو نفسيًّا.

وانطلاقًا من هذا الإدراك غير المدعَّم بالأرقام العلمية، فقد بدأت أبحث عن حجم المشكلة الحقيقي، أو عن نسبة إصابة النساء بالعصاب في مجتمعنا، وقد لجأت من أجل هذا إلى مراكز البحوث عندنا، سواء في الجامعات أو المعاهد، ودهشت حينما اكتشفت أن مثل هذه البحوث غير موجودة، وأن أحدًا لا يعرف النسبة الحقيقية للعصاب بين النساء والفتيات.

إلا أنني التقيت في كلية الطب بجامعة عين شمس الزميل الأستاذ الدكتور أحمد عكاشة والدكتور عادل صادق، وهما اللذان وجهاني إلى العيادة النفسية التابعة للمراقبة العامة للشئون الطبية لجامعة عين شمس، وهذه العيادة النفسية هي المختصة بفحص وعلاج المرضى والمريضات نفسيًّا من طلبة وطالبات جامعة عين شمس.

وقد رأيت أنه يمكن من خلال الاطِّلاع على دفاتر هذه العيادة النفسية الوصول إلى نسبة تقريبية عن الإصابة بالعصاب بين طالبات جامعة عين شمس كالآتي:

أولًا: العيادة النفسية بالمراقبة العامة للشئون الطبية لجامعة عين شمس:
تخدم: ٥٤٢٤٠ طالبًا وطالبةً.
منهم: ٢٩٨٣٢ طالبةً.

و: ٢٤٤٠٨ طلاب.
عدد المريضات بالعصاب من الطالبات حسب تشخيص أطباء العيادة النفسية: ٢٧٣٥ طالبةً.
عدد المرضى بالعصاب من الطلبة: ١٥٣٤ طالبًا.
نسبة العصاب بين الطالبات: ٩,١ بالمائة.
نسبة العصاب بين الطلبة: ٦,٢ بالمائة.

من هذه الأرقام يتضح أن نسبة العصاب بين الطالبات أعلى منها بين الطلبة، وهذا أمر يستدعي البحث والدراسة لمعرفة الأسباب التي تجعل الطالبة المصرية أكثر عرضة للإصابة بالعصاب من زميلها الطالب المصري الذي يعيش في الظروف الاجتماعية والاقتصادية نفسها.

كما أننا لو اعتبرنا أن طالبات جامعة عين شمس يمثلن الطالبات المصريات الجامعيات بصفة عامة بمختلف طبقاتهن وأسرهن، فإن نسبة ٩ بالمائة تقريبًا كمؤشر عام لنسبة الإصابة بالعصاب إنما هي نسبة مرتفعة، خاصةً لو وضعنا في اعتبارنا أنها أقل من الحقيقة؛ لأن عددًا من طالبات الجامعة (وخاصة من الأسر العالية وفوق المتوسطة) لا يذهبن إلى العيادة النفسية التابعة للجامعة وإنما يذهبن إلى طبيب الأسرة الخاص، ولا تعلم العيادة النفسية الجامعية عنهن شيئًا.

ولو أنَّا اعتبرنا الطالبات الجامعيات كممثلات للنساء المتعلمات في مصر لاستطعنا أن نقول: إنه من بين كل مائة امرأة متعلمة في مصر، فإن تسع نساء منهن معرضات للإصابة بالعصاب، وهذه نسبة مفزعة في العلوم الطبية بجميع فروعها، وتمثل في حد ذاتها مشكلة تستوجب الدراسة والعلاج.

وقد كان من الطبيعي بعد الوصول إلى هذه النسبة للإصابة بالعصاب بين النساء المتعلمات أن أبحث عن النسبة بين النساء غير المتعلمات، ولم يكن أمامي من مكان للحصول على البيانات المطلوبة سوى عيادة مصر الجديدة الشاملة التابعة للهيئة العامة للتأمين الصحي (فرع القاهرة)، ومن دفاتر العيادة النفسية لهذه الوحدة حصلت على البيانات التالية:

تخدم: ٩٨٧١ عاملًا وعاملةً.
منهم: ١٩٩٢ عاملةً.
و: ٧٨٧٩ عاملًا.

عدد المريضات بالعصاب بين العاملات حسب تشخيص أطباء العيادة النفسية: ١٤٣ عاملةً.
عدد المرضى بالعصاب بين العمال: ٣٩٦ عاملًا.
نسبة العصاب بين العاملات: ٧,١٧ بالمائة.
نسبة العصاب بين العمال: ٥,٠٢ بالمائة.

ومن هنا أيضًا يتضح أن نسبة الإصابة بالعصاب بين النساء غير المتعلمات أعلى منها بين الرجال غير المتعلمين الذين يعيشون في الظروف الاقتصادية والاجتماعية نفسها.

وبالتعمق الأكثر في بيانات هذه العيادة اتضح أنها تخدم العاملات والعاملين في خمسة بنوك يشملها التأمين الصحي «البنك الأهلي وبنك مصر وبنك الإسكندرية وبنك ناصر»، وتخدم العاملين والعاملات في ثلاث شركات أدوية «الشركة العربية للأدوية، وشركة النيل للأدوية، والشركة المصرية لتجارة الأدوية»، وتخدم العاملين في شركة عمر أفندي بمصر الجديدة، وشركة الأزياء الحديثة بمصر الجديدة، وشركة مصر للألبان بمصر الجديدة.

واتضح لي أن أغلبية هؤلاء العاملات لم يحصلن على أكثر من الابتدائية، وبعضهن لا يقرأن ولا يكتبن، ونسبة قليلة حصلت على شهادة متوسطة، وهن موظفات يعملن أعمالًا كتابية.

وقد وجدتُ أن عدد هؤلاء الموظفات في البنوك الخمسة التي تخدمها العيادة: ١٠٨ موظفات، وكان عدد حالات العصاب بين الموظفات: ٩ حالات؛ أي أن نسبة العصاب بينهن = ٨,٣ بالمائة.

وهذه النسبة تزيد قليلًا عن نسبة الإصابة بالعصاب بين العاملات غير المتعلمات، لكنها تقلُّ عن نسبة الإصابة بالعصاب بين النساء الجامعيات المتعلمات، وهذا يشير إلى أن المرأة تصبح معرَّضة للإصابة بالعصاب كلما زادت درجة تعلُّمها.

ويمكن القول مما سبق: إنَّ حجم المشكلة كبير ويستدعي الانتباه بل الفزع، إن نِسَبًا أقل من هذه النسبة بكثير أفزعت الأطباء في بلاد مختلفة. إن حجم الإصابة بالأمراض النفسية الذي فزعت له الولايات المتحدة الأمريكية لم يصل إلى هذه النسبة، ويقول الدكتور والتر ألفاريز: «كم كانت الصدمة عليَّ حين علمت (منذ سنوات ماضية) أن من بين كل عشرين طفلًا يولَدون في نيويورك هناك طفل واحد مُعرَّض للذهاب إلى المستشفى النفسي.»

وقد يتصور الناس مبلغ الصدمة التي شعرتُ بها حين أدركت أنه من بين كل عشر بنات يولَدْن في مصر فإن هناك واحدة معرَّضة للمرض النفسي.

أهناك دافع أقوى من هذا الدافع لإجراء مثل هذا البحث، ومحاولة معرفة الأسباب الحقيقية وراء هذه المشكلة من أجل الوصول إلى العلاج الصحيح؟

وهكذا يمكن تحديد الهدف من هذا البحث كالآتي:

دراسة الأسباب وراء إصابة النساء والفتيات المصريات بالعصاب، وإلقاء بعض الضوء على المشاكل النفسية التي تتعرض لها المرأة في مجتمعنا المصري، ومحاولة التعرف على أسبابها الحقيقية بين النساء المتعلمات وغير المتعلمات.

حول التعريفات العلمية

بالرغم من المثل الصيني المعروف الذي يقول بأن «بداية الحكمة هي تسمية الأشياء بأسمائها الصحيحة» فإنه في مجال الدراسات الطبية النفسية لا يمكن بحال من الأحوال اتِّباع رأي هذا الصيني الحكيم، فمن المعروف أنه لم يحدث أن اتفق اثنان من أطباء النفس على تشخيص واحد، أو تعريف واحد، ويقول دوجلاس كامبيل: «ليس هناك من فرع من الطب يحتوي على كل هذه التعريفات (والنظريات أيضًا) المتباينة المتغيرة مثل الطب النفسي المعاصر.»

وبعد قراءتي لتعريفات أطباء النفس لمرض العصاب، فقد أدركت في النهاية أنهم جميعًا لا يتفقون على شيء، وقد أشار «ت. أ. روس» أن كلمة عصاب قد اختلطت بكلمة المرض العصبي إلى حد عدم القدرة على التفرقة بينهما، وأنه لهذا السبب كفَّ تمامًا عن استخدم كلمة المرض العصبي.

ولم يعد مهمًّا لدى أطباء النفس (بسبب عدم وجود تعريفات صحيحة) تسمية المرض النفسي باسم معين، ولكن المهم هو أن يُدرَك بوضوح أنه مرض نفسي وليس مرضًا عقليًّا أو «الذهان»، وأن يُدرَك أنه مرض نفسي وليس مرضًا عضويًّا أو جسديًّا.

وقد اعتقد «ت. أ. روس» وغيره من العلماء أن المرض النفسي العصاب لا يمكن أن يتحول إلى مرضٍ عقلي أو ذهان، واعتقد آخرون أن المرض النفسي اضطراب في شخصية الإنسان وانفصال بينه وبين المجتمع، وآخرون يعتقدون أن المرض النفسي ليس إلا مبالغة لإحدى الصفات أو التصرفات الطبيعية لشخصية الإنسان، ويعتقد «كوب» أنه في الحالات المبكرة يمكن الوقوع في الخطأ وتشخيص المرض العقلي على أنه مرض نفسي فقط.

ولا شك أن هذا التخبط في التعريفات يعكس المشكلة الأساسية في الطب النفسي، وهي التخبط في معرفة أسباب المرض النفسي أو العصبي أو العقلي، إنَّ الجهل بالأسباب

الحقيقية يقود إلى جهل بالتعريفات؛ ولهذا فقد أصبح كثير من أطباء النفس الجدد يكرِّسون جهودهم لمعرفة أسباب المرض الحقيقية، وقادهم البحث إلى أن يرفضوا المفاهيم النفسية القديمة عن الرجل والمرأة والطفل، وأن يرفضوا تلك التسمية التي شاعت في الطب النفسي بأنه مجنون أو عصابي أو طبيعي، وهناك أطباء اليوم يعتقدون أن مثل هذه التسميات خاطئة؛ فليس هناك من يمكن أن يُسَمَّى بالطبيعي، ومن يطلق عليه «عصابي» قد يكون هو الصحيح نفسيًّا، ومن يُطلَق عليه «الطبيعي» قد يكون هو المريض نفسيًّا.

وينطبق هذا الكلام على كل من الرجال والنساء، ومن هنا تأتي صعوبة تحديد معنى امرأة عصابية أو مريضة بالعصاب، وبالمثل أيضًا صعوبة تعريف امرأة طبيعية أو سليمة نفسيًّا. إن دراسة الطب النفسي التقليدي ابتداء من بنيامين روش سنة ١٨١٢م إلى سيجموند فرويد فإننا نجد أن هذا الطب النفسي كان يميل إلى تفسير جميع أنواع السلوك غير العادي على أنها نوع من المرض النفسي، وقد اعتُبرت المرأة الذكية الطموحة في الحياة امرأة عصابية لأنها ترفض وضعها الأدنى بالنسبة للرجل، وترفض دورها المفروض عليها في البيت كخادمة للرجل والأطفال، أمَّا المرأة الطبيعية فهي تلك المرأة التي تقبل وضعها الأدنى برضًى وسرور، وتجد سعادتها في خدمة زوجها وأطفالها، وقد آمن الطب النفسي بأن الصحة النفسية هي التكيُّف مع المجتمع، وأن المرض النفسي هو عدم التكيف مع المجتمع، أو رفض القيم أو الدور الذي يفرضه المجتمع على الإنسان رجلًا كان أو امرأةً.

وقد وجدتُ أن التعريف العالمي والمعدل لمعنى العصاب يقول:

> يصبح الإنسان مريضًا بالعصاب إذا صادف صعابًا في التكيف مع هدوئه الداخلي أساسًا، أو مع علاقاته بالآخرين، أو الاثنين معًا. إن الشخصية الإنسانية في محاولتها للتكيف مع الضغوط داخل النفس وخارجها، تستخدم أعراضًا نفسيةً أو جسميةً، وتختلف بذلك عن أمراض اضطراب الشخصية التي فيها نماذج معينة من السلوك.

وقد انتهيت إلى أن أفضل الطرق التي تتفق مع هدف بحثي هي أن أضع شروطًا محددة لاختيار المرأة العصابية كالآتي:

أن تكون المرأة قد شُخِّصت بواسطة طبيبها الخاص أو بالعيادة الخارجية النفسية أو المستشفى النفسي على أنها مريضة بالعصاب (أي نوع من أنواع العصاب المعروفة في الطب النفسي)، وأن تكون قد تناولت أي نوع من أنواع العلاجات النفسية الخاصة بالعصاب لمدة سنتين على الأقل، وأنها لا تزال تشعر بالأعراض النفسية.

وبالرغم من قصور هذا التعريف، وبالرغم من تحفظي الشديد على مدى صحة تشخيص الطبيب النفسي الخاص أو العام، وبالرغم من أن عددًا من النساء والفتيات اللائي تم تشخيصهن على أنهن عصابيات. وجدت أنهن يتمتعن بصحة نفسية أكثر من عدد من النساء والفتيات الطبيعيات، وبالرغم من كل ذلك فقد كان لا بد من التحديد لكلمة امرأة عصابية وفقًا لمقاييس معروفة في الطب النفسي.

أمَّا المرأة الطبيعية، فقد تم تحديدها كالآتي:

«هي المرأة التي لم تشعر في يوم من الأيام بأي أعراض نفسية تدعوها إلى استشارة الطبيب، ولم تضطر في يوم من الأيام إلى تناول أقراص مهدِّئة أو منوِّمة من تلقاء نفسها أو بواسطة طبيب.»

وحيث إنني فرَّقت في البحث بين النساء المتعلمات والنساء غير المتعلمات، فقد حددت معنى امرأة متعلمة كالآتي:

«هي المرأة المتعلمة تعليمًا عاليًا (جامعيًّا) أو التي تعمل في عمل فكري أو فني خلَّاق.»

أمَّا المرأة غير المتعلمة فهي:

«المرأة التي حُرمت من التعليم الجامعي، أو تعلمت تعليمًا منخفضًا متوسطًا، وتكون ربَّة بيت فقط أو تعمل آليًّا يدويًّا روتينيًّا عملًا من أعمال الخدمة.»

(١) كلمة عن منهج البحث

لم أتَّبِع في هذا البحث الأسلوب التقليدي في جمع المعلومات من النساء والفتيات اللائي اخترتهن لهذه الدراسة، كنت أستقبل الواحدة منهن في بيتي كما أستقبل صديقة قديمة، أو أزور الواحدة منهن في منزلها أو مكان عملها كما أفعل مع صديقاتي المُقرَّبات، ولم تكن الجلسة تتسم بالرسمية أو الجو البارد الذي يشيعه البحث العلمي عادةً، ولم أكن أمسك ورقةً وقلمًا، ولم أكن أُوجِّه أسئلة وأنتظر أجْوبة، ولم أضع نفسي موضع الطبيب الذي يُشخِّص الداء، أو موضع القاضي الذي يُصدِر أحكامًا، أو موضع الواعظ الذي يعطي نصائح، كنت أترك الواحدة منهن تفتح قلبها وتحكي مشكلتها، وأشجع الواحدة منهن على أن تتجرد أمامي من كل الأقنعة التي ترتديها حين تقابل الناس في حياتها الاجتماعية، وأول خطوات التشجيع هي أن أخلع أنا نفسي القناع، فيرون نفسي على حقيقتها.

وقد استطعت بهذه الطريقة أن أجعل هؤلاء النساء والفتيات يفتحن قلوبهن لي، ويحكين لي عن أدقِّ أسرار حياتهن، وأحيانًا تلك الأسرار التي لا يقولها الإنسان حتى لنفسه وتظل مجهولة لديه إلى الأبد، وأدركتُ أن الصدق يشدُّ إليه الصدق، والقلب المفتوح يجذب إليه القلب المفتوح، وأنه بغير هذا لا يمكن للباحث أو الباحثة أن يحصل على معلومات صحيحة من «الإنسان» الذي يحاول أن يفهمه. إن معظم الباحثين أو الأطباء يستبدلون كلمة «الإنسان» بكلمة «المريض» أو «الحالة»، ويستبدلون كلمة «يحاول أن يفهمه» بكلمة «يفحصه»، ولذلك يعجز الكثير من الباحثين والأطباء عن فهم الإنسان الذي يقع تحت أيديهم، وكم يَتهِم بعضُ الأطباء (وبالذات أطباء النفس) مرضاهم ومريضاتهم بأنهم يكذبون، ويُجرون عليهم اختبارات نفسية لقياس الكذب.

ولكن كيف يمكن لإنسان أن يفتح قلبه أمام قلب مُغلَق؟ كيف يمكن لإنسان أن يرفع القناع عن نفسه وأمامه إنسان مُقنَّع؟ كيف يمكن أن يحكي الإنسان عن ضعفه وأخطائه ونزواته وهفواته لإنسان قوي مزهوٍّ بنفسه مسلَّح بالقيم والشهادات وجالس وراء مكتبٍ فخم في يده ورقة وقلم وعينه على جيب المريض؟!

وقد اخترتُ هؤلاء الفتيات والنساء ممن يطلق عليهن اسم «المريضات نفسيًّا» لهيئة التأمين الصحي، وبعض ربات بيوت فقط، وبعضهن فلاحات، وبعضهن جئن إليَّ من تلقاء أنفسهن سعيًا وراء حل أو علاج، وبعضهن فنانات أو كاتبات من صديقاتي.

ولا يمكن لي أن أقول إن هؤلاء الفتيات والنساء يُمثلن نساء مصر، أو نساء المجتمع العربي بصفة عامة، ولا يمكن لي أن أعمم النتائج التي حصلت عليها على جميع النساء المصريات أو العربيات.

فمن أهم المشاكل التي تعترض البحوث الاجتماعية النفسية عندنا عدم وجود أطلس لمشاكلنا الاجتماعية النفسية، يستند إلى مسح شامل للرأي العام، تقدمه عيِّنات ممثِّلة لقطاعات المجتمع المختلفة؛ ولهذا لا يمكن لأي باحث بمفرده أن يقدم عيِّنةً للمجتمع المصري، وأي نتائج يخرج بها لا يمكن أن تكون ممثلة للمجتمع المصري بجميع قطاعاته المختلفة.

وقد أُجريَ البحث على أربع مجموعات من النساء كالآتي:

المجموعة الأولى: ٥٠ امرأة متعلمة عصابية.

المجموعة الثانية: ٥٠ امرأة غير متعلمة عصابية.

المجموعة الثالثة: ٣٠ امرأة متعلمة طبيعية.

المجموعة الرابعة: ٣٠ امرأة غير متعلمة طبيعية.

(٢) الخلو من أي مرض جسمي

تم اختيار الحالات بحيث تكون جميع المجموعات الأربع خالية من أي مرض جسمي أو عضوي، وأُجريَت الفحوص الطبية أو الفحوص المعملية اللازمة في حالة التشكك من وجود مرض عضوي، وتم إخراج أية حالة مُصابة بأي مرض عضوي.

(٣) أدوات البحث

كانت الوسيلة للبحث هي الفحص النفسي الاجتماعي الكامل لكل حالة، وذلك عن طريق مقابلتي الشخصية مع كل حالة، وكنت أُضطر في بعض الحالات أن أقابل بعض أفراد الأسرة أيضًا كالأب أو الأم أو الزوج أو الرئيس في العمل، وهناك حالات التقيتُ بها مرة واحدة، واستغرقت الجلسة من ساعة ونصف إلى ثلاث ساعات، وهناك حالات أخرى قابلتها أكثر من مرة لساعات طويلة، وقد وضعتُ على الورق تخطيطًا للأسئلة التي أسعى إلى معرفة الإجابة عليها، لكن لقائي مع الحالات لم يأخذ شكل الأسئلة والأجوبة التي تُدوَّن على الورق، أو ذلك الجو الرسمي الذي ينشأ بين الباحث العلمي والحالة، كان لقائي مع النساء والفتيات أبعد ما يكون عن جو البحث، ولم أكن أمسك القلم في يدي وأكتب شيئًا إلا بعد أن أجلس وحدي بعد أن تتركني المرأة أو الفتاة، كنت أدرك أنني أريد الوصول إلى الأعماق العميقة لكل حالة، ولم يكن هذا ممكنًا إلا في جوٍّ من الود والتعاون والفهم والثقة، كثيرًا ما التقيت بالحالات في بيتي، أو أدعوهن على فنجان شاي في الهواء الطلق، أو أزورهن في بيوتهن.

وكم كنت أودُّ أن أستعرض تفصيلًا كلَّ لقاء تم بيني وبين هذه الحالات، لكن ذلك لم يكن ممكنًا، وكان من الممكن فقط أن أختار بعض الحالات وأكتب عنها بشيءٍ من التفصيل، وأن أجمع نتائج المجموعات الأربع على شكل جداول بسيطة، وأن أستخلص من الأرقام بعض النسب والإحصاءات الضرورية لأي بحث.

(٤) النقاط الأساسية التي دارت حولها الأسئلة

(٤-١) الطفولة

الجو الاقتصادي والاجتماعي- والعاطفي - نوع الحرمان - علاقة الأب والأم والإخوة الذكور والبنات - موقف الأسرة من البنت وتعليمها وعملها - موقف الأسرة من الجنس - حوادث جنسية معينة - عملية ختان وموعدها - المداعبات الجنسية والعادة السرية - أمراض عصابية في الطفولة - تفضيل الذكور على البنات في الأسرة - هل تمنَّت أن تكون ولدًا - سيطرة فرد بالأسرة.

(٤-٢) المراهقة

طموحها وأملها في الحياة - علاقتها بالمدرسة والتعليم - الحالة الاجتماعية والعاطفية في المدرسة - حياتها الاجتماعية والعاطفية داخل الأسرة - علاقتها بالجنس الآخر - العادة السرية - نوع الحرمان العاطفي أو الجنسي - بدء الدورة الشهرية وآلامها - الاحتلام ليلًا - المعلومات عن الجنس - مشاكل عاطفية أو جنسية - أحلام اليقظة.

(٤-٣) العمل

موقف مجتمع العمل من كونها امرأة - الحياة الاجتماعية والعاطفية في محيط العمل - علاقتها برئيسها وزملائها - الأسباب التي تدعوها إلى العمل - موقف الأسرة أو الزوج من عملها - هل تقوم بالأعمال المنزلية إلى جانب عملها - نوع العمل وعلاقته بطموحها - مشاكل المواصلات - مشكلة دار الحضانة.

(٤-٤) الزواج

أسباب الزواج - علاقتها بزوجها قبل الزواج - مساهمة الزوج في الأعمال المنزلية وتربية الأطفال - الإشباع الجنسي مع الزوج - نوع العلاقة مع زوجها - علاقات أخرى خارج الزواج - مشاكل مع الزوج بسبب العمل أو الأسباب الأخرى - استخدام وسائل منع الحمل - الإجهاض أو وفيات الأطفال - علاقتها بأطفالها البنات والذكور - هل حياتها أفضل

من حياة أمها – هل ترتبط بزوجها مرة أخرى لو عادت السنين إلى الوراء – العلاقة بأهل الزوج – مشاكل في البيت – طلاق – زوجة أخرى – مشاكل الأطفال.

(٤-٥) الفحص النفسي

الأحلام – التخيلات وأحلام اليقظة – محاولة الانتحار – الأرق – الصداع – نوع العلاج الذي أخذته – مدة العلاج – علاقتها بالطبيب النفسي – الشخصية والسلوك – الكلام – التفكير – الهلاوس – المخاوف – الاندفاعات – الإدراك – الذاكرة – درجة الانتباه والتركيز – البصيرة.

(٤-٦) قصة المرض النفسي كما ترويه السيدة أو الفتاة بنفسها

(٤-٧) السبب الرئيسي وراء اضطرابها النفسي

وكانت خصائص العينة كالآتي:

جدول ١: السن.

السن	متعلمة عصابية	غير متعلمة عصابية	متعلمة طبيعية	غير متعلمة طبيعية
٢٠–٢٤ سنة	٥٤٪	٣٨٪	٤٠٪	٣٤٪
٢٥–٢٩ سنة	٤٦٪	٦٢٪	٦٠٪	٦٦٪

جدول ٢: الحالة الزوجية.

الحالة الزوجية	متعلمة عصابية	غير متعلمة عصابية	متعلمة طبيعية	غير متعلمة طبيعية
لم تتزوج	٢٦٪	٢٤٪	٣٠٪	٢٣٪
متزوجة	٦٤٪	٧٠٪	٧٠٪	٧٣٪

الحالة الزوجية	متعلمة عصابية	غير متعلمة عصابية	متعلمة طبيعية	غير متعلمة طبيعية
مطلَّقة	٨٪	٦٪	—	٤٪
أرمل	٢٪	—	—	—

جدول ٣: العمل.

العمل	متعلمة عصابية	غير متعلمة عصابية	متعلمة طبيعية	غير متعلمة طبيعية
عمل فني أو خلَّاق	١٨٪	—	١٤٪	—
عمل روتيني أو آلي أو يدوي	١٢٪	٧٤٪	١٠٪	٦٦٪
طالبة بالجامعة	٥٦٪	—	٦٦٪	—
ربة بيت فقط	١٤٪	٢٦٪	١٠٪	٣٤٪

جدول ٤: المستوى الاقتصادي.

الطبقة الاجتماعية	متعلمة عصابية	غير متعلمة عصابية	متعلمة طبيعية	غير متعلمة طبيعية
فوق المتوسط (أكثر من ١٥ج للفرد في الشهر)	٢٢٪	٤٪	٢٩٪	٣٪
متوسطة (١٥ج للفرد في الشهر)	٧٨٪	٥٤٪	٧١٪	٧٦٪
تحت المتوسطة (أقل من ١٥ج للفرد شهريًّا)	—	٤٢٪	—	٢١٪

جدول ٥: مشاكل في الطفولة.

نوع مشاكل الطفولة	متعلمة عصابية	غير متعلمة عصابية	متعلمة طبيعية	غير متعلمة طبيعية	المجموع	العدد الكلي للحالات	النسبة المئوية
القسوة أو حرمان عاطفي من الأب أو الأم	٢١	٢٨	١٣	١٤	٧٦	١٦٠	٪٤٧,٥
تفضيل الذكور على الإناث في الأسرة	٣٣	٤٤	١٧	٢٢	١١٦	١٦٠	٪٧٢,٥
حوادث جنسية معينة مع رجال كبار	١٩	٢٣	٨	١٣	٦٣	١٦٠	٪٣٩,٣
العادة السرية أو مداعبات جنسية أثناء الطفولة	٣٢	٣٠	٦	٣	٧١	١٦٠	٪٤٤,٣
تمنَّت أن تكون ولدًا	٣٦	٢٩	١٩	٩	٩٣	١٦٠	٪٥٨,١
أُجريَ لها عملية الختان	٢٩	٤٨	٢٤	٣٠	١٣١	١٦٠	٪٨١,٨
أزمات اقتصادية	٦	١٧	٤	٩	٣٦	١٦٠	٪٢٢,٥

(٥) نتائج البحث

مشاكل الطفولة: يتضح من الجدول رقم ٥ أن عملية الختان شائعة بصفة عامة بين المجموعات الأربع (٨١,٨ بالمائة)، كذلك تفضيل الذكور على البنات في الأسرة (٧٢,٥ بالمائة)، وارتفاع نسب المشاكل الجنسية والعاطفية بصفة عامة عن المشاكل الاقتصادية.

كذلك يتضح أن القسوة أو الحرمان العاطفي من الأب أو الأم ليس عاملًا من عوامل الإصابة بالعصاب في هذه الحالات، فهو يكاد يتساوى في المجموعات العصابية مع المجموعات غير العصابية.

على أنه يزيد في الحالات غير المتعلمة عنها في المتعلمة حسب الجدول رقم ٦.

جدول ٦

نوع المجموعة	حرمان عاطفي في الطفولة	المجموع	النسبة المئوية
متعلمة عصابية	٢١	٥٠	٤٢٪
غير متعلمة عصابية	٢٨	٥٠	٥٦٪
متعلمة طبيعية	١٣	٣٠	٤٣,٣٪
غير متعلمة طبيعية	١٤	٣٠	٤٦,٦٪

جدول ٧

نوع المجموعة	تفضيل الذكور على الإناث	المجموع	النسبة المئوية
متعلمة عصابية	٣٣	٥٠	٦٦٪
غير متعلمة عصابية	٤٤	٥٠	٨٨٪
متعلمة طبيعية	١٧	٣٠	٥٦,٦٪
غير متعلمة طبيعية	٢٢	٣٠	٧٣,٣٪

وفي جدول ٧ نرى أن تفضيل الذكور على الإناث في الأسرة يحدث بنسبة أعلى في المجموعات العصابية عن المجموعات غير العصابية، ويرتفع أيضًا في المجموعات غير المتعلمة عن المجموعات المتعلمة، وبالنسبة لأثر الحوادث الجنسية مع رجال كبار في الطفولة فهي تتضح من الجدول رقم ٨، ويُرى أن نسبة الحوادث الجنسية أعلى في المجموعات العصابية عن المجموعات غير العصابية، وترتفع أيضًا في المجموعات غير المتعلمة.

جدول ٨

نوع المجموعة	تفضيل الذكور على الإناث	المجموع	النسبة المئوية
متعلمة عصابية	١٩	٥٠	٣٨٪
غير متعلمة عصابية	٢٣	٥٠	٤٦٪
متعلمة طبيعية	٨	٣٠	٢٦,٦٪
غير متعلمة طبيعية	١٣	٣٠	٤٣,٣٪

جدول ٩

نوع مشاكل الطفولة	متعلمات عصابيات	متعلمات طبيعيات	المجموع	العدد الكلي	النسبة المئوية
القسوة أو حرمان عاطفي من الأب أو الأم	٢١	١٣	٣٤	٨٠	٤٢,٥٪
تفضيل الذكور على الإناث في الأسرة	٣٣	١٧	٥٠	٨٠	٦٢,٥٪
حوادث جنسية معينة مع رجال كبار	١٩	٨	٢٧	٨٠	٣٣,٧٪
العادة السرية أو المداعبات الجنسية أثناء الطفولة	٣٢	٦	٣٨	٨٠	٤٧,٥٪
تمنَّت أن تكون ولدًا	٣٦	١٩	٥٥	٨٠	٦٨,٧٪
أُجريَ لها عملية الختان	٢٩	٢٤	٥٣	٨٠	٦٦,٢٪
أزمات اقتصادية	٦	٤	١٠	٨٠	١٢,٥٪

يتضح من الجدول رقم ٩ أن تفضيل الذكور على البنات شائع بين الأسر المتعلمة (٦٢,٥ بالمائة)، وأن نسبة كبيرة من بنات هذه الأسرة تمنين أن يكُنَّ ذكورًا (٦٨,٧ بالمائة)، ويتضح أيضًا انخفاض نسبة المشاكل الاقتصادية بالنسبة للمشاكل العاطفية والجنسية، أمَّا القسوة أو الحرمان العاطفي في الطفولة فهو منخفض نسبيًّا، ولا يوجد فروق ذات أهمية بين المجموعة العصابية والمجموعة الطبيعية.

أما بالنسبة لممارسة العادة السرية أو المداعبات الجنسية أثناء الطفولة فهي أكثر ارتفاعًا في المجموعة العصابية (٦٤ بالمائة) عنها في المجموعة الطبيعية (٢٠ بالمائة فقط).

جدول ١٠

نوع مشاكل الطفولة	متعلمات عصابيات	متعلمات طبيعيات	المجموع	العدد الكلي	النسبة المئوية
القسوة أو حرمان عاطفي من الأب أو الأم	٢١	٢٨	٤٩	١٠٠	٤٩٪
تفضيل الذكور على الإناث في الأسرة	٣٣	٤٤	٧٧	١٠٠	٧٧٪
حوادث جنسية معيَّنة مع رجال كبار	١٩	٢٣	٤٢	١٠٠	٤٢٪
العادة السرية أو المداعبات الجنسية أثناء الطفولة	٣٢ (٦٤٪)	٣٠ (٦٠٪)	٦٢	١٠٠	٦٢٪
تمنت أن تكون ولدًا	٣٦ (٧٢٪)	٢٩	٦٥	١٠٠	٦٥٪
أُجريَ لها عملية الختان	٢٩	٤٨	٧٧	١٠٠	٧٧٪
أزمات اقتصادية	٦	١٧	٢٣	١٠٠	٢٣٪

يتضح من الجدول رقم ١٠ ارتفاع نسبة تفضيل الذكور على البنات بين العصابيات (٧٧ بالمائة)، وكذلك الختان (٧٧ بالمائة)، وارتفاع نسبة المشاكل الجنسية والعاطفية عن المشاكل الاقتصادية، ويتضح أن نسبة المشاكل الاقتصادية أكثر ارتفاعًا في المجموعة غير المتعلمة عن المجموعة المتعلمة، وكذلك يتضح ارتفاع نسبة الحوادث الجنسية مع رجال كبار في المجموعة غير المتعلمة، وأيضًا ارتفاع نسبة عملية الختان بين المجموعة غير المتعلمة، وتزيد نسبة المتمنيات أن يكُنَّ ذكورًا في المجموعة المتعلمة عنها في غير المتعلمة.

جدول ١١

نوع مشاكل الطفولة	متعلمات عصابيات	متعلمات طبيعيات	المجموع	العدد الكلي	النسبة المئوية
القسوة أو حرمان عاطفي من الأب أو الأم	٢٨	١٤	٤٢	٨٠	٥٢,٥٪
تفضيل الذكور على البنات	٤٤	٢٢	٦٦	٨٠	٨٢,٥٪
العادة السرية أو المداعبات الجنسية أثناء الطفولة	٣٠ (٦٠٪)	٣ (١٠٪)	٣٣	٨٠	٤١,٢٪
حوادث جنسية مع رجال كبار	٢٣	١٣	٣٦	٨٠	٤٥٪
تمنت أن تكون ولدًا	٢٩	٩	٣٨	٨٠	٤٧,٥٪
أُجريَ لها عملية الختان	٤٨	٣٠	٧٨	٨٠	٩٧,٥٪
أزمات اقتصادية	١٧	٩	٢٦	٨٠	٣٢,٥٪

يتضح من الجدول رقم ١١ ارتفاع نسبة ختان البنات بين الأسر غير المتعلمة (٩٧,٥ بالمائة)، وكذلك تفضيل الذكور على البنات (٨٢,٥ بالمائة)، ارتفاع نسبة الحوادث الجنسية (٤٥ بالمائة)، كما يُلاحَظ أن المشاكل الاقتصادية ارتفعت نسبتها هنا (٣٢,٥ بالمائة) عنها في الأسر المتعلمة.

وهنا يتضح أيضًا ارتفاع نسبة العادة السرية في المجموعة العصابية (٦٠ بالمائة) عنها في المجموعة الطبيعية (١٠ بالمائة فقط)، ولو قارنًّا هذه النسب بالمجموعات غير المتعلمة لاتضح لنا أن أكثر المجموعات ممارسةً للعادة السرية هي العصابيات المتعلمات (٦٤ بالمائة) يليها الطبيعيات غير المتعلمات (٢ بالمائة) يليها الطبيعيات المتعلمات (١٠ بالمائة).

ويتضح من الجدول رقم ١٢ ارتفاع نسبة ختان البنات بين الطبيعيات (٩٠ بالمائة)، وكذلك ارتفاع نسبة تفضيل الذكور على البنات (٦٥ بالمائة)، وانخفاضها أكثر في المجموعة غير المتعلمة (١٠ بالمائة) عنها في المجموعة المتعلمة (٢٠ بالمائة)، ويُلاحَظ من الجدول أيضًا أن نسبة من تمنين أن يكن ذكورًا في الطبيعيات المتعلمات (٦٣ بالمائة)، وهي تكاد تكون ضعف مثيلاتها في الطبيعيات غير المتعلمات (٣٠ بالمائة).

جدول ١٢

نوع مشاكل الطفولة	متعلمات عصابيات	متعلمات طبيعيات	المجموع	العدد الكلي	النسبة المئوية
القسوة أو حرمان عاطفي من الأب أو الأم	١٣	١٤	٢٧	٦٠	٤٥٪
تفضيل الذكور على البنات	١٧	٢٢	٣٩	٦٠	٦٥٪
حوادث جنسية مع رجال كبار	٨	١٣	٢١	٦٠	٣٥٪
العادة السرية أو المداعبات الجنسية أثناء الطفولة	٦ (٢٠٪)	٣ (١٠٪)	٩	٦٠	١٥٪
تمنت أن تكون ولدًا	١٩ (٦٣٪)	٩ (٣٠٪)	٢٨	٦٠	٤٦,٦٪
أُجريَ لها عملية الختان	٢٤	٣٠	٥٤	٦٠	٩٠٪
أزمات اقتصادية	٤	٩	١٣	٦٠	٢١,٦٪

جدول ١٣: مقارنة النسب المئوية.

نوع مشاكل الطفولة	عصابيات متعلمة + غير متعلمة	طبيعيات متعلمة + غير متعلمة	متعلمات عصابية + طبيعية	غير متعلمة عصابية + طبيعية	النسبة الكلية
القسوة أو حرمان عاطفي من الأب أو الأم	٤٩	٤٥	٤٢,٥	٥٢,٥	٤٧,٥٪
تفضيل الذكور على البنات	٧٧	٦٥	٦٢,٥	٨٢,٥	٧٢,٥٪
حوادث جنسية مع رجال كبار	٤٢	٣٥	٣٣,٧	٤٥	٣٩,٣٪
العادة السرية أو المداعبات الجنسية أثناء الطفولة	٦٢	١٥	٤٧,٥	٤١,٢	٤٤,٣٪
تمنت أن تكون ولدًا	٦٥	٤٦,٥	٦٨,٥	٤٧,٥	٥٨,١٪

نوع مشاكل الطفولة	عصابيات متعلمة + غير متعلمة	طبيعيات متعلمة + غير متعلمة	متعلمات عصابية + طبيعية	غير متعلمة عصابية + طبيعية	النسبة الكلية
أُجريَ لها عملية الختان	٧٧	٩٠	٦٦,٢	٩٧,٥	٨١,٨٪
أزمات اقتصادية	٢٣	٢١,٦	١٢,٥	٣٢,٥	٢٢,٥٪

يتضح من الجدول رقم ١٠ ما يأتي:

(١) ارتفاع نسبة العادة السرية والمداعبات الجنسية في الطفولة بين العصابيات (٦٢ بالمائة) عنها بين الطبيعيات (١٥ بالمائة)، وارتفاعها بين المتعلمات (٤٧,٥ بالمائة) عنها بين غير المتعلمات (٤١,٢ بالمائة).

(٢) ارتفاع نسبة عملية الختان بين الطبيعيات (٩٠ بالمائة) عنها بين العصابيات (٧٧ بالمائة)، وارتفاعها بين غير المتعلمات (٩٧,٥ بالمائة) عنها بين المتعلمات (٦٦,٢ بالمائة).

(٣) ارتفاع نسبة من تمنت أن تكون ولدًا بين العصابيات (٦٥ بالمائة) عنها بين الطبيعيات (٤٦,٦ بالمائة)، وارتفاعها بين المتعلمات (٦٨,٥ بالمائة) عنها بين غير المتعلمات (٤٧,٥ بالمائة).

(٤) ارتفاع نسبة تفضيل الذكور على البنات في أسر العصابيات (٧٧ بالمائة) عنها في أسر الطبيعيات (٦٥ بالمائة)، وارتفاعها بين أسر غير المتعلمات (٨٢,٥ بالمائة) عنها بين أسر المتعلمات (٦٢,٥ بالمائة).

(٥) رغم ارتفاع نسبة تفضيل الذكور على البنات في أُسر غير المتعلمات (٢,٥ بالمائة) يُلاحَظ انخفاض نسبة من تمنَّت أن تكون ولدًا بينهن (٤٧,٥ بالمائة)، وكذلك أيضًا في حالة الطبيعيات (تفضيل الذكور على البنات في الأسر ٦٥ بالمائة)، ومن تمنت أن تكون ولدًا (٤٦,٥ بالمائة)، وهذه الظاهرة غير موجودة في حالة العصابيات، وكذلك في حالة المتعلمات؛ إذ تتقارب النسب بين تفضيل الذكور وبين التمني بأن تكون ولدًا.

(٦) ترتفع نسبة الحوادث الجنسية في الطفولة مع رجال كبار في حالة غير المتعلمات (٤٥ بالمائة)، وأيضًا في حالة العصابيات (٤٢ بالمائة) عنها في المتعلمات (٣٣,٧ بالمائة) أو الطبيعيات (٣٥ بالمائة).

جدول ١٤: مشاكل في المراهقة.

نوع مشاكل المراهقة	عصابيات متعلمات	عصابيات غير متعلمات	طبيعيات متعلمات	طبيعيات غير متعلمات	العدد الكلي	المجموع	النسبة المئوية
الانقطاع عن الدراسة بسبب الزواج	٧	١٣	٣	١٠	٣٣	١٦٠	٢٠,٦٪
مشاكل جنسية وعاطفية	١٩	٢٢	٥	٧	٥٢	١٦٠	٣٩,٣٪
مشاكل داخل الأسر بين الأب والأم والأخوة	٢٣	٢٨	٤	٩	٦٤	١٦٠	٤٠٪
تفضيل التعليم على الزواج	٤٨	٤٢	٢١	١٦	١٢٧	١٦٠	٧٩,٣٪

مشاكل المراهقة: يتضح من الجدول رقم ١٤ ارتفاع نسبة تفضيل التعليم على الزواج بصفة عامة بين المجموعات الأربع (٧٩,٣ بالمائة)، وتتساوى المشاكل الجنسية والعاطفية مع المشاكل داخل الأسرة تقريبًا: ٣٩,٣ بالمائة- ٤٠ بالمائة.

جدول ١٥

نوع مشاكل المراهقة	متعلمات طبيعيات	متعلمات عصابيات	المجموع	العدد الكلي	النسبة المئوية
الانقطاع عن الدراسة بسبب الزواج	٣	٧	١٠	٨٠	١٢,٥٪
مشاكل جنسية وعاطفية	٥	١٩	٢٤	٨٠	٢٠٪
مشاكل داخل الأسرة	٤ (١٣,٣٪)	٢٣ (٤٦٪)	٢٧	٨٠	٢٣,٧٪
تفضيل التعليم عن الزواج	٢١	٤٨	٦٩	٨٠	٨٦,٢٪

يتضح من الجدول رقم ١٥ ارتفاع نسبة تفضيل التعليم على الزواج بين المتعلمات (٨٦,٢ بالمائة)، وارتفاع نسبة المشاكل داخل الأسرة بين المتعلمات العصابيات (٤٦ بالمائة) عنها بين المتعلمات الطبيعيات (١٣,٣ بالمائة).

جدول ١٦

نوع مشاكل المراهقة	متعلمات عصابيات	غير متعلمات عصابيات	المجموع	العدد الكلي	النسبة المئوية
الانقطاع عن الدراسة بسبب الزواج	٧	١٣	٢٠	١٠٠	٪٢٠
مشاكل جنسية وعاطفية	١٩	٢٢	٤١	١٠٠	٪٤١
مشاكل داخل الأسرة	٢٣	٢٨	٥١	١٠٠	٪٥١
تفضيل التعليم على الزواج	٤٨	٤٢	٩٠	١٠٠	٪٩٠

في جدول ١٦ يُلاحَظ ارتفاع نسبة تفضيل التعليم على الزواج بين العصابيات (٩٠ بالمائة) وارتفاع نسبة المشاكل داخل الأسرة (٥١ بالمائة) عن المشاكل الجنسية والعاطفية (٤١ بالمائة).

جدول ١٧

نوع مشاكل المراهقة	متعلمات عصابيات	متعلمات طبيعيات	المجموع	العدد الكلي	النسبة المئوية
الانقطاع عن الدراسة بسبب الزواج	٣	١٠	١٣	٦٠	٪٢١,٦
مشاكل جنسية وعاطفية	٥	٧	١٢	٦٠	٪٢٠
مشاكل داخل الأسرة	٤	٩	١٣	٦٠	٪٢١,٦
تفضيل التعليم على الزواج	٢١	١٦	٣٧	٦٠	٪٦١,٦

يُلاحَظ في الجدول رقم ١٧ انخفاض نسبة تفضيل التعليم على الزواج بين الطبيعيات (٦١,٦ بالمائة) وكذلك نسبة انخفاض المشاكل داخل الأسرة والمشاكل الجنسية والعاطفية.

جدول ١٨

نوع مشاكل المراهقة	متعلمات عصابيات	متعلمات طبيعيات	المجموع	العدد الكلي	النسبة المئوية
الانقطاع عن الدراسة بسبب الزواج	١٢	١٠	١٣	٨٠	١٦,٢٪
مشاكل جنسية وعاطفية	٢٢	٧	٢٩	٨٠	٢٦,٢٪
مشاكل داخل الأسرة	٢٨	٩	٢٧	٨٠	٤٦,٢٪
تفضيل التعليم على الزواج	٤٢	١٦	٥٨	٨٠	٧١,٢٪

في جدول ١٨ يُلاحَظ ارتفاع في نسبة المشاكل داخل الأسرة بين غير المتعلمات (٤٦,٢ بالمائة)، وكذلك ارتفاع المشاكل الجنسية والعاطفية (٣٦,٢ بالمائة)، وارتفاع تفضيل التعليم على الزواج (٧١,٢ بالمائة).

جدول ١٩: مقارنة النسب المئوية.

نوع مشاكل المراهقة	عصابيات متعلمة + غير متعلمة	طبيعيات متعلمة + غير متعلمة	متعلمات عصابية + طبيعية	العدد الكلي	النسبة المئوية
الانقطاع عن الدراسة بسبب الزواج	٢٠	٢١,٦	١٢,٥	١٦,٢	٢٠,٦٪
مشاكل جنسية وعاطفية	٤١	٢٠	٣٠	٢٦,٢	٣٩,٣٪
مشاكل داخل الأسرة	٥١	٢١,٦	٢١,٦	٤٦,٢	٤٠٪
تفضيل التعليم على الزواج	٩٠	٦١,٦	٨٦,٢	٧١,٢	٧٩,٢٪

يتضح من الجدول رقم ١٩ ما يأتي:

(١) أعلى نسبة تفضيل التعليم على الزواج بين العصابيات، وأقل نسبة بين الطبيعيات، وهذا يشير إلى أن العصابيات أكثر طموحًا في التعليم والعمل الفكري من الطبيعيات.

(٢) ارتفاع نسبة المشاكل داخل الأسرة عن المشاكل الجنسية والعاطفية في جميع الحالات.

(٣) الانقطاع عن الدراسة بسبب الزواج يتساوى تقريبًا بين العصابيات والطبيعيات، ويزيد في غير المتعلمات عن المتعلمات.

جدول ٢٠

نوع مشاكل العمل أو الدراسة	عصابيات متعلمات	عصابيات غير متعلمات	طبيعيات متعلمات	طبيعيات غير متعلمات	المجموع	العدد الكلي	النسبة المئوية
مشاكل بسبب كونها امرأة (مع الرئيس أو الزملاء)	٢٤	١٩	٨	٣	٥٤	١١٤	٤٨,٢٪
العمل لا يُرضي طموحها (أول الدراسة)	١٧	٢١	٦	٤	٥٨	١١٤	٥٠,٨٪
مشاكل بسبب دورها الآخر في البيت والأسرة	٢٩	٢٣	٥	٦	٧٣	١١٤	٦٤٪
مشاكل اقتصادية	٨	٣٤	١١	١٨	٧١	١١٤	٦٢,٢٪

مشاكل العمل والدراسة: يُلاحَظ من الجدول رقم ٢٠ ارتفاع نسبة المشاكل بسبب الدور الآخر في البيت والأسرة بصفة عامة (٦٤ بالمائة)، وكذلك ارتفاع نسبة المشاكل الاقتصادية (٦٢,٢ بالمائة)، ويتضح أن ٢٩ امرأة من مجموعة العصابيات المتعلمات

(وعددها ٥٠ امرأة) لديهن مشاكل بسبب الدورين داخل البيت وخارجه، أي بنسبة ٥٨ بالمائة، وهذه النسبة مرتفعة إذا قورنت بمجموعة الطبيعيات المتعلمات (وعددها ٣٠ امرأة)، حيث لا تشعر بهذه المشكلة منهن إلا ٥ نساء فقط، أي بنسبة ١٦,٦ بالمائة.

جدول ٢١

نوع مشاكل العمل أو الدراسة	متعلمات عصابيات	غير متعلمات عصابيات	المجموع	العدد الكلي	النسبة المئوية
مشاكل بسبب كونها امرأة	٢٤	١٩	٤٣	٧١	٪٦٠,٥
العمل لا يُرضي طموحها (أو الدراسة)	١٧	١٧	٣٤	٧١	٪٦٧,٦
مشاكل بسبب دورها الآخر في البيت	٢٩	٣٣	٦٢	٧١	٪٨٧,٣
مشاكل اقتصادية	٨	٣٤	٤٢	٧١	٪٥٩,٦

يُلاحَظ في الجدول رقم ٢١ ارتفاع نسبة المشاكل بسبب الدور الآخر في البيت بين العصابيات، وكذلك ارتفاع نسبة عدم إرضاء العمل لطموحها، وقد انخفضت نسبة المشاكل الاقتصادية.

جدول ٢٢

نوع مشاكل العمل أو الدراسة	متعلمات عصابيات	غير متعلمات عصابيات	المجموع	العدد الكلي	النسبة المئوية
مشاكل بسبب كونها امرأة	٢٤	٨	٣٢	٥٧	٪٥٦,١
العمل لا يُرضي طموحها (أو الدراسة)	١٧	٦	٢٣	٥٧	٪٤٠,٣
مشاكل بسبب دورها الآخر في البيت	١٩	٥	٢٤	٥٧	٪٥٩,٦
مشاكل اقتصادية	٨	١١	١٩	٥٧	٪٢٢,٣

يُلاحَظ في الجدول رقم ٢٢ انخفاض نسبة المشاكل الاقتصادية بين المتعلمات، وكذلك انخفاض نسبة عدم إرضاء العمل لطموح المرأة.

ويتضح من هذين الجدولين أن العصابيات المتعلمات أكثر مواجهةً للمشاكل (في العمل أو الدراسة) بسبب كونهن نساءً (٤٨ بالمائة) من العصبيات غير المتعلمات (٣٨ بالمائة)، وأن هؤلاء أكثر مواجهةً لمثل هذه المشاكل من الطبيعيات المتعلمات (٢٦,٢ بالمائة)، وأن أقل المجموعات مواجهةً لهذه المشاكل حسب الجدول رقم ١٧ هن الطبيعيات غير المتعلمات (١٠ بالمائة) فقط.

جدول ٢٣

نوع مشاكل العمل أو الدراسة	غير متعلمات عصابيات	متعلمات عصابيات	المجموع	العدد الكلي	النسبة المئوية
مشاكل بسبب كونها امرأة	١٩	٣	٢٢	٥٧	٣٨,٥٪
العمل لا يُرضي طموحها (أو الدراسة)	٣١	٤	٣٥	٥٧	٦١,٤٪
مشاكل بسبب دورها الآخر في البيت	٣٣	٦	٣٩	٥٧	٦٨,٤٪
مشاكل اقتصادية	٣٤	١٨	٥٢	٥٧	٩١,٢٪

في جدول ٢٣ يُلاحَظ ارتفاع نسبة المشاكل الاقتصادية بين النساء غير المتعلمات، وكذلك ارتفاع نسبة المشاكل بسبب الدور الآخر في البيت، وارتفاع نسبة عدم إرضاء العمل لطموح المرأة، وانخفاض نسبة المشاكل بسبب كونها امرأة.

جدول ٢٤

نوع مشاكل العمل أو الدراسة	طبيعيات متعلمات	طبيعيات غير متعلمات	المجموع	العدد الكلي	النسبة المئوية
مشاكل بسبب كونها امرأة	٨	٣	١١	٤٣	٢٥,٥٪
العمل لا يُرضي طموحها (أو الدراسة)	٦	٤	١٠	٤٣	٢٢,١٪

نوع مشاكل العمل أو الدراسة	طبيعيات متعلمات	طبيعيات غير متعلمات	المجموع	العدد الكلي	النسبة المئوية
مشاكل بسبب دورها الآخر في البيت	٥	٦	١١	٤٣	٢٥,٥٪
مشاكل اقتصادية	١١	١٨	٢٩	٤٣	٦٧,٤٪

وفي جدول ٢٤ يُلاحَظ ارتفاع نسبة المشاكل الاقتصادية للعمل بين الطبيعيات، وانخفاض المشاكل بسبب الدور الآخر في البيت أو بسبب كونها امرأة، وكذلك انخفاض نسبة عدم إرضاء العمل لطموح المرأة.

جدول ٢٥

نوع مشاكل العمل أو الدراسة	عصابيات متعلمة + غير	طبيعيات متعلمة + غير	متعلمات عصابية + طبيعية	غير متعلمة عصابية + طبيعية	النسبة المئوية
مشاكل بسبب كونها امرأة	٦٠,٥	٢٥,٥	٥٦,١	٣٨,٥	٤٨,٢٪
العمل لا يُرضي طموحها (أو الدراسة)	٦٧,٥	٢٣,١	٤٠,٣	٦١,٤	٥٠,٨٪
مشاكل بسبب دورها الآخر في البيت	٨٧,٣	٢٥,٥	٥٩,٦	٦٨,٤	٦٤٪
مشاكل اقتصادية	٥٩,١	٦٧,٤	٣٣,٣	٩١,٢	٦٢,٢٪

في جدول ٢٥ يُلاحَظ أن أعلى نسبة للمشاكل الاقتصادية بين غير المتعلمات، وأن أعلى نسبة للمشاكل بسبب الدور الآخر في البيت بين العصابيات، وأن العمل لا يُرضي طموح العصابيات بنسبة أكبر من الطبيعيات، ويُلاحَظ أيضًا ارتفاع نسبة المشاكل بسبب الدور الآخر في البيت بين غير المتعلمات، وكذلك ارتفاع نسبة عدم إرضاء العمل لطموح غير المتعلمات.

جدول ٢٦: مشاكل الزواج.

مشاكل الزواج	عصابيات متعلمات	عصابيات غير متعلمات	طبيعيات متعلمات	طبيعيات غير متعلمات	المجموع	العدد الكلي	النسبة المئوية
تزوجت بغير حب	٢٣	٣١	١٥	٢١	٩٠	١١٩	٪٧٥,٦
سيطرة الزوج	٢٨	٣٢	١٧	٢٢	٩٩	١١٩	٪٨٢,٣
عدم مساعدة الزوج في أعمال البيت والأطفال	٣١	٣٥	١٧	٢٢	١٠٥	١١٩	٪٩٠,٧
عدم الإشباع الجنسي	٢١	٢٩	١٤	١٧	٨١	١١٩	٪٧٦,٣
علاقات جنسية خارج الزواج	١٠	٦	٣	١	٢٠	١١٩	٪١٦,٧
لا تتزوج زوجها مرة أخرى لو عادت السنين إلى الوراء	٢٩	٢٤	١٨	٢٠	٩١	١١٩	٪٨٤,٨

مشاكل الزواج: يُلاحَظ من الجدول رقم ٢٦ ارتفاع نسبة عدم مساعدة الزوج في أعمال البيت والأطفال بصفة عامة (٩٠,٧ بالمائة)، وكذلك ارتفاع نسبة عدم التوافق الزوجي وسيطرة الزوج، ويُلاحَظ أيضًا انخفاض نسبة العلاقات الجنسية خارج الزواج رغم ارتفاع نسبة عدم الإشباع الجنسي.

جدول ٢٧

مشاكل الزواج	عصابيات متعلمات	عصابيات غير متعلمات	المجموع	العدد الكلي	النسبة المئوية
تزوجت بغير حب	٢٣	٣١	٥٤	٧٥	٪٧٠,٦
سيطرة الزوج	٢٨	٣٢	٦٠	٧٥	٪٧٨,٦

مشاكل الزواج	عصابيات متعلمات	عصابيات غير متعلمات	المجموع	العدد الكلي	النسبة المئوية
عدم مساعدة الزوج	٣١	٣٥	٦٦	٧٥	٨٨٪
عدم الإشباع الجنسي	٣١	٢٩	٦٠	٧٥	٧٨,٦٪
علاقات خارج الزواج	١٠	٦	١٦	٧٥	٢١,٣٪
لا تتزوج زوجها مرة أخرى	٢٩	٣٤	٦٣	٧٥	٨٤٪

ويُلاحَظ في الجدول رقم ٢٧ ارتفاع نسبة عدم مساعدة الزوج وعدم التوافق الزوجي بين العصابيات.

جدول ٢٨

مشاكل الزواج	عصابيات متعلمات	عصابيات غير متعلمات	المجموع	العدد الكلي	النسبة المئوية
تزوجت بغير حب	٢٣	١٥	٣٨	٥٨	٦٥,٥٪
سيطرة الزوج	٢٨	١٧	٤٥	٥٨	٧٧,٥٪
عدم مساعدة الزوج	٣١	١٧	٤٨	٥٨	٨٢,٥٪
عدم الإشباع الجنسي	٣١	١٤	٤٥	٥٨	٧٧,٥٪
علاقات خارج الزواج	١٠	٣	١٣	٥٨	٢٢,٤٪
لا تتزوج زوجها مرة أخرى	٢٩	١٨	٤٧	٥٨	٨١٪

يُلاحَظ من الجدول رقم ٢٨ ارتفاع نسبة عدم التوافق الزوجي أيضًا بين المتعلمات، وعدم مساعدة الزوج لزوجته في أعمال البيت والأطفال.

جدول ٢٩

مشاكل الزواج	طبيعيات متعلمات	طبيعيات غير متعلمات	المجموع	العدد الكلي	النسبة المئوية
تزوجت بغير حب	١٥	٢١	٣٦	٤٤	٨١,٨٪
سيطرة الزوج	١٧	٢٢	٣٩	٤٤	٨٨,٦٪
عدم مساعدة الزوج	١٧	٢٢	٣٩	٤٤	٨٨,٦٪
عدم الإشباع الجنسي	١٤	١٧	٣١	٤٤	٧٠,٤٪
علاقات خارج الزواج	٣	١	٤	٤٤	٩٪
لا تتزوج زوجها مرة أخرى	١٨	٢٠	٣٨	٤٤	٨٦,٣٪

وفي الجدول ٢٩ يُلاحَظ ارتفاع نسبة من تزوجن بغير حب بين الطبيعيات، وانخفاض نسبة العلاقات خارج الزواج (٩ بالمائة).

جدول ٣٠

مشاكل الزواج	غير متعلمات عصابيات	غير متعلمات طبيعيات	المجموع	العدد الكلي	النسبة المئوية
تزوجت بغير حب	٣١	٢١	٥٢	٦١	٨٥,٢٪
سيطرة الزوج	٣٢	٢٢	٥٤	٦١	٨٨,٥٪
عدم مساعدة الزوج في أعمال البيت والأطفال	٣٥	٢٢	٥٧	٦١	٩٣,٤٪
عدم الإشباع الجنسي	٢٩	١٧	٤٦	٦١	٧٥,٥٪
علاقات جنسية خارج الزواج	٦	١	٧	٦١	١١,٤٪
لا تتزوج زوجها مرة أخرى لو عادت السنين إلى الوراء	٣٤	٢٠	٥٤	٦١	٨٨,٥٪

في جدول ٣٠ يُلاحَظ ارتفاع نسبة مساعدة الزوج (٩٣٫٤ بالمائة) بين غير المتعلمات، وارتفاع نسبة من تزوجن بغير حب (٨٥٫٢ بالمائة).

جدول ٣١: مقارنة النسب المئوية.

مشاكل الزواج	عصابيات متعلمة + غير	طبيعيات متعلمة + غير	متعلمات عصابية + طبيعية	غير متعلمات عصابية + طبيعية	النسب المئوية
تزوجت بغير حب	٧٠٫٦	٨١٫٨	٦٥٫٥	٨٥٫٢	٧٥٫٦٪
سيطرة الزوج	٧٨٫٦	٨٨٫٦	٧٧٫٥	٨٨٫٥	٨٢٫٣٪
عدم مساعدة الزوج في أعمال البيت والأطفال	٨٨	٨٨٫٦	٨٢٫٥	٩٣٫٤	٩٠٫٧٪
عدم الإشباع الجنسي	٧٨٫٦	٧٠٫٤	٧٧٫٥	٧٥٫٥	٧٦٫٣٪
علاقات جنسية خارج الزواج	٢١٫٣	٩	٢٢٫٤	١١٫٤	١٦٫٧٪
لا تتزوج زوجها مرة أخرى لو عادت السنين إلى الوراء	٨٤	٨٦٫٣	٨١	٨٨٫٥	٨٤٫٨٪

في جدول ٣١ يُلاحَظ أن هناك تقارُبًا في النسب بين العصابيات وبين المتعلمات بصفة عامة، وتقاربًا بين الطبيعيات وبين غير المتعلمات، إن الطبيعيات وغير المتعلمات يتزوجن بغير حب بنسبة أكبر من العصابيات والمتعلمات، وتزيد أيضًا نسبة سيطرة الزوج وعدم مساعدته في أعمال البيت والأطفال في حالة الطبيعيات وغير المتعلمات، وتقل بينهن العلاقات الجنسية خارج الزواج عن العصابيات والمتعلمات، ويكاد يتساوى الجميع في عدم الإشباع الجنسي وفي عدم الزواج بأزواجهن مرة أخرى لو عادت السنين إلى الوراء.

وإني أعتقد هنا أن النسبة الدالة على العلاقات خارج الزواج أقل من الحقيقة بعض الشيء؛ لأني أحسست أن بعض النساء كن يتحرجن من الاعتراف بمثل هذه العلاقات رغم أنني كنت أطمئنهن أنني لا أحكم عليهن أخلاقيًّا على الإطلاق، وقد استطعت أن أحصل على بعض الاعترافات عن طريق الأسئلة غير المباشرة، وكذلك الحال في موضوع الإشباع الجنسي،

فقد كانت بعض النساء وبالذات غير المتعلمات يخجلن أو يجهلن معنى الإشباع الكامل، واقتضى الأمر مني تنويع الأسئلة حتى أحصل على المعلومات الصحيحة بقدر الإمكان.

جدول ٣٢

مقارنة حياتها بحياة أمها	عصابيات متعلمات	عصابيات غير متعلمات	طبيعيات متعلمات	طبيعيات غير متعلمات
حياتها أفضل من حياة أمها	٤٣ (٨٦٪)	٣٨ (٧٦٪)	٢١ (٧٠٪)	١٤ (٤٦,٦٪)
حياة أمها أفضل من حياتها	٧ (١٤٪)	١٢ (٢٤٪)	٩ (٣٠٪)	١٦ (٥٣,٤٪)
المجموع	٥٠	٥٠	٣٠	٣٠

يتضح من الجدول رقم ٣٢ أن العصابيات يُفضِّلن حياتهن على حياة أمهاتهن أكثر من الطبيعيات، وأن المتعلمات يُفضِّلن حياتهن على حياة أمهاتهن أكثر من غير المتعلمات.

جدول ٣٣

استخدام وسائل منع الحمل	عصابيات متعلمات	عصابيات غير متعلمات	طبيعيات متعلمات	طبيعيات غير متعلمات
تستخدم وسائل منع الحمل	٢٩	١٧	١٥	١٠
لا تستخدم وسائل منع الحمل	٨	٢١	٦	١٣
المجموع	٣٧	٣٨	٢١	٢٣

وفي جدول ٣٣ يُلاحَظ أن العصابيات المتعلمات أكثر استخدامًا لوسائل منع الحمل من الطبيعيات، وأن الزوجات غير المتعلمات أقل استخدامًا لوسائل منع الحمل من المتعلمات.

جدول ٣٤

ممارسة الجنس قبل الزواج	عصابيات متعلمات	عصابيات غير متعلمات	طبيعيات متعلمات	طبيعيات غير متعلمات
مارست الجنس قبل الزواج	٣٨ (٧٦٪)	٢٩ (٥٨٪)	٨ (٢٦,٦٪)	٣ (١٠٪)
لم تمارس الجنس قبل الزواج	١٢	٢١	٢٢	٢٧
المجموع	٥٠	٥٠	٣٠	٣٠

يتضح من الجدول رقم ٣٤ ارتفاع نسبة ممارسة الجنس قبل الزواج بين العصابيات عن الطبيعيات، وبين المتعلمات عن غير المتعلمات.

وإني أعتقد أن هذه الأرقام أقل من الحقيقة أيضًا، بسبب تحرُّج المرأة عامةً من الاعتراف بمثل هذه الممارسات قبل الزواج لتعلُّقها بالشرف والأخلاق، ولكني كنت أشجع الواحدة منهن على فتح قلبها لي والاعتراف بمثل هذه الممارسات، ولم يكن ذلك سهلًا في جميع الحالات، ولكني كنت أمهد لمثل هذه الاعترافات بحديث طويل عن فضيلة الصدق، وعن أنني أحترم المرأة طالما أنها صادقة مدركة لمسئوليتها، ويتضمن الجدول أن (٧٦ بالمائة) من العصابيات المتعلمات مارسن الجنس قبل الزواج، وهي أعلى نسبة في المجموعات الأربع، ويتضح هنا أيضًا أن العصابية غير المتعلمة أكثر قربًا في صفاتها للعصابية المتعلمة من الطبيعية غير المتعلمة. إن المرأة العصابية غير المتعلمة تمارس الجنس قبل الزواج هنا بنسبة ٥٨ بالمائة، وهي أعلى بكثير من زميلتها غير المتعلمة الطبيعية، حيث تكون النسبة ٢٦,٢ بالمائة فقط.

(٦) الأسباب الرئيسية للعصاب

أمكن تجميع الأسباب الرئيسية للإصابة بالعصاب بين المجموعتين المتعلمة وغير المتعلمة كالآتي:

(١) سيطرة الزوج أو الأب أو الأخ أو رجل آخر من الأسرة.

(٢) الفشل في تحقيق الذات أو الطموح في الحياة.

(٣) الفشل في الحياة العاطفية أو الزوجية أو دور الزوجة والأم في البيت.
(٤) عدم الإشباع الجنسي.

أسباب أخرى (مثل سيطرة الأم أو الحماة – أزمة اقتصادية – اضطهاد في العمل).

جدول ٣٥

السبب الرئيسي للعصاب	عصابيات متعلمات	عصابيات غير متعلمات	المجموع
سيطرة الرجل في الأسرة	١١ (٢٢٪)	١٨ (٣٦٪)	٢٩
الفشل في تحقيق الذات أو الطموح	١٥ (٣٠٪)	١٣ (٢٦٪)	٢٨
الفشل في الحياة العاطفية أو الزوجية أو دور الزوجة والأم	١٠ (٢٠٪)	١٢ (١٤٪)	٢٢
عدم الإشباع الجنسي	٩ (١٨٪)	٤ (٨٪)	١٣
أسباب أخرى	٥ (١٠٪)	٣ (٦٪)	٨
المجموع	٥٠ (١٠٠٪)	٥٠ (١٠٠٪)	١٠٠

يُلاحَظ من الجدول رقم ٣٥ أن أعلى نسبة من العصابيات المتعلمات يمرضن بسبب الفشل في تحقيق الذات أو الطموح (٣٠ بالمائة)، وأن أعلى نسبة بين العصابيات غير المتعلمات يمرضن بسبب سيطرة الرجل في الأسرة (٣٦ بالمائة)، ويُلاحَظ أن المرأة غير المتعلمة أكثر حساسية لفشلها في الحياة الزوجية ودور الزوجة والأم من المرأة المتعلمة، والمرأة المتعلمة أكثر حساسية لعدم الإشباع الجنسي من المرأة غير المتعلمة، ويتضح بالنسبة للمجموعتين معًا أن السبب الرئيسي الأوَّل لإصابة المرأة بالعصاب هو سيطرة رجل في الأسرة، يليه الفشل في تحقيق الذات أو الطموح، يليه الفشل في الحياة العاطفية أو الزوجية، ثُمَّ يأتي عدم الإشباع الجنسي.

جدول ٣٦: أنواع العصاب.

نوع العصاب	عصابيات متعلمات	عصابيات غير متعلمات	المجموع
قلق	٢٧ (٥٤٪)	٩ (١٨٪)	٣٦
اكتئاب	١٣ (٢٦٪)	١١ (٢٢٪)	٢٤
خوف	٥ (١٠٪)	١٤ (٢٨٪)	١٩
هستيريا	٢ (٤٪)	١٢ (٢٤٪)	١٤
أخرى	٣ (٦٪)	٤ (٨٪)	٧
المجموع	٥٠ (١٠٠٪)	٥٠ (١٠٠٪)	١٠٠

يُلاحَظ في الجدول رقم ٣٦ أن القلق أكثر أنواع العصاب انتشارًا بين المتعلمات (٥٤ بالمائة)، يليه الاكتئاب (٢٦ بالمائة)، أمَّا الخوف والهستيريا فلا يمثلان إلا نسبة ضئيلة (١٠ بالمائة و٤ بالمائة على التوالي)، وهذا على عكس مجموعة غير المتعلمات، إذ يُلاحَظ أن الخوف والهستيريا يمثلان أعلى النسب (٢٨ بالمائة و٢٤ على التوالي)، يليها الاكتئاب (٢٢ بالمائة)، أمَّا القلق فلا يمثل إلا (١٨ بالمائة) من الحالات.

ولكن بالنسبة للمجموعتين معًا فإن القلق عامةً يمثل أكثر الحالات بين النساء (٢٩ بالمائة)، يليه الاكتئاب (٢٢ بالمائة)، ثُمَّ الخوف (١٨ بالمائة)، وفي النهاية الهستيريا (١٣ بالمائة).

الجزء الثاني

مناقشة

مناقشة نتائج البحث

إن ارتفاع نسبة الإصابة بين الفتيات والنساء يدل على أن النساء في مجتمعنا المصري يتعرضن لصراعات وتناقضات متعددة، وعلى الأخص النساء المتعلمات اللاتي خرجن للتعليم والعمل، وأصبح لهن وعيٌ جديد ودورٌ جديد، بالإضافة إلى الدور التقليدي القديم.

وبالرغم من أن المجتمع المصري كأي مجتمع آخر تغزوه الأفكار الجديدة عن تعليم المرأة وعملها في المجتمع وحريتها، إلا أنه لا يزال يخضع لكثير من التقاليد القديمة مثل وضع المرأة الأدنى في الأسرة، وفي هذه الفترات الانتقالية، التي يجمع فيها المجتمع بين الجديد والقديم، يتعرض الناس لصراعاتٍ نفسية، وخاصةً النساء.

حيث إن موقف المجتمع من المرأة أشدُّ تعنُّتًا من موقفه من الرجل، وحيث إن دور الرجل لم يتغير، والقيم الاجتماعية والأخلاقية والاقتصادية في المجتمع ما زالت تميل إلى جانب الرجل.

وتزداد حدة الصراعات في حياة المرأة المتعلمة الواعية بحقوقها الجديدة أكثر من المرأة غير المتعلمة غير الواعية بهذه الحقوق، وتزداد هذه الصراعات أيضًا في حياة المرأة المتعلمة العاملة؛ لأن المجتمع لم يُهيَّأ بعدُ (اجتماعيًّا وتربويًّا ونفسيًّا) لدور المرأة المتعلمة العاملة.

ولا يزال المجتمع بصفة عامة ينظر إلى دور المرأة في البيت (كزوجة وأم) على أنه دورها الأساسي في الحياة، أو دورها الوحيد المسموح به، أمَّا عملها خارج البيت فليس إلا من أجل تخفيف الأعباء الاقتصادية عن كاهل رب الأسرة في الحياة، وهو خدمة الزوج والأطفال في البيت.

والمرأة المصرية العاملة خارج البيت عليها أن تؤدي واجباتها داخل البيت أيضًا دون تقصير أو إهمال، وإلا تعرضت للَّوم أو العقاب (قد يصل الأمر إلى الطلاق)، وبالرغم

من أن المرأة العاملة تشارك الرجل مسئولية الإنفاق على الأسرة، إلا أن الرجل المصري لا يشاركها مسئولية الأعمال داخل البيت، ويعتبر أن مثل هذه الأعمال المنزلية لا تليق بكرامته كرجل.

والمرأة العاملة هنا هي المرأة التي تعمل في المصانع أو المكاتب أو المهن المختلفة، أمَّا المرأة العاملة في الحقل (الفلاحة المصرية) فهي تخرج للعمل في الحقل منذ آلاف السنين، وهي تجمع بين عملها داخل البيت وخارجه، وهي تعمل خارج البيت بغير أجر تحت سيطرة زوجها ولحسابه، ولا تتقاضى عن عملها أجرًا شهريًّا مستقلًّا عن الزواج، والأغلبية الساحقة من الفلاحات المصريات أميات يجهلن القراءة والكتابة.

ويلعب التعليم والعمل بأجر في حياة المرأة دورًا كبيرًا في مساعدتها على أن ترفض وضعها الأدنى في الأسرة، وأن ترفض التقاليد العتيقة، التي تنظر إليها كوعاء لإنجاب الأطفال أو طاعة الزوج، وعلى أن تصبح إنسانة لها طموح فكري ونفسي في الحياة يزيد عن غسل الصحون وإرضاء الزوج؛ ولهذا السبب تزيد المشاكل النفسية ومرض العصاب بين النساء المتعلمات عنها بين النساء غير المتعلمات.

وقد وجدنا من نتائج البحث أن ٦٣ بالمائة من النساء المتعلمات الطبيعيات تمنين في فترة من حياتهن أن يكنَّ ذكورًا، وهذه النسبة تكاد تكون ضعف مثيلاتها بين النساء غير المتعلمات، ومن هذا يتضح أن التعليم يلعب دورًا كبيرًا في إشعار الفتاة بالتفرقة القائمة بين الجنسين في معظم الأسر المصرية، ورفضها لهذه التفرقة، وبالتالي رغبتها في أن تكون ذكرًا لتتمتع بالامتيازات الاجتماعية والشخصية التي يتمتع بها الذكر.

ولهذا لا يمكن لنا أن نتَّهم الفتاة التي تتمنى أن تكون ذكرًا بالشذوذ أو المرض النفسي أو عقدة من العُقَد الفرويدية، ولكن علينا أن ندرس ظروفها الاجتماعية؛ لندرك الفروق والامتيازات التي يحظى بها الذكور دون الإناث، وقد سبق أن وجدنا ٧٢ بالمائة من العصابيات المتعلمات تمنَّيْن أن يكُنَّ ذكورًا، وهذا يدل على أن التفرقة بين الجنسين من العوامل التي تؤثر في نفسية الفتاة، وتدفعها إلى الرفض والتمرُّد أو إلى العصاب أحيانًا.

وقد اعتبر فرويد وأتباعه الفتاة التي تتمنى أن تكون ذكرًا فتاة غير طبيعية، وأرجع رغبتها إلى أنها تنشد عضو الذكر الذي ينقصها، وقد أثبت علماء النفس من بعد فرويد خطأ هذه الأفكار، وأهمهم في هذا المجال هي الطبيبة النفسية كارين هورني التي عارضت فرويد في هذه الفكرة، وقالت إن البنت تتمنى أن تكون ذكرًا لتحصل على الامتيازات الاجتماعية التي يحصل عليها الذكر، وليس لأنها تنشد عضو الذكر.

وخلال حديثي مع المرأة أو الفتاة التي تجيب بأنها تمنت أن تكون ذكرًا في وقتٍ ما من حياتها كنتُ أسألها لماذا تمنت ذلك، وكانت الإجابة في معظم الحالات تؤكد أن الامتيازات الاجتماعية أو الاقتصادية أو الأخلاقية هي السبب الرئيسي.

وقد اتضح من نتائج البحث أن الحرمان العاطفي في الطفولة وحده ليس كافيًا لأن يسبب العصاب، ولكن لا بد من تعرض الفتاة أو المرأة لعوامل أخرى في مراهقتها أو شبابها لكي تُصاب بالعصاب، وهناك كثيرٌ من أطباء النفس مَن يعتقدون (بسبب تأثير فرويد) أن مشاكل الطفولة هي التي تسبب المرض؛ ولهذا ما إن تجلس المريضة أمام الطبيب منهم حتى يسرع بالسؤال عن الصدمات النفسية التي شعرت بها في طفولتها، ويظل يلحُّ بالأسئلة حول مرحلة الطفولة محاولًا للكشف عن أسباب المشكلة الحالية لهذه المرأة في ماضيها البعيد، وذلك بالبحث عن أي خيالات طفولية جنسية قد تقوده إلى عقدة ألكترا أو أوديب.

وقد ذكرت لي إحدى طالبات الجامعة المتزوجات التي كانت تتردد على أحد أطباء النفس للعلاج: «في كل مرة كان يسألني عن طفولتي، وما إذا كنت حسدتُ أخي لأنه يملك عضوًا لا أملكه! لم أكن أفهم أي معنًى لسؤاله، في حين أنني كنت أستطيع أن أقول له في نصف دقيقة أنني يمكن أن أُشفى تمامًا لو أن زوجي تركني أكمل تعليمي الجامعي ولم يضربني كل يوم بعد عودتي من الكلية.»

وقالت لي فتاة أخرى: «كان الطبيب يسألني أسئلة كثيرة بعيدة عن مشكلتي الحقيقية، في حين أن مشكلتي كانت أن أخي الأكبر يضربني بسببٍ وبغير سبب، ويهددني بحبسي في البيت إذا لم أسرق له النقود من أمي.»

وهناك كثيرٌ من الأطباء أيضًا ممن يعتقدون أن العصاب مرضٌ وراثي، أو أنه يرجع إلى ضعف مُعيَّن في الجهاز العصبي يُورَّث عن طريق الكروموسومات وعلاقات الدم، لكني بسؤالي عن وجود أي تاريخ لمرضٍ عصابي في أسرة الأب أو الأم أجابت ٩٦ امرأة من العصابيات بالنفي، وأجابت الأربع الباقيات بأن هناك قريبًا في الأسرة كان مريضًا بمرضٍ نفسي. وقالت لي إحدى هؤلاء الأربع: «سألني الطبيب كثيرًا عن جدتي التي قلتُ له إنها كانت تشكو من مرض عصبي، وقلت للطبيب إن مشكلتي الحالية لها علاقة بالماضي أكثر مما لها علاقة بالحاضر، ولم أكن أقتنع بمنطق الطبيب؛ لأنه كان يشبه منطق أمي التي كانت كلما شكوتُ لها من العذاب الذي أعيشه مع زوجي قالت لي في هدوء: «اصبري يا ابنتي، فسوف يعوِّض الله صبرك خيرًا في الآخرة»، كان منطق أمي أن

العلاج الوحيد لحالتي لن يكون إلا في الآخرة بعد أن أموت، أمَّا الطبيب فكان يرى أن السبب الوحيد لحالتي قد حدث قبل أن أُولَد، وكلاهما لم يكن يهتمُّ بالمشكلة الحقيقية في حياتي الحاضرة، وهي زوجي.»

وقد استمتعتُ كثيرًا بالحديث إلى مثل هؤلاء النساء العصابيات الذكيات؛ فقد كان لبعضهن قدرة نادرة على السخرية الذكية الواعية، وكانت الواحدة رغم مشاكلها النفسية أكثر وعيًا بأسباب مشاكلها من الطبيب الذي يعالجها، لكنها لم تكن تجد ثمة شخصًا آخر تلجأ إليه إلا الطبيب النفسي. وقد اقتنعتُ بعد فحصي لحياة هؤلاء النساء والفتيات بأن سيطرة الزوج على زوجته أو ضرب الأب لابنته يسبب العصاب للمرأة أكثر مما تسببه الوراثة أو الكروموسومات.

وقد اتضح من نتائج البحث أن نسبة ممارسة العادة السرية أو المداعبات الجنسية في مرحلة الطفولة أكثر ارتفاعًا بين النساء العصابيات (٦٤ بالمائة) عنها بين النساء الطبيعيات (٢٠ بالمائة)، وقد وجدتُ أن سبب ذلك هو أن المرأة العصابية أكثر جرأةً وأقل كَبتًا من المرأة الطبيعية، وإذا عرفنا أن جميع الأطفال لهم حياتهم الجنسية الطبيعية من حيث المداعبات أو غيرها، فإننا ندرك أن إحجام المرأة الطبيعية عن مثل هذه المداعبات (سواء كان هذا الإحجام صحيحًا أو لمجرد الخوف من التصريح بمثل هذه الأفعال الجنسية في هذه السن المبكرة) ليس صفة طبيعية بقدر ما هو الخوف أو الكبت بسبب التربية القائمة على التحذير والتخويف، أو بسبب عملية الختان التي أُجريت على نسبة (٩٠ بالمائة) من النساء والفتيات الطبيعيات مقابل (٧٧ بالمائة) من النساء العصابيات؛ ففي هذه العملية تم استئصال البظر في جسم الفتاة قبل أن تبلغ سن الرشد (قبل مجيء الدورة الشهرية) وذلك بين خمس سنوات إلى تسع سنوات في معظم الحالات. وقد اتضح لي من مناقشة النساء والفتيات حول هذه العملية أن معظمهن لا يعرفن شيئًا عن مضارها، وبعض منهن يتصورن أنها عملية صحية من أجل النظافة والطهارة (تُسَمَّى العملية باللغة العامية: الطهارة)، وبالرغم من أن نسبة إجراء هذه العملية بين النساء المتعلمات أقل مما هي بين النساء غير المتعلمات (٦٦,١٢ بالمائة مقابل ٩٧,٥ بالمائة)، إلا أن معظم النساء المتعلمات اللاتي تحدثتُ معهن لم يفطنَّ إلى آثار العملية على صحتهن النفسية أو الجنسية، وقد كان الحوار يدور بيني وبين المرأة أو الفتاة على النحو التالي:

– هل أُجريَتْ لكِ عملية الختان (الطهارة)؟

– نعم.

– كم كان عمرك في ذلك الوقت؟
– كنت طفلة حوالي سبع أو ثماني سنوات.
– هل تذكرين كيف حدثت العملية؟
– بالطبع؛ لا يمكن أن أنسى.
– هل شعرتِ بخوف؟
– بالطبع، وقد اختفيت منهم فوق الدولاب (أو في حالات أخرى تحت السرير أو عند الجيران ...) لكنهم أمسكوني وأنا أرتعد من الخوف.
– هل شعرت بألم؟
– بالطبع، كان الألم مثل النار، وصرختُ، وكانت أمي تمسك رأسي كي لا أحركه، وخالتي تمسك ذراعي اليمنى، وجدتي تمسك ذراعي اليسرى، وامرأتان غريبتان لم أرهما من قبل كل واحدة منهما تمسك ساقًا من ساقَيَّ وتشدُّها بكل قوتها بعيدًا عن الساق الأخرى، أمَّا الداية فقد جلست بينهما ومعها الموس الذي قطعتْ به البظر، ومن شدة الألم والذعر فقدتُ الوعي بعد لسعة الألم الشديدة مثل النار.
– ماذا حدث بعد العملية؟
– شعرتُ بآلام شديدة في جسدي، ظللتُ في السرير أيَّامًا لا أستطيع السير، واحتبس البول فترة من شدة الألم أثناء التبول، وظل الجرح ينزف، وأمي تضع عليه شاشًا وقطنًا حتى الْتأم الجرح.
– ماذا كان شعورك حين علمتِ أنك فقدت عضوًا من أعضاء جسمك؟
– لم أكن أعرف شيئًا عن هذه العملية سوى أنني سمعتُ من أمي أنها عملية بسيطة جِدًّا، وتُجرى لكل البنات من أجل الطهارة والنظافة وحُسن السمعة، وأن البنت التي لا تُطهَّر بهذه العملية تصبح عرضة لألسنة الناس، وتسوء أخلاقها، وتجري وراء الرجال، ولا يقبل على الزواج منها أي أحد، وسمعت من جَدَّتي أن العملية ليست إلا إزالة قطعة صغيرة جِدًّا من اللحم بين فخذيَّ، وأن بقاء هذه القطعة الصغيرة في جسدي يجعله قذرًا ومُدنَّسًا وقبيح المنظر، يُنفِّر الرجل الذي سيتزوجني.
– هل صدَّقتِ هذا الكلام؟
– بالطبع صدَّقتُه، وفرحتُ بعد شفائي من العملية، وأحسستُ أنني تخلصتُ من شيء كان لا بد أن أتخلَّص منه، وأنني أصبحتُ نظيفة وطاهرة.

كانت هذه إجابة معظم الحالات، متعلماتٍ وغيرَ متعلمات، وكانت إحدى الحالات طالبة بكلية طب عين شمس بالسنة النهائية، وكنتُ أتوقع أنها ستقول لي كلامًا مختلفًا،

لكن إجابتها كانت مُشابهة للإجابة السابقة. ودار بيني وبينها حوار أذكره على النحو التالي:

– ولكنك ستصبحين طبيبة بعد عدة أسابيع، فكيف يمكن أن تصدِّقي أن قَطْع البظر من جسد الفتاة أمر صحي، أو على الأقل غير ضار؟

– هذا صحيح، فإن علوم الطب ليس من بينها علم الجنس حتى اليوم، وأعضاء المرأة الجنسية هي الأعضاء التناسلية فقط (الرحم والمهبل والمبيضان)، أمَّا البظر فهو عضو يُهملُه الطب كما يُهمله المجتمع.

– أذكر أن أحد الطلبة سأل الأستاذ مرة عن البظر، فإذا بوجه الأستاذ يحمرُّ ويردُّ عليه بغلظة قائلًا إن أحدًا لن يسأله في الامتحان عن هذا، وليس لهذا العضو أهمية تُذكَر.

وقد حاولت أن أعرف أثر هذه العملية على النساء والفتيات على حياتهن النفسية أو الجنسية، وقد أجابتني معظم الطبيعيات — اللاتي كُنَّ أكثر شعورًا بالخجل والحرج تجاه مثل هذه الأسئلة من العصابيات — بأن العملية لم تؤثر عليهن في شيء، ولم أكن أكتفي بهذه الإجابة، وكنت أسأل كل واحدة عن حياتها الجنسية قبل عملية الختان وبعدها، وكان الحوار بيني وبين المرأة يدور على النحو:

– هل شعرتِ بأي تغيير في مشاعرك أو رغباتك الجنسية بعد عملية الختان؟

– كنتُ طفلة صغيرة ولم أكن أشعر بشيء.

– ألم تكن لك رغبة جنسية وأنت طفلة؟

– لا، أبدًا، وهل الأطفال لهم رغبات جنسية؟

– الأطفال يشعرون بلذة حين يلمسون أعضاءهم، وتحدث بينهم في سن مبكرة مداعبات جنسية، ويلعبون عريس وعروسة تحت السرير معًا، ألم تلعبي عريس وعروسة مع أصدقائك الأطفال؟

وهنا كان يحمر وجه المرأة أو الفتاة، وقد تحرك عينيها بعيدًا عن عينيَّ حتى لا ألحظ اضطرابها، وبعد مزيد من الحديث والفهم والطمأنينة تبدأ الواحدة منهن تحكي عن ذكرياتها وهي طفلة، وأنها شعرت بلذة جنسية حين كان يداعبها جنسيًّا رجلٌ من أفراد الأسرة، أو الخادم، أو البواب، أو المدرس الخصوصي، أو ابن الجيران، وقالت لي طالبة جامعية إن أخاها الأكبر كان يداعبها، وكانت تشعر بلذة، وأنها فقدت هذه اللذة بعد عملية الختان، وذكرت لي امرأةٌ متزوجةٌ أنها لا تشعر بأي لذة جنسية مع زوجها، وأن آخر عهدها باللذة كان منذ عشرين عامًا أو أكثر حين كانت طفلة في السادسة قبل أن تُجرَى لها عملية الختان، وقالت لي فتاة إنها مارست العادة السرية وهي طفلة، ثم

توقفت بعد أن أَجْروا لها عملية الختان وهي في العاشرة من عمرها، وبمزيد من التعمق في الأسئلة كانت المرأة منهن تفتح قلبها وتحكي أدقَّ أسرارها في الطفولة والمراهقة. وقد لاحظتُ أن العصابيات أكثر استعدادًا وقدرةً على التعبير والمصارحة في حديثهن معي، وكنت أنفق مع المرأة الطبيعية ضعف الوقت تقريبًا الذي أنفقه مع المرأة العصابية من أجل الوصول إلى الإجابة الصريحة نفسها، وقد أصرَّت إحدى النساء الطبيعيات المتعلمات أنها لم تشعر بأية رغبة جنسية وهي طفلة قبل عملية الختان ولا بعدها، بل إنها كانت تنفر من الذكور وتبتعد عنهم، وقد التقيت بهذه السيدة أكثر من مرة، وفي إحدى المرات قالت لي دون أن تدري إن هناك حادثًا معيَّنًا لا تنساه منذ الطفولة، وشرحت لي كيف أخذها ابن عمها ذات يوم إلى سطح المنزل وجعلها تخلع السروال، وأنها شعرت بلذة، لكنها أصبحت تخاف منه وأصبحت تخاف أن يقول لأمها أو لأبيها.

وقد استطعت لكوني امرأة وطبيبة أن أحصل من هؤلاء النساء والفتيات على اعترافات قلَّما يحصل عليها باحث من الرجال؛ فالمرأة المصرية بحكم تربيتها الصارمة المرتكزة على إنكار الحياة الجنسية للبنات قبل الزواج ترفض التصريح بأنها عرفت شيئًا من هذا الجنس قبل الزواج، وهي تخجل من الحديث في هذه الأمور أمام أي رجل حتى وإن كان طبيبها المعالج.

وقد اتضح لي من مناقشة بعض أطباء النفس الذين كانوا يشرفون على علاج بعض النساء العصابيات في مجموعة بحثي أن هؤلاء الأطباء يجهلون الكثير عن حياة المرأة أو الفتاة العصابية التي يشرفون على علاجها، وكان سبب ذلك إمَّا أن الطبيب نفسه لم يتعمق بالقدر الكافي في حياة المرأة النفسية والجنسية، وإما أن المرأة تحرَّجت من التصريح له بحقائق حياتها.

وقد وجدتُ من خلال مناقشتي لمعظم أطباء النفس في مجتمعنا المصري، ومن خلال زمالتي لعددٍ كبير من الأطباء ولمعظم أطباء النفس في مجتمعنا المصري، ومن السنوات الأربع التي أصبحتُ فيها عضوًا في مجلس نقابة الأطباء؛ من خلال كل ذلك فقد وجدتُ أن مهنة الطب في مجتمعنا قاصرة حتى اليوم عن إدراك المشاكل الحقيقية الأساسية التي يُعاني منها المريض، سواء كان رجلًا أو امرأةً، وبالذات إذا كانت امرأة؛ فإن مهنة الطب كغيرها من المهن تخضع للقيم السياسية والاجتماعية والأخلاقية في المجتمع، بل إنها كغيرها من المهن أحد الأجهزة التي تُستخدَم أحيانًا لحماية هذه القيم والمحافظة عليها.

ويُمثِّل الرجل الأغلبية العددية في مهنة الطب كغيرها من المهن، وبالإضافة إلى الأغلبية العددية، فإن معظم النساء من الطبيبات لا يختلفن في أفكارهن عن الرجال الأطباء، بل

إنني عرفت من الطبيبات من هن أكثر تزمُّتًا وتخلُّفًا في نظرتهن إلى المجتمع والحياة والناس والقيم السائدة.

وقد حاولت أن أُجري هذا البحث نفسه في قسم الأمراض النفسية بكلية طب قصر العيني بالقاهرة منذ سنوات، لكني صادفت من العقبات ما جعلني أصرف النظر عن الفكرة، وكان أول هذه العقبات هي العقلية التقليدية السائدة لدى الأطباء المسئولين عن البحوث، هذه العقلية التي ترى أن كلمة «جنس» مرادفة لكلمة «عيب»، وأن البحث العلمي المستخدم يجب ألا يخوض في مثل هذه المسائل، وقد صادفت العقبة نفسها في كلية طب عين شمس، ونصحني أحد الزملاء الأطباء في لجنة البحوث ألا أُشير بحرفٍ واحد إلى كلمة «جنس» في اسم البحث حتى لا تعترض عليه لجنة البحوث، وكنت أفكِّر في أن يكون عنوان بحثي «المشاكل التي تعترض الحياة الجنسية للمرأة المصرية»، وبعد مفاوضات طويلة مع بعض الزملاء الأطباء في طب عين شمس حذفتُ كلمة «الجنسية» ووضعتُ مكانها كلمة «النفسية»، وبذلك زالت الحساسية لدى الأطباء المسئولين، وتمت الموافقة على إجراء البحث في كلية طب عين شمس، وهذا الكلام ليس خروجًا عن مناقشة نتائج البحث، بل إنه في صلب الموضوع؛ لأنني بعد أن حصلت على تلك النسب المرتفعة من النساء والفتيات اللاتي أُجريَتْ لهن عملية الختان في الطفولة أو اللاتي تعرضن في الطفولة لحوادث جنسية من رجال كبار، أصبحتُ أبحث في كليات الطب ومراكز البحوث عن بحوثٍ سابقة أُجريَتْ في مثل هذه المجالات دون جدوى، فإن أحدًا من الأطباء أو الباحثين أو الباحثات لم يُقدِم على بحثٍ من هذا النوع بسبب حساسية الموضوع، ولأن معظم البحوث لم تكن إلا بحوثًا شكلية من أجل الحصول على الشهادة أو الترقية، وأغلبية الباحثين والباحثات يبحثون عن طريق السلامة أو أقصر طريق للوصول إلى الهدف المنشود (الشهادة أو الترقية)، وليس هناك من يبحث عن المشاكل أو الصراعات مع المسئولين عن العلم أو الدين أو الأخلاق أو الفضيلة، حيث إن كل هذه الأشياء مجتمعة تعاني من مرض الحساسية تجاه كلمة «جنس»، وبالذات «الجنس» فيما يخص «المرأة».

إلا أنني بالرغم من كل ذلك فقد عثرت على بعض الأطباء من ذوي الشجاعة العلمية الذين شجعوني على إجراء البحث، منهم الدكتور أحمد عكاشة والدكتور عادل صادق بكلية طب عين شمس، بل إنني أيضًا عثرت على بعض الأطباء من ذوي الشجاعة العلمية الذين أقدموا على إجراء البحث العلمي الوحيد في مصر عن ختان البنات وآثاره الضارة، وقد أجرى هذا البحث الدكتور محمود كريم والدكتور رشدي عمار سنة ١٩٦٥ في كلية

طب عين شمس، ويشتمل البحث على جزأين: الجزء الأوَّل وعنوانه: أثر ختان البنات على الرغبة الجنسية عند المرأة، والجزء الثاني بعنوان: مضاعفات ختان البنات. وكان من نتائج هذا البحث الذي أُجرِيَ على ٦٥١ امرأة مُختَّنة (تم إجراء عملية الختان لهن في الطفولة) ما يلي:

(١) أن عملية الختان عملية ضارة بصحة المرأة، وهي تسبب صدمة جنسية للفتاة، ولها أثر مؤكد على إضعاف قدرة المرأة عن الوصول إلى قمة اللذة الجسدية (الأورجازم)، ولها أثر أقل درجة على رغبة المرأة الجنسية.

(٢) أن التعليم يساعد على الإقلال من انتشار هذه العادة، حيث إن الآباء والأمهات المتعلمين أصبحوا يرفضون إجراء هذه العملية على بناتهم، أمَّا الأسرة غير المتعلمة فلا تزال تختن خضوعًا للتقاليد السائدة أو اعتقادًا بأن هذه العملية تقلل من الرغبة الجنسية عند البنت بهدف المحافظة على عذريتها وعفَّتها.

(٣) ثبت خطأ الفكرة التي كانت تقول بأن عملية الختان تمنع حدوث أمراض سرطانية لأعضاء المرأة الجنسية الخارجية.

(٤) أن عملية الختان بجميع درجاتها، وعلى الأخص الدرجة الرابعة المعروفة باسم النوع الفرعوني (الطريقة السودانية في الختان) تصاحبها مضاعفات مباشرة أو بعد فترة من الزمن، مثل: النزيف، الالتهابات، اضطرابات في المجاري البولية، أكياس أو أورام قد تسدُّ مجرى البول أو الفتحة التناسلية، إلى غير ذلك.

(٥) وُجد أن ممارسة العادة السرية لدى البنات «المختنات» أقل من النسبة التي ذكرها كينزي في بحثه عن البنات غير المختنات.

وقد التقيت بالدكتور محمود كريم في القاهرة، وعرفت منه أنه صادف كثيرًا من العقبات أثناء إجراء هذا البحث، وأنه تعرض لكثير من النقد من بعض الأطباء وبعض رجال الدين الذين يَعُدُّون أنفسهم حُماة الأخلاق، والذين يتصور بعضهم أن التعرض لمثل هذه الموضوعات مساس بالأخلاق والتقاليد والدين.

وقد اتفقت بعض نتائج هذا البحث مع نتائج البحث الذي قمت به، حيث إن عملية الختان تُحدِث في حياة البنت صدمة نفسية وجنسية، وإنها تصيبها بنوع من البرود الجنسي تختلف درجته من امرأة إلى امرأة ومن ظرف إلى ظرف، كما أن التعليم يساعد على إحجام الآباء والأمهات عن إجراء العملية لبناتهم، لكن التعليم (في رأيي) وبالذات التعليم

التقليدي في المدارس والجامعات، الذي يهدف إلى الحصول على الشهادة وليس الحصول على الثقافة، هذا التعليم الشكلي لا يستطيع الوقوف بقوة في وجه التقاليد الراسخة في المجتمع المصري، وبالذات التقاليد المتعلقة بالجنس وعُذرية البنات وعِفَّة النساء، لارتباط مثل هذه التقاليد بالقيم الأخلاقية والدينية الحساسة السائدة منذ مئات السنوات.

وحيث إن عملية الختان هدفها الأوَّل والأخير هو ضمان عذرية البنت وضمان عِفَّتها قبل الزواج وبعده، فليس من المتوقع أن تنقرض هذه العملية بسهولة في المجتمع المصري (أو غيره من المجتمعات التي تسود فيها القيم والتقاليد نفسها)، إلا أن كثيرًا من الأسر المتعلِّمة أصبحت تنْتَبه لمضارِّ هذه العملية وتحمي بناتها منها، كما أن طريقة إجراء العملية أصبحت أقل وَحْشية، وانخفضت نسبة الطريقة الفرعونية بدرجاتٍ كبيرة في المجتمع السوداني وفي جنوب مصر، وأصبح الاتجاه إلى التخفيف من درجة هذه العملية باستئصال البظر وحده أو جزء من البظر فقط، وكنتُ قبل أن أُجري هذا البحث أظن أن هذه العادة لا تعيش إلا في الريف المصري وبين الأسر غير المتعلمة، لكني وجدت أن نسبة غير قليلة من الأسر المتعلمة في القاهرة لا تزال تؤمن بإجراء هذه العملية كوسيلة لحماية البنت من الزلل.

وقد أيقنتُ خلال هذا البحث أن كثيرًا من الأسر المتعلمة وغير المتعلمة لا تزال تؤمن بأن القياس الوحيد لشرف البنت هو عذريتها ليلة الزفاف، وأن معظم الرجال المصريين لا يتزوجون إلا العذراء، وقد وجدتُ أن أكثر ما يهدد سمعة الأسر أو شرفها هو سلوك بناتها ونسائها وحياتهن الجنسية التي يجب أن ترتكز أساسًا على العفة والزهد، إلا أنني وجدت أن هذا التشدد الأخلاقي الظاهري يقابله تسيُّبٌ أخلاقيٌّ في الخفاء؛ فالأب الذي يضرب ابنته لأنها حادثت زميلًا لها؛ يخون زوجته في معظم الأحيان، والأخ الذي يتظاهر بالتدين بالنهار يمد يده في الليل ليلمس جسد أخته الصغيرة.

إن الازدواجية الأخلاقية تقود بطبيعة الحال إلى التناقضات، وقد كنتُ أدرك من خلال عملي كطبيبة أن حوادث الاعتداء الجنسي على البنات والأطفال ليست بالقليلة في مجتمعنا؛ لأن مثل هذه الحوادث لا يدري عنها أحد، وإذا ضُبطت بالصدفة فإن كثيرًا من الأسر تتكتم الأمر حفاظًا على سمعة الأسرة وبناتها.

وقد وجدت في البحث أن نسبة مثل هذه الحوادث الجنسية في الطفولة مرتفعة في حالة النساء غير المتعلمات عنها بين النساء المتعلمات، ونسبة المشاكل الاقتصادية أكثر ارتفاعًا في المجموعة غير المتعلمة، ومعظم هؤلاء يعيشون في بيوت صغيرة، وأفراد مثل

هذه الأسر كثيرة الإنجاب، وقد يعيش في حجرة النوم الواحدة عدد من الإخوة الذكور والأخوات البنات، وقد يكون معهم أيضًا الأب والأم، وفي مثل هذه الظروف تزيد نسبة العلاقات الجنسية السطحية وغير السطحية بين أفراد الأسرة الواحدة. قالت لي واحدة من العاملات في إحدى شركات الأدوية: «كنت وأنا طفلة أرقد بين أبي وأخي، ولا أعرف في الليل مَن منهما الذي يمد يده ويلمس جسدي، وكنت أتظاهر بالنوم خوفًا من أمي التي كانت ثقيلة النوم لا تدري شيئًا عما يحدث.»

وقد وجدت أن نسبة مثل هذه الحوادث الجنسية مع رجال كبار تبلغ ٤٥ بالمائة في حالة النساء غير المتعلمات (عصابيات وطبيعيات)، أمَّا في حالة الطبيعيات (متعلمات وغير متعلمات) فهذه النسبة ٣٥ بالمائة، وهي تزيد عن النسبة التي حصل عليها كينزي في بحثه، إذ وجد أن هذه النسبة هي ٢٤ بالمائة فقط، وأنا لا أستطيع مقارنة مثل هذه النسب في مجتمعات شديدة الاختلاف في الظروف الاجتماعية والثقافية كالمجتمع المصري والمجتمع الأمريكي مثلًا، كما أن هناك فارقًا زمنيًّا يبلغ عشرين عامًا بين بحث كينزي وهذا البحث، إلا أنني أستطيع أن أقول إن مثل هذه الحوادث الجنسية مع رجال كبار تزداد في المجتمع أو في الأسرة المكبوتة جنسيًّا، والتي ترتكز فيها التربية على إنكار الجنس أو احتقاره، وفي مثل هذا الجو المكبوت قد لا يجد الشخص وسيلة للتخلص من توتُّره الجنسي إلا من خلال طفلة ترقد بجواره على السرير، وهي تنتشر أيضًا في مجتمعنا المصري بسبب الوضع الأدنى للفتاة والمرأة في الأسرة، والازدواجية الأخلاقية التي تسهل في مجتمعنا للرجل استغلال المرأة اجتماعيًّا أو اقتصاديًّا أو جنسيًّا، وفي حالة اعتدائه الجنسي عليها فإنه يدرك أنها هي التي تتحمل أثر الاعتداء، إنها هي التي تفقد عذريتها أو شرفها أو سمعتها، أمَّا هو فلا يفقد شيئًا.

إن مفهوم الشرف مرتبط في المجتمع المصري بما يُسَمَّى «العِرض» أو عذرية الفتاة قبل أن تتزوج، وإخلاصها لزوجها وطاعته بعد الزواج، فإذا ما فقدت البنت عذريتها لأي سبب، وإن كان اغتصابًا رغم أنفها، فإنها تصبح فتاة بغير عذرية أو بغير شرف، وإن شرف الأسرة أو عِرضها قد أصبح في الأرض، وعلى رجال الأسرة أن يستردُّوا شرفهم الضائع إمَّا بقتل الفتاة (كما يحدث في الصعيد أحيانًا) أو بكتمان الأمر (الذي يُسَمَّى الفضيحة) وتزويجها في السر من الرجل الذي اعتدى عليها أو أي رجل آخر يتطوع للزواج منها، ويُعتبَر هذا الرجل المتطوع شهمًا مُضحِّيًا بنفسه من أجل إنقاذ شرف الأسرة، وكأنه يتطوع للموت في الحرب مثلًا أو في كارثة وليس أنه يقبل على الزواج من فتاة.

لكن الزواج من فتاةٍ غير عذراء يُعتبَر حتى اليوم في مجتمعنا المصري أمرًا مكروهًا لا يقبله أي رجل، وإذا اكتشف الرجل أن عروسه غير عذراء ليلة الزفاف فسرعان ما يُطلِّقها، فتنتشر الفضيحة والعار الذي يلحق بأسرة الفتاة التي قد تكون بريئة تمامًا من أي تجربةٍ جنسية قبل الزواج، وإنما شاء حظها العاثر ألا تنزف ليلة الزفاف أو قادها حظها العاثر إلى زوج لا يعرف العذراء من غير العذراء، وهذا أمرٌ صعب لا يمكن أن يعرفه أحد، وكم يجهل هذا الأمرَ أيضًا معظمُ الأطباء! ولأن العُذرية لا تُعرَف إلا بالنزيف الدموي ليلة الزفاف، وكم من عذراوات لا ينزفن قطرة واحدة ليلة الزفاف! بسبب اختلاف أغشية البكارة واختلاف أحجام أعضاء الرجال الجنسية، وبسبب حوادث غير جنسية في حياة البنات أو حوادث وقعت في طفولة البنت المبكرة؛ مثل هذه الاعتداءات الجنسية من رجال الأسرة ذاتها أو من الغرباء.

ويتضح من جدولَيْ ١٦–١٧ أن نسبة المشاكل الجنسية والعاطفية في فترة المراهقة للعصابيات تبلغ ضعف النسبة للطبيعيات (٤١ بالمائة مقابل ٢٠ بالمائة)، وقد كانت معظم هذه المشاكل بسبب الممارسات الجنسية قبل الزواج، والخوف من فقدان العذرية أو فقدانها فعلًا، أو الخوف من الحمل أو التعرض للحمل فعلًا، ومحاولة الإجهاض بشكلٍ أو بآخر. ذكرت لي إحدى الطبيعيات أنها فقدت عذريتها، لكنها ذهبت إلى طبيب فأعاد لها العذرية بعملية صغيرة نظير مائة جنيه، ثُم تزوجت وصارحت زوجها، وهي تعيش سعيدة مع زوجها. إحدى العصابيات قالت إنها فقدت عذريتها لكنها لم تذهب إلى طبيب، وتزوجت وصارحت زوجها بالحقيقة، لكنه فضحها عند أسرتها، ومنذ ذلك الوقت وهي تعاني من العصاب. وقد استمعتُ إلى مشاكل متعددة من هذا النوع، وحينما كنت أسأل المرأة أو البنت عن حياتها الجنسية قبل الزواج كانت تتردد كثيرًا في التصريح، وإنني أعتقد أن هذه النسب التي حصلت عليها أقل من الحقيقة، وهي تُعتبَر نِسَبًا منخفضةً إذا قورنت بمثيلاتها في المجتمعات الأخرى، وبالطبع لا بد من مراعاة الفروق في الظروف الاجتماعية والثقافية عند مقارنة مثل هذه النسب في مجتمعات مختلفة. وتقول الدراسات الجنسية في بلدٍ مثل بولندا إن ٧٩ بالمائة من الإناث كانت لهن علاقات جنسية قبل الزواج في سن السادسة عشرة أو ما حولها، وفي دراسةٍ أخرى فقد وُجد أن ٥٠٫٩ بالمائة من الإناث كانت لهن علاقات جنسية قبل الزواج، أمَّا في المجتمع الأمريكي أو المجتمع السويدي فإن العلاقات الجنسية قبل الزواج أصبحت هي القاعدة سواء في حالة الذكور أو الإناث، وقد أصبح المجتمع السويدي في السنين الأخيرة يفصل بين الجنس والزواج.

وقد أظهرت نتائج البحث أن أغلبية الأسر في المجموعات الأربع تفضل الذكور على الإناث (٧٢,٥ بالمائة في المتوسط)، لكنها تزيد في الأسر غير المتعلمة عنها في الأسر المتعلمة، وتزيد نسبة النساء والفتيات اللاتي تمنين أن يكنَّ ذكورًا في المجموعة المتعلمة عنها في المجموعة غير المتعلمة؛ ذلك أن التعليم يزيد من وعي الفتاة بحقوقها؛ فتصبح أكثر إدراكًا لمظاهر التفرقة بينها وبين أخيها، ويزداد تمردها على الوضع الأدنى وتتمنى أن تكون ضمن الجنس الأعلى، ويلعب التعليم دورًا أيضًا في تشجيع الفتاة أو المرأة على مقاومة الكبت، ويجعلها أكثر جرأةً في ممارسة الجنس أو محاولة إرضاء رغبتها الجنسية أو الفكرية، فقد لوحظ ارتفاع نسبة الطموح الفكري وتفضيل التعليم على الزواج بين المتعلمات (٨٦,٢ بالمائة).

ويدل ارتفاع نسبة تفضيل التعليم على الزواج في المجموعات الأربع على أن الطموح الفكري والرغبة في التعليم والعمل على تحقيق الذات من خلال العمل المنتج (وليس من خلال الزواج) هي صفات طبيعية في المرأة لا تُغيِّر من كونها أنثى، وأنها حين يُفرَض عليها الزواج كوظيفة وحيدة في الحياة تشعر بالإحباط والنقص وعدم تحقيق الذات، وتتعرض للمشاكل النفسية وللعصاب، وقد اتضح من نتائج البحث أن المرأة العصابية أكثر طموحًا في الحياة من المرأة الطبيعية، وأنها تشعر بكونها إنسانة لها عقل وجسد أكثر من المرأة الطبيعية التي تقتل طموحها الفكري في الحياة من أجل الزواج أو النجاح في حياتها الزوجية.

وحيث إن المجتمع ما زال ينظر إلى أن الوظيفة الأساسية للمرأة في الحياة هي الزواج؛ ولهذا تواجه المرأة الطموحة فكريًّا العراقيل والصعاب التي تقودها أحيانًا إلى العصاب، وتواجه المرأة العصابية المشاكل الجنسية والمشاكل الأسرية أكثر من المرأة الطبيعية بسبب رغبة المرأة العصابية في الانطلاق والتساوي مع الرجل في الحرية الاجتماعية والشخصية، وهو مطلب طبيعي للمرأة التي تشعر بإنسانيتها وتكامل شخصيتها كجسم وعقل، أمَّا المرأة الطبيعية فإن قبولها للأمر الواقع وتكيُّفها معه يجعلها أكثر استسلامًا للقيود الجنسية والاجتماعية والأسرية، وبالتالي أقل مواجهةً لمشاكل العصاب من المرأة غير المكبوتة أو العصابية.

وقد لوحظ في نتائج هذه الدراسة ارتفاع نسبة المشاكل داخل الأسرة بين المتعلمات العصابيات (٤٦ بالمائة) عنها بين المتعلمات الطبيعيات (١٣,٣ بالمائة)، وهذا يشير إلى أن المشاكل الأسرية خلال فترة المراهقة أكثر تأثيرًا على نفسية الفتاة من الحرمان العاطفي خلال مرحلة الطفولة.

وقد يكون سبب ذلك أن القيود والكبت والتحذيرات تزيد على الفتاة في سن المراهقة عنها في مرحلة الطفولة، وأن الطفلة البنت تتمتع بحرية اجتماعية أكثر من الفتاة المراهقة؛ ولهذا تزيد وطأة المشاكل الأسرية على الفتاة المراهقة أكثر من الطفلة البنت، وتشعر الفتاة المراهقة بالظلم والاضطهاد وتمييز الذكور عليها أكثر من الطفلة البنت.

وقد اتضح من البحث أن ٥٨ بالمائة من العصابيات المتعلمات لديهن مشاكل بسبب الدورين داخل البيت وخارجه، وهذه النسبة مرتفعة عن حالة الطبيعيات المتعلمات، حيث لا تشعر بمثل هذه المشكلة إلا ١٦٫٦ بالمائة منهن فقط، وهذا يشير إلى أن من العوامل التي تسبب العصاب للنساء والفتيات مشكلة الجمع بين الدورين داخل البيت وخارجه، وأن مثل هذه المشكلة لا يواجهها الرجل الذي لا يُطلَب منه أي عمل أو مسئوليات داخل البيت، وبازدياد خروج المرأة للتعليم والعمل، فإن أثر هذه المشكلة يزداد، خاصةً أن عقلية الرجل والمجتمع عامة لا تزال ترى أن أعمال البيت هي مسئولية المرأة وحدها، وأن الرجولة أو الذكورة تقتضي من الرجل ألا يكنس ويمسح ويغسل الصحون؛ فهذه أعمال لا تليق بكرامة الذكر وإنما هي تليق فقط بجنس الإناث الأدنى.

أمَّا ارتفاع نسبة المشاكل بسبب الدورين داخل البيت وخارجه بين النساء غير المتعلمات، فقد يرجع إلى أن هؤلاء النساء لا يستطعن الاستعانة بخادمة أو شغَّالة؛ نظرًا لانخفاض مستوى حياتهن الاقتصادي. ويدل الارتفاع هنا في نسبة من لا يُرضي مستوى العمل طموحَها على انخفاض العمل في مجموعة العاملات غير المتعلمات (كان أغلبه روتينيًّا أو آليًّا أو يدويًّا أو أحد أعمال الخدمة المنزلية).

وإذا عرفنا أن مجتمع العمل أو الدراسة لا يساوي في نظرته بين المرأة والرجل، وبالذات في حالة غير المتعلمات، لأدركْنا أن المرأة غير المتعلمة أكثر استسلامًا للتفرقة والاضطهاد من المرأة المتعلمة، وأن المرأة الطبيعية أكثر استسلامًا من المرأة العصابية، ولو أضفنا إلى ذلك أن طموح المرأة الطبيعية في العمل أو الدراسة أقل إرضاءً من المرأة العصابية، فإنه يتضح أن المرأة الطبيعية أكثر خضوعًا لظروفها السيئة من المرأة العصابية، وأن هذا الخضوع ليس نوعًا من الصحة النفسية بقدر ما هو نوع من العجز والاستسلام وعدم المقاومة.

وارتفاع نسبة المشاكل الزوجية في هذا البحث يوضح أن الزواج يمثل مشكلة كبيرة في حياة المرأة، وأنها بانتقالها من حالة كونها غير متزوجة إلى كونها زوجة تصبح معرضة لعدد من المشاكل الاجتماعية والنفسية والجنسية التي تسبب لها العصاب في أحيان كثيرة.

ويتضح أن المرأة العصابية المتعلمة أكثر المجموعات قدرةً على اختيار زوجها عن حب، وأن أقلهن في هذا الشأن هي المرأة الطبيعية غير المتعلمة، ورغم ذلك فإن المرأة الطبيعية غير المتعلمة هي أقل المجموعات إقدامًا على العلاقات الجنسية خارج الزواج، على حين أن المرأة العصابية المتعلمة هي أكثرهن إقدامًا على هذه العلاقات، ولو أضفنا إلى ذلك أن سيطرة الزوج وعدم تعاونه مع زوجته يزيد في حالة الطبيعيات غير المتعلمات، نرى أن المرأة العصابية المتعلمة أكثر من غيرها جرأةً في البحث عن إرضاء رغباتها، أكثر رفضًا لواقعها ولسيطرة الرجل، رغم أن حياتها أفضل بالنسبة للمرأة الطبيعية وبالذات غير المتعلمة.

إن نسبة العلاقات الجنسية خارج الزواج في مجموعتي العصابيات المتعلمات وغير المتعلمات كانت (٣٢,٣ بالمائة)، وهي أكثر منها لدى مجموعتي الطبيعيات متعلمات وغير متعلمات (٩ بالمائة) بالرغم من أن عدم الإشباع الجنسي في معظم الحالات يكاد يكون متساويًا (٧٧,٥ بالمائة و٧٠,٤ بالمائة)، ومعنى ذلك أن المرأة الطبيعية رغم حرمانها الجنسي أقل جرأةً في ممارسة الجنس خارج الزواج من المرأة العصابية، أو أنها أقل جرأةً في التصريح بهذه الممارسة لو أنها حدثت.

وقد اتضح من النتائج أن النساء العصابيات يفضلن حياتهن عن حياة أمهاتهن بنسبة أكبر من النساء غير المتعلمات، وهذا يشير إلى أن المرأة العصابية رغم مشاكلها في الحياة أكثر طموحًا ورغبةً في التقدم والسير إلى الأمام من المرأة الطبيعية.

كما أن التعليم يلعب دورًا في أن يجعل المرأة أكثر إقدامًا على التقدم رغم ما يخلقه التقدم من مشاكل جديدة.

وقد وُجد في البحث أن العصابيات المتعلمات أكثر استخدامًا لوسائل منع الحمل من الطبيعيات، وأن الزوجات غير المتعلمات أقل استخدامًا لوسائل منع الحمل من المتعلمات.

وتفسير ذلك أن الثقافة تجعل المرأة أكثر وعيًا ورغبةً في التحكُّم في جسدها وحملها وولادتها، وأنها لا تحتاج إلى الأطفال من أجل تحقيق ذاتها من خلالهم كما تحتاج إليهم المرأة غير المثقفة، وحيث إن زيادة وعي المرأة بحقوقها كإنسانة تُعرِّضها للصراع من أجل تحقيق ذاتها داخل البيت وخارجه؛ لهذا فإن المرأة العصابية أكثر إدراكًا بأن كثرة الأطفال تمثل قيدًا للمرأة على وقتها وحريتها؛ وبالتالي هي تحاول التحرر من هذا القيد عن طريق وسائل منع الحمل. وقد لاحظتُ أن النساء العصابيات أقل التصاقًا بأطفالهن من النساء الطبيعيات، وقد فسر بعض الأطباء المعالجين مثل هذه الحالات بنقصان في مشاعر الأمومة بسبب المرض النفسي، ولكني وجدت أن شدة التصاق المرأة الطبيعية

بأطفالها وتعلُّقها الشديد بهم ليس إلا أمومة مريضة متضخمة، تُعوِّض بها عن أنواع الحرمان الأخرى المفروضة عليها من الأسرة والمجتمع.

ومن أهم نتائج البحث أن المشاكل الفكرية والاجتماعية كانت أكثر أهمية لدى معظم الحالات من المشاكل الجنسية أو العاطفية.

وقد تختلف هذه النتيجة مع الفكرة الشائعة بأن المرأة أقل طموحًا من الرجل في المجالات الفكرية والاجتماعية، وأنها أكثر انشغالًا بالأمور العاطفية والزوجية والجنسية. إن المرأة ليست أقل طموحًا من الرجل في الحياة الفكرية والاجتماعية، ولكنها تَكبِتُ طموحها الفكري من أجل إرضاء الرجل، سواء كان زوجًا أو أبًا أو ولي أمر، وهي ليست أكثر من الرجل انشغالًا بالأمور الجنسية والعاطفية، العكس هو الصحيح؛ فلقد اتضح لي من الحديث مع أزواج بعض الزوجات العصابيات والطبيعيات أن الزوج أكثر حساسية لكفاءته الجنسية ورغبته في إثبات هذه الكفاءة بشتى الطرق، أمَّا المرأة فهي لا تهتم كثيرًا بدورها الجنسي أو عدم إشباعها الجنسي، وتحسُّ وطأة المشاكل الأخرى أكثر. وتفسير ذلك أن المجتمع يساعد الرجل أكثر من المرأة على إشباع طموحه الفكري والاجتماعي، فيَقلُّ انشغاله عن المرأة التي تشعر بأن المجتمع يحرمها من إشباع طموحها الفكري والاجتماعي أكثر مما يحرمها من إشباع طموحها العاطفي والجنسي. إن المرأة في نظر المجتمع أداة جنس وحب وعاطفة أكثر منها أداةً فكرية للعمل والإنتاج في المجتمع.

ومن جدول رقم ٣٦ نجد أن القلق أكثر أنواع العصاب انتشارًا بين المتعلمات، وهذا معناه أن التعليم يجعل المرأة أكثر وعيًا بوجودها، وَمِنْ ثَمَّ أكثر وعيًا بالصراع، فالمرأة التي لا تحس وجودها وقيمة هذا الوجود لا تحس بالصراع من أجل إثبات وجودها أو تحقيق ذاتها، وبالتالي لا تعرف القلق في حياتها؛ فالقلق ليس إلَّا قلقًا على الوجود، كما عبر عن ذلك رولوماي في تعريفه للقلق النفسي كنوع من أنواع العصاب.

إن القلق يحتاج إلى درجة معينة من الوعي حتى يحدث، والقلق ليس إلا رغبةً في الحصول على المزيد، ورغبة في حياة أفضل وطموح أكبر وتحقيق نوع من التكامل والرضا عن النفس وتحقيق الذات، أمَّا الخوف فهو شعور بالضعف والرغبة في الانسحاب وعدم القدرة على مواجهة التحديات والصراعات، والهستيريا هي ذلك العجز عن مواجهة العصاب الذي يأخذ شكل العجز العضوي في أحد أعضاء الجسم. القلق هو مرض النساء القويات الصامدات اللاتي يواجهن التحديات، والهستيريا والخوف هما مرض الضعيفات العاجزات عن المواجهة؛ ولهذا فإن علاج القلق ليس هو (في رأيي) بإزالته عن طريق

المهدئات والمُسكِّنات، ولكن علاج القلق هو تسليح المرأة بالقوة وإمكانيات أكثر للانتصار على التحديات وتحقيق ذاتها كإنسانة متكاملة العقل والجسد في مجتمعٍ يساوي بين جميع أفراده.

أمَّا الجدول الذي يشير إلى نسب الاعتداءات والحوادث الجنسية في حياة البنات الصغيرات، فربما يكون أقلَّ من الحقيقة؛ إذ لم يكن من السهل لكل امرأة أو فتاة أن تعترف لي بكل ما وقع لها في طفولتها رغم جهودي في هذا السبيل، كما أن ذاكرة بعض الأطفال تنسى مثل هذه الحوادث إذا حدثت في سن مبكرة جِدًّا، أو بسبب أن ذاكرة الإنسان تنسى في معظم الأحيان ما تريد أن تنساه.

إن هذا النسيان لا يعني أن الحادث ضاع في الزمن، ولكن معناه أن الحادث اختفى في سراديب العقل الباطن ورقد في الظلام، وقد يطفو على السطح حينما تساعد الظروف على إظهاره.

وقد يندهش بعض الناس لحدوث مثل هذه الحوادث الجنسية مع البنات الأطفال بواسطة الرجال الكبار الغرباء أو من أفراد الأسرة نفسها، وهذه الدهشة تدل على أن هؤلاء الناس ينسون حقائق كثيرة، ويتجاهلون تناقضات عديدة يعيشها الرجال الكبار في المجتمع، لقد وجدت أن معظم هذه الاعتداءات على الأطفال البنات تحدث في الأسر المكبوتة جنسيًّا؛ ولذلك لا يكون أمام الأخ الشاب المراهق إلا أخته الصغيرة، خاصةً إذا كانت تشاركه سريرًا واحدًا كما يحدث في الأسر ذات الموارد المحدودة، اعترفتْ لي إحدى النساء أن أخاها الذي يكبرها بأربعة أعوام اتصل بها وهي طفلة، ولم يكتف بها بل اتصل بأخواته الثلاث الأخريات الأصغر منها، مع أنه كان شابًّا طبيعيًّا ومتفوقًا في دراسته، ولم يشك فيه أحد من الأسرة. وإذا كان الأخ المحروم يعجز عن التحكم في نفسه مع أخته الطفلة، فما بال الشاب الغريب سواء كان جارًا أو بوَّابًا أو خادمًا أو مُدرِّسًا؟ ولكن من يدفع ثمن هذا؟ إنها البنت المسكينة وحدها التي تُفاجَأ في ليلة الزفاف بأنها ليست عذراء، وتحدث الكارثة التي تعصف بمستقبلها، أو إذا مرت ليلة الزفاف بسلام، فإن تجربتها السابقة والتي غلَّفتها بالإحساس بالذنب والخوف والكبت تقودها إلى البرود الجنسي وعدم القدرة على الإشباع.

إن الجدول الذي يشير إلى نسبة عدم الإشباع الجنسي في المجموعات الأربع من النساء قد لا يعبر عن كل الحقيقة؛ لأن المرأة المصرية بطبيعتها تخجل من الحديث في الجنس، وهي إذا لم تخجل فهي تجهل معنى الإشباع ولا تعرف ماذا يعني الأورجازم، وهي إذا

عرفتْه نظريًّا لم تعرفه عمليًّا، وهي إذا عرفته عمليًّا فهذا أمر نادر، يتوقف أيضًا على أن يكون زوجها قادرًا على فهمها، ومتعاونًا معها إلى أبعد حدٍّ وليس أنانيًّا، وأغلبية الرجال غير ذلك بحكم التربية القائمة على تمييز الذكور عن الإناث.

إن الجدول الذي يشير إلى نسبة الأزواج الذين يتعاونون مع زوجاتهم في أعمال البيت والأطفال يمكن أن يعطينا فكرة عامة عن أن أغلبية الأزواج لا يتعاونون مع زوجاتهم، وهناك بحث محلي آخر أوضح أن غالبية الأزواج في الأسر المصرية (في الريف والحضر) لا يسهمون مطلقًا في الأعمال المنزلية أو رعاية الأطفال (فيما عدا الذهاب بهم إلى الطبيب)، وذلك فيما يقرب من ٨٥ بالمائة، هذا برغم أن معظم الزوجات الريفيات يشاركن أزواجهن العمل بالحقل أو يعملن بالتجارة، وأن نسبة غير قليلة من الزوجات في الحضر يعملن خارج البيت ويشاركن في نفقات الأسرة مع الزوج.

إن أنانية الأزواج ليست إلا نتيجة لتلك التربية التي تقوم في معظم الأسر على التفرقة في المعاملة بين الولد والبنت، وقد رأينا في جداول البحث كيف أن أغلبية الأسر المصرية لا تزال تُفضِّل الذكور على البنات، ومثل هذه التربية تخلق رجالًا ساديين أنانيين ونساء ماسوشيات سلبيات، كما أن هذه التربية تفسد العلاقات بين الرجال والنساء، وبالذات العلاقات الزوجية، وتسبب مشاكل متعددة، وخاصةً للزوجات العاملات بسبب الصراع الذي تعيشه المرأة العاملة سواء في عملها خارج البيت أو في علاقتها مع زوجها داخل البيت أو في علاقتها مع نفسها، وصراعها بين صفات الأنوثة التقليدية من طاعة وخضوع، وصفات المرأة العاملة المستقلة الشخصية والرأي. إن الدورين اللذين تقوم بهما المرأة العاملة خارج البيت وداخله يمثلان لها عبئًا جسديًّا ونفسيًّا شديدًا، وتجد المرأة العاملة نفسها أحيانًا من شدة الإرهاق ومن شدة الصراع بين الدورين، مطالبةً بأن تختار إمَّا عملها وإما حياتها الزوجية، أمَّا الرجل فهو لا يواجَه بمثل هذه المشكلة أبدًا؛ لأن المجتمع بجميع قوانينه ونظمه قد جعل العمل للرجل حقًّا وواجبًا لا نقاش فيه، وكذلك جعل البيت للرجل تخدمه فيه الزوجة وتعطيه وتلبِّي رغباته، وإلا استخدم ضدها قانون الزواج فطلَّقها أو عاقبها.

وفي بحثٍ محلِّي وُجد أن الاختيار بين البيت والمهنة يمثل مشكلة انفعالية حادَّة عند كثيرٍ من النساء، فتُسبِّب لهن حيرةً دائمة وصراعًا نفسيًّا موصولًا، أمَّا الرجل فإن الزواج لا يعطِّله عن عمله؛ ذلك أن الزواج عنده حادثٌ عارض. ووصل إلى نتائج مشابهة عددٌ من الباحثين أمثال سيجيل Siegel وكول Col حيث وجدوا أن النساء العاملات يظهر عليهن

أعراضٌ نفسية أكثر حدَّة مما يظهر على العمال الرجال الذين يشاركونهم العمل نفسه والظروف نفسها.

وسوف يظل الزواج مشكلة في حياة النساء العاملات إلى أن تحدث المساواة الكاملة بين الجنسين داخل الزواج وخارجه.

وبسبب التفرقة في المعاملة بين البنات والأولاد، وإعداد البنت للزواج والخدمة بالبيت أكثر من إعدادها للعمل المنتِج في المجتمع، وبثِّ صفات الأنوثة الخاطئة في نفس البنت منذ صغرها من حيث الطاعة والهدوء والاستكانة، وزجرها أو اتهامها بالاسترجال إن أبدت شيئًا من قوة الشخصية أو الاستقلال في الرأي، كل ذلك يفسد العلاقة بين الأزواج والزوجات، وتصبح الزوجة المثالية هي الزوجة المطيعة المستكِينة، وليست الزوجة الذكية صاحبة الرأي. إن ذكاء المرأة أو استقلال رأيها يعتبر عيبًا لا ميزةً، ويفسَّر تفسيرًا سيِّئًا على أنه نوع من العناد أو العصاب أو الشذوذ أو التشبه بالرجال. إن معظم الزوجات الذكيات المثقفات اللاتي تحدثتُ معهن كانت إحدى مشاكلهن الأساسية أن أزواجهن يكرهون صفة الذكاء فيهن ويقاومونها بشتى الطرق، ويفضلون عليهن النساء الغبيات؛ لمجرد أنهن يَطِعْنَهم طاعة عمياء.

وفي بحثٍ محلي اتضح أن أكثر صفات الزوجة تفضيلًا عند الأزواج (في المجموعة الريفية) هي قدرة الزوجة على قيامها بواجباتها كربَّة بيت ومدبِّرة للشئون المنزلية، وأن تكون مطيعة ومتعاونة. وبالنسبة للأزواج (في المجموعة الحضرية) فضَّلوا من صفات الزوجة الطاعة أوَّلًا، ثُمَّ القدرة على الصبر والصمود أمام الأزمات، والمشاركة في تقدير ما يتعرض له الزوج من ظروف، وحسن الخلق، وحسن التدبير في الشئون. أمَّا الصفات التي يكرهها الزوج في زوجته (في المجموعة الريفية) فهي صلابة رأيها أو عنادها، ثُمَّ عدم حب الزوجة لأهل الزوج، والتدخل في شئونه الخاصة، والغيرة من الزوجات الأخريات. وبالنسبة للأزواج (المجموعة الحضرية) فالزوج يكره في زوجته الغضب وشدة الحساسية أولًا، ثُمَّ صلابة الرأي والعناد، وعدم الاهتمام بمظهرها، والغيرة على الزوج، وعدم حبِّها لأهله، وأخيرًا رغبة الزوج في السيطرة.

أمَّا الزوجات فقد وجدت الباحثة أن الصفات التي تكرهها الزوجة في زوجها (في المجموعة الريفية) هي أوَّلًا سرعة غضب الزوج، والخضوع لأهله، وأنانيته الشديدة، وإهانة الزوجة وإساءة معاملتها، والتحكم في الزوجة واستبداد الزوج. وفي المجموعة الحضرية وجدت الباحثة تشابهًا في الصفات غير المستحَبة إلى جانب صفات أخرى لم تُشر إليها

الزوجات الريفيات، وكانت من أولى الصفات غير المفضلة عندهن هي سرعة الغضب بالنسبة للزوج، ونرفزته الشديدة على أبسط الأسباب، وعدم معاملته لها كزوجة، ورأت بعض الزوجات أن أخلاق أزواجهن وتصرفاتهم كلها معيبة.

وأوضحت الدراسة أن بعض الأزواج في المجموعتين حاولوا القيام بمحاولة لتغيير هذه الجوانب في طباع زوجاتهم حتى يتم التوافق بينهم بالصورة التي يرتضونها، إلا أن نسبة الأزواج الذين فشلوا في تغيير زوجاتهم (في المجموعتين) أكبر من نسبة الأزواج الذين أحدثوا هذا التغيير، وهذا يدل في رأيي على أن مقاومة الزوجة (سواء في الريف أو المدينة) لسلطة الزوج ليست هينة، وأن الصراع بين الزوج وزوجته لا ينتهي دائمًا بخضوع الزوجة الكامل، وإنما هو خضوع جزئي أو ظاهري خوفًا من الطلاق أو المشاكل مع الزوج، وتظل المرأة في أعماقها محتفظة بصفاتها الطبيعية غير المستحبة من الزوج، وأهمها تلك الصفة التي يُطلِق عليها الزوج اسم صلابة رأي الزوجة أو عنادها، إن إفصاح الزوجة عن رأيها يعتبر في نظر الزوج نوعًا من العناد؛ لأن الزوج يرى (عُرفًا وقانونًا) أن الزوجة واجبها (الطاعة) فقط، وليس لها أن تناقش أو أن يكون لها رأي، فإذا كان لها رأي فهذا ليس ميزة فيها كإنسانة تفكر وتعتز برأيها، وإنما هو عيب وصِفَة غير مستحبة توضع تحت عنوان العناد وصلابة الرأي، ويحاول الزوج أن يصلح زوجته، وذلك بأن يحوِّلها من زوجة لها رأي إلى زوجة بلا رأي، ورأي زوجها هو رأيها، فإن فشل في إصلاحها فالويل لها، الطلاق أو الزواج بأخرى أو السبُّ أو الضرب، وفي حالة الأزواج المثقفين أو المهذبين فإنه الإهمال أو الهجران والتسلل إلى عشيقة أو امرأةٍ أخرى، تعترف له أنها تطيعه طاعة عمياء؛ لأن رأيه صائب مائة في المائة، ولأنه لا يُخطئ أبدًا، ولأنه ليس بشرًا ولكن إله.

وكم تصبح المشكلة حادَّة في حياة المرأة العاملة خاصةً إذا كانت ذكية ومثقفة؛ لأنها تضطر في كثير من الأحيان أن تتظاهر بالغباء من أجل الحفاظ على حياتها الزوجية، أو تضطر إلى تنفيذ رأي زوجها الخاطئ لأنه مصرٌّ عليه ورافض لرأيها، وهذا بطبيعة الحال يؤدي إلى إصابة النساء المتزوجات بالعصاب أكثر من النساء غير المتزوجات، والنساء الذكيات المثقفات أكثر من النساء غير المثقفات.

على أن المرأة التي حُرمت من التعليم أو حُرمت من العمل، لها أيضًا مشاكلها التي تسبب لها العصاب. إن الانقطاع عن التعليم أو العمل يسبب للمرأة وخاصةً الذكية عصابًا وألمًا نفسيًّا بسبب إحساسها بضياع مستقبلها، وعدم قدرتها على تحقيق ذاتها كإنسانة لها طموح فكري في الحياة، وتظهر هذه المشكلة بوضوح في الطبقات المستريحة اقتصاديًّا،

حين تشعر المرأة غير العاملة بالفراغ القاتل وضياع حياتها هباءً، وأن الزواج لا يحقِّق ذاتها كإنسانة، فالرجل لا يحقق ذاته من خلال الزواج، وإنما من خلال العمل المنتِج في المجتمع، وتبيَّن من بعض البحوث عن المرأة أن المرأة تخرج إلى العمل تحت إلحاح الضغط الانفعالي لشعورها بالوحدة أكثر من خروجها تحت ضغط الحاجة الاقتصادية، وهذا بالطبع في غير الطبقات الكادحات والفقيرة التي تمثل الحاجة الاقتصادية السبب الرئيسي لخروج نسائها للعمل، بل إلى خروج الرجال للعمل أيضًا. إن الحاجة الاقتصادية هي التي تدفع ملايين الرجال والنساء والطبقات الكادحة والفقيرة إلى العمل، أمَّا في الطبقات المستريحة نسبيًّا، فإن الإنسان (امرأةً ورجلًا) يشعر بحاجة إلى العمل من أجل تحقيق ذاته كإنسان، ولكن العمل هنا لا بد أن يكون من ذلك النوع الذي يحبُّه الإنسان ويختاره، وليس العمل الذي يُفرض عليه ويشعر نحوه بعدم الرضا، وهذا أمر لا يتحقق في العالم لمعظم الناس (نساءً ورجالًا) بسبب النظم الاجتماعية القائمة على التنافس والاستغلال أكثر من التعاون والمساواة.

وقد اتضح من نتائج البحث أن عدم الإشباع الفكري في العمل المنتج بالمجتمع الكبير، يمثل مشكلة نفسية في حياة المرأة المصرية أكثر حدةً من عدم الإشباع الجنسي.

وهذا أمر طبيعي في حياة الإنسان (امرأةً أو رجلًا)؛ لأن الإنسان حيوان مفكِّر، والمرأة الذكية المثقفة تحتاج الإشباع الفكري من خلال العمل المنتِج أكثر من غيرها التي لم تحظَ بالثقافة والوعي والذكاء.

إن الكبت الفكري يؤدي إلى كبت جنسي، والبنت التي تُرَبَّى على كبت أفكارها وآرائها تتعوَّد أيضًا على أن تَكبِت رغباتها ومشاعرها، والكبت الفكري طوال سنوات الطفولة والمراهقة يؤدي إلى عقمٍ فكري في الشباب والكهولة، وكذلك الكبت الجنسي طوال سنوات الطفولة والشباب يقود إلى عُقمٍ جنسي (ومعناه برود جنسي) في سن النضوج والكهولة؛ لأن انتشار البرود الجنسي عند الزوجات أحد نتائج الكبت الفكري والجنسي المفروض على البنات منذ الولادة، والكبت الجنسي في مجتمعنا كان يمكن أن يكون أقل خطرًا على صحة البنات والنساء النفسية لو أن الثقافة والإعلام والفنون في مجتمعنا تخضع للقيم الأخلاقية نفسها التي تتحكم في تربية البنات، لكن هذا لا يحدث في مجتمعنا؛ لأن الذي يتحكم في وسائل الثقافة والفنون والإعلام عامةً ليست هي القيم الأخلاقية القائمة على الكبت الجنسي، وإنما هي القيم التجارية القائمة على الربح من وراء عرض أفلام الجنس والرقصات العارية وأجساد النساء وتأوُّهات المطربين والمطربات ليل نهار في الراديو والتليفزيون وعرض الأفخاذ والنهود العارية في صفحات المجلات.

ويصبح على البنت المصرية أن تحلَّ وحدها المعادلة الصعبة؛ عليها أن تتشبع بهذه الأفلام والصور والأصوات الصارخة بالجنس والشبق، وعليها في الوقت نفسه ألا تتأثر بها، وإن تأثرت (وهذا ما يحدث) فعليها أن تُخفي هذا التأثر وأن تتظاهر بشيء آخر، أمَّا أن يتحول هذا التأثر إلى فعل (وهذا أمر طبيعي عند الإنسان السليم نفسيًّا وجسديًّا) فهذه هي الطامة الكبرى التي تقع في حياة البنت، سواء انكشفت أو لم تنكشف، إن انكشافها يقود إلى فضيحة علنية يضيع فيها مستقبل البنت أو حياتها، وإن عدم انكشافها يقود إلى إحساس طاغٍ بالخوف أو الذنب يلازمها طوال حياتها ويسبب لها البرود الجنسي أو العصاب أو ما شابهه، وفي جميع الأحوال لا يؤدي الكبت والتناقضات التي يفرضها المجتمع على البنت إلا إلى التعاسة العامة التي تشعر بها النساء والفتيات من جميع الأعمار، المتزوجات منهن وغير المتزوجات، وقد تُنكر بعض النساء هذه التعاسة، ويتوهمن أنهن سعيدات، لكن المرأة منهن لا تصمد طويلًا أمام الأسئلة التي تجعلها تُعيد التفكير في حياتها وفي سعادتها السطحية، إحدى هؤلاء أقنعتني أول الأمر أنها سعيدة وراضية بزوجها وأطفالها وأسرتها، ولا ينقصها شيء، وحينما بدأت أسألها عن طفولتها تلعثمت بعض الشيء، وحينما سألتها عن طموحها في الحياة قالت إنها دفنتْ هذا الطموح في اليوم الذي تركت فيه الدراسة لتتزوج، وحينما سألتُها عن حياتها الجنسية مع زوجها، وهل تحصل على الإشباع؟ قالت إنها لا تعرف شيئًا عن هذا، ولا تمارس الجنس إلا لتُرضي زوجها، أمَّا هي فيكفيها سعادة أن زوجها لا يتذمر، ولا يشخط كالأزواج الآخرين، ولا يدخِّن، ولا يعربد مع النساء، وهو رجلٌ مستقيم لا يعرف الطريق إلا من مكتبه إلى بيته، وهي تعتبر نفسها زوجة محظوظة بالنسبة لغيرها من الزوجات اللائي يتعرضن للشتم أو الضرب أو الطلاق.

هذه السعادة في علم النفس تشبه سعادة العبيد؛ فالعبد يشعر بالسعادة في اليوم الذي لا يضربه فيه سيده، والخادم يشعر بالسعادة في اليوم الذي لا يشخط فيه سيده، والزوجة تشعر بالسعادة لأن زوجها لا يشتمها ولا يضربها ولا يعربد مع النساء ولا يطلِّقها، وهذا كله لا يمكن أن يُسَمَّى سعادة بالمعنى الحقيقي أو بالمعنى الإنساني، سعادة الإنسان لا يمكن أن تكون سعادة سلبية، لا يمكن أن يسعد الإنسان لأنه لا يتعرض لأذًى معين، ولكن الإنسان يسعد لأنه يفعل شيئًا، وهذه هي السعادة الإيجابية، الإنسان يسعد لأنه يفكر ويعمل وينتج.

بعض الأزواج انزعجوا حينما بدأت عيون زوجاتهم تتفتح، أو أنها كانت مفتوحة من قبل لكنهن كن يعجزن عن إظهار ما يعتمل داخلهن خشية الطلاق أو البهدلة

(كما عبرت إحداهن). وقال لي أحد الأزواج في انزعاج: لقد بدأتْ زوجتي تشعر بالقلق وبدأتْ تشعر بالحنين إلى استكمال دراستها التي قطعتها حين تزوجت، لقد كانت هادئة وراضية بحياتها، ولكنها الآن لم تعُدْ راضية. وسألني بشيء من الغضب قائلًا: هل تعتقدين يا دكتورة أن تحويل الزوجة الراضية إلى زوجة غير راضية أمرٌ مفيد صحيًّا لها؟ وقلت له: نعم بالطبع، وهذه هي إحدى فوائد المعرفة والوعي والثقافة، إن المعرفة هي إثارة عدم الرضا في نفس الإنسان من أجل أن يعمل على تغيير حياته إلى الأفضل، ولولا عدم الرضا لما تقدم الإنسان، ولكانت حياته كحياة الحيوانات. إن الحيوانات لا تشعر بعدم الرضا، ولا تشعر بالقلق؛ ولذلك هي لا تغير حياتها إلى الأفضل، وحياة الحيوانات اليوم هي حياة الحيوانات منذ القِدَم، أمَّا الإنسان فليس كذلك.

وكان هذا الزوج يعارض في أن تعود زوجته لاستكمال دراستها الجامعية رغم أن ظروفها من جميع النواحي كانت تساعدها على استكمال هذه الدراسة، ولم أستطع أن أفهم السبب الحقيقي أول الأمر، لكن الزوجة قالت لي إن زوجها لم يحصل على شهادة جامعية، وإنه يعمل بشهادة متوسطة، لكن دخله الشهري مرتفع بسبب امتلاكه لعزبة بإحدى القرى، وقد أدركت أنه يعارض في استكمالها التعليم خوفًا من أن تحصل على شهادة لم يحصل عليها هو، ولم أعرف حتى اليوم ماذا حدث بعد ذلك، هل رضخت الزوجة وعادت راضية بحياتها وتنازلت عن الأمل الذي لاح لها؟ أم أن قلقها كان شديدًا وإصرارها كان شديدًا ففرضت رأيها وواصلت دراستها؟

وقد لاحظت أن الأزواج ينزعجون حينما يزيد وعي زوجاتهم، وقد يقبَل بعضهم زيادة هذا الوعي بشرط ألا يشتمل هذا الوعي على أي وعيٍ جنسي. وقال لي أحدهم: إن الوعي الجنسي خطر على المرأة، وإن علم الجنس علمٌ غريب على مجتمعنا الشرقي، وإنه أحد العلوم المستوردة من الغرب. وقلت لهذا الزوج إن ابن سينا كان من أوائل العلماء في تاريخ البشرية إن لم يكن الأوَّل الذي بدأ علم الجنس واعترف به، إن رسالة ابن سينا في العشق تُعتبَر أول رسالة علمية مَنحت الحب والجنس دورًا إيجابيًّا، ففي هذه الرسالة تغلَّب ابن سينا لأول مرة على الهوَّة التي تفصل نشاط النفس الحيوانية عن نشاط النفس الناطقة في الإنسان، وبذلك استطاع أن يصل بين طرفي الحب الطبيعي (الجنس) والروحي، وأعطى للجنس دورًا، وجعل حب الجمال الظاهري، أي الحب الجنسي، عونًا على الاقتراب من الله. وابن سينا في هذه الرسالة يطبِّق مبدأه العام في النفس وأجزائها على مشكلة الحب والجنس، وكتب ابن سينا منذ حوالي ألف عام في كتابه الضخم «القانون في الطب» مؤيِّدًا هذا المعنى.

وردَّ الزوج بشيء من الغضب: أنا لا أعرف عن ابن سينا شيئًا أو تاريخ الطب في العالم، ولكني رجلٌ مسلم، والإسلام يتعارض مع تفتيح عيون الزوجات على الجنس؛ فالمرأة لم تُخلق للاستمتاع الجنسي، ولكنها خُلقت لخدمة زوجها والتفاني في خدمة أطفالها، وإذا كانت الزوجات يطالبن باللذة الجنسية في الغرب، فهذا قد يتمشى مع أخلاقهم وأديانهم، ولكنه لا يتمشى مع أخلاقنا وإسلامنا.

وقلت لهذا الزوج إن الإسلام لا يتعارض مع الثقافة الجنسية، بل يدعو إلى الثقافة والعلم والمعرفة في جميع نواحي الحياة، ومنها الحياة الجنسية.

وإن الإسلام لا يوافق على تزويج الفتاة لرجل لا ترغبه، ويعارض الزواج بالإكراه.

وإن الإسلام لا يوافق على أن تستمر الزوجة في الحياة مع زوجها إذا كانت تكرهه، أو إذا لم يكن يرضيها.

وإن الإسلام يعتبر العلاقة الجنسية بين الزوج وزوجته ليس هدفُها الإنجاب فقط، وإنما إرضاء رغبة كلٍّ من الرجل والمرأة، والاستمتاع بالحق الطبيعي في الحياة؛ ولهذا لا يتعارض الإسلام مع فكرة تنظيم الأسرة وتحديد النسل.

وإن بعض فقرات من القرآن والأحاديث النبوية تدرس لبعض نواحي الجنس، وهناك نصوص في الفقه الإسلامي تذكر الأوضاع أثناء الممارسة الجنسية، وهناك إرشادات لكيفية تفادي الحمل أثناء الاتصال الجنسي، وفقرات تشير إلى أن كثرة العيال تسبِّب الفقر والعجز.

وبعض الناس يعتقدون أن ختان البنات جاء مع الإسلام، وهذا اعتقاد خاطئ؛ لأن ختان البنات كان موجودًا قبل ظهور الدين الإسلامي، وحينما ظهر النبي محمد وجد أن هذه العادة موجودة عند العرب، وأدرك بذكائه الفطري ضرر هذه العادة على صحة النساء وسلبها لجزء من قدرة المرأة على الشعور باللذة الجنسية، وجاء في الحديث أن النبي محمدًا قال لأم عطية الخاتنة: «إذا خفضتِ فأشمِّي ولا تنهكي، فإنه أضوأ للوجه وأحظى لها عند الزوج».

يُقال: أشمَّت الخافضة البظر أي أخذت منه قليلًا جِدًّا، وقوله لا تنهكي أي لا تأخذي من البظر كثيرًا، شبَّه القطع اليسير بإشمام الرائحة والنهك بالمبالغة فيه، أي اقطعي شيئًا صغيرًا ولا تستأصليها، وَمِنْ ثَمَّ يجب أن تُوصَى الخافضات بأن يراعين ذلك لدى الخفاضة، فلا يبالغن في قطع البظر، فإن إنهاكه — أي استئصاله — يحرم المرأة لذة الجماع، فلا تحظى عند زوجها.

ومعنى هذا الكلام أن ختان البنات ليس عادة إسلامية، ولا علاقة لها بالدين، فهي عُرفت في مجتمعات متباينة الأديان، وعُرفت في الشرق وفي الغرب، وفي مجتمعات مسيحية، وفي مجتمعات إسلامية، وفي مجتمعات لا دينية، وعُرفت في أوروبا في القرن التاسع عشر، وعُرفت في مصر والسودان والصومال والحبشة وكينيا وتانجانيقا وغانا وغينيا ونيجيريا، وعُرفت في بلاد آسيوية، وفي سيلان وإندونيسيا، وعُرفت أيضًا في أجزاء من أمريكا الجنوبية، وعُرفت أيضًا في عهود قديمة عند بعض قدماء المصريين، وقد قرأتُ أن هيرودوت ذكر شيئًا عن ختان البنت ٧٠٠ سنة قبل الميلاد.

وقد بحثتُ عن دراسة اجتماعية علمية تلقي ضوءًا على سرِّ ممارسة المجتمع لمثل هذه العملية الوحشية على الإناث فلم أجد، لكني وجدتُ في التاريخ عمليات أشدَّ وحشية من الختان، وهي وأد البنات وهن أحياء، وأيضًا عملية إلباس المرأة حزام العفة الحديدي، وعملية غلق أعضاء المرأة الجنسية بالدبابيس والأقفال الحديدية، وهي عملية شديدة البدائية، لكنها تشبه إلى حد كبير الطريقة السودانية في ختان البنات، إذ تُقطع كل أعضاء البنت الجنسية (البظر والشفرتان الداخليتان والخارجيتان)، ثُمَّ يغلق الجرح بقطعة من أمعاء الشاة، ولا تترك إلا فتحة صغيرة جِدًّا (تسمح بدخول طرف الأصبع فقط) من أجل خروج البول ودم الحيض، ويُعاد فتح هذا الجُرح حين تتزوج الفتاة ليتسع لدخول عضو الزوج، ثُمَّ يُعاد فتحه حين تلد الزوجة طفلها، ثُمَّ يُعاد إغلاقه بعد الولادة أو بعد الطلاق من الزوج لتعود عذراء مرة أخرى، ويُحكَم إغلاقها بالخياطة حتى لا يمكن لرجل أن يتصل بها إلا الرجل الذي سيتزوجها، وحينئذٍ يُعاد فتح الجُرح مرة أخرى، وهكذا.

والسؤال الذي يخطر بالذهن هو: لماذا فعل المجتمع مثل هذه العمليات الوحشية ضد المرأة؟ والإجابة عن هذا السؤال هي أن المجتمع أدرك منذ قديم الزمان أن الرغبة الجنسية عند المرأة قوية جِدًّا بطبيعتها، وأنها لو تُركت هكذا بغير تدخُّل من جانب المجتمع فسوف ترفض النساء القيود الأخلاقية الاجتماعية والقانونية والدينية التي تَفرِض على المرأة زوجًا واحدًا، إن نشوء المجتمع الأبوي القائم على الأسرة الأبوية (القائمة على فرض زوج واحد على المرأة وتعدد الزوجات للرجل) ما كان ليقوم أو يستمر إلا بفرض قيود وعمليات صارمة تقلل من طبيعة المرأة الجنسية حتى يمكنها الخضوع لزوجها الواحد، وهذا هو السبب في عداء المجتمع الشديد لرغبة المرأة الجنسية ومقاومته المستمرة لها بأبشع الوسائل؛ إن المجتمع يُدرك أن أي تهاون من جانبه في هذا المجال معناه خروج المرأة من قفص الزواج الحديدي والاتصال برجلٍ آخر، ومعنى ذلك اختلاط النسب واختلاط أطفال

الزوج الشرعي بأطفال رجال غرباء، ومعنى ذلك انهيار الأسرة الأبوية القائمة على اسم الأب فقط.

وإذا عرفنا من التاريخ أن الأب لم يكن حريصًا على معرفة أطفاله إلا من أجل أن يورثهم أرضه، فإننا ندرك أن السبب الرئيسي لنشوء الأسر الأبوية كان سببًا اقتصاديًّا، ومن أجل أن يحمي المجتمع مصالحه الاقتصادية، فإنه يدعمها بالقيم الأخلاقية والدينية والقانونية.

وعلى هذا فإن دراسة التاريخ توضح لنا أن حزام العفة الحديدي وعملية الختان ومثيلاتها من العمليات الوحشية ضد رغبة المرأة الجنسية لم تنشأ إلا لأسبابٍ اقتصادية.

بل إن استمرار مثل هذه العمليات في مجتمعنا حتى اليوم إنما هو أيضًا لأسباب اقتصادية، إن آلاف الدايات والحكيمات والأطباء الذين يُثْرون على حساب عملية ختان البنات لا يمكن إلا أن يقاوموا أي محاولة للقضاء على مثل هذه العادات الضارة.

وفي المجتمع السوداني جيشٌ هائل من الدايات يعشن على هذه العمليات المتكررة، من فتح أعضاء المرأة وإغلاقها في مناسبات متعددة ما بين زواج وولادة وطلاق وزواجٍ مرة أخرى. إن الأسباب الاقتصادية، ومِنْ ثَمَّ الأسباب السياسية، هي التي وراء نشوء واستمرار عادات مثل ختان البنات، وهذا التوضيح هام؛ لأن كثيرًا من الناس يخلطون بين السياسة والدين، وكثير من الناس يعمدون إلى إخفاء الأسباب السياسية والاقتصادية بأسباب دينية حتى يصرفوا الأذهان عن الأسباب الحقيقية، وكثير من الناس يقولون إن الإسلام هو السبب وراء ختان البنات في مصر، وهو السبب وراء الوضع الأدنى للمرأة في البلاد العربية.

لكنني أرى أن سبب التخلف في مجتمعاتنا العربية ليس هو الدين الإسلامي، وإنما هو السلطة السياسية خارج مجتمعاتنا (الاستعمار الأجنبي)، أو السلطة السياسية في الداخل (الحكومات العربية الرجعية المستغلة) أو كلتاهما معًا، ومحاولة تفسير الدين تفسيرًا خاطئًا واستخدامه ليخدم أغراض القهر والخوف والاستغلال.

إن الدين بمعناه العام هو الصدق والمساواة والعدالة والحب والصحة لجميع الناس رجالًا ونساءً، ولا يمكن أن يكون هناك دين يدعو إلى المرض أو تشويه أجساد البنات وقطع بظورهن.

وإذا كان الدين من عند الله، فكيف يمكن للدين أن يأمر بقطع عضو من الجسم الذي خلقه الله؟ المفروض أن الله لا يخلق الأعضاء اعتباطًا، ولا يمكن أن الله يخلق البظر في

جسد النساء ثُمَّ يُنزل على الناس دينًا يأمرهم بقطع هذا البظر، فهذا تناقض خطير لا يقع فيه الله، وإذا كان قد خلق البظر كعضوٍ حساس للجنس وظيفته الأساسية والوحيدة هي الإحساس بلذة الجنس، فمعنى ذلك أن الله قد أباح للنساء اللذة الجنسية وأنها جزء من الصحة النفسية، ولا يمكن أن تكتمل صحة المرأة النفسية بدون اكتمال لذَّتها الجنسية.

إن عددًا كبيرًا من الأمهات والآباء المتعلمين لا يزالون يفزعون من ترك البظر في أجساد بناتهم، وقد قال لي بعضهم إن الختان يحمي البنت من الانزلاق والزلل، وهذا منطق خاطئ؛ لأن الذي يحمي البنت أو الولد من الزلل ليس هو بتر الأعضاء الجنسية وإنما هو الوعي والمعرفة التي تساعد البنت على تحديد هدف ومعنًى في حياتها، والسعي لتحقيق هذا الهدف وهذا المعنى، وكلما زاد وعي الإنسان (امرأةً أو رجلًا) ارتفع هدفه في الحياة إلى المستوى الإنساني والرغبة في تطوير الحياة إلى الأفضل، ولا يقتصر هدفه في الحياة على استخدام أعضائه الجنسية أو ممارسة الجنس. إن أكثر البنات تحرُّرًا (بالمعنى الصحيح للتحرر) أقلُّهن انشغالًا بالجنس؛ لأن عقل البنت منهن يصبح مشغولًا بأشياء أخرى كثيرة في الحياة، أمَّا البنات المكبوتات فلا يشغل رءوسهن إلا الجنس والرجل، وقد وجدتُ أن المرأة الذكية المثقفة بصفة عامة أقل انشغالًا بالجنس عن المرأة الأخرى، لكنها أكثر جرأةً في ممارسته، وهي تنساه بعد الممارسة والشعور بالرضا وتفكر في أشياء أخرى.

إن الجنس في حياة المرأة الذكية المتحررة لا يشغل من حياتها إلا حيزه الطبيعي، أمَّا الجهل والكبت والقيود والتخويف فتجعل الجنس في حياة معظم البنات والنساء يتضخم ويتمدد ليشغل كل حياة المرأة أو الفتاة.

وتدل نتائج البحث على أن الحب مفقود في معظم الحالات بين الزوج والزوجة، ومعنى ذلك أن معظم الأزواج والزوجات محرومون من الحب ومحرومون من الجنس بمعناه الصحيح، ومعنى ذلك أنهم يحاولون تعويض ذلك الحرمان خارج الزواج، ولا شك أن الرقم في هذا البحث الذي يشير إلى نسبة العلاقات الجنسية خارج الزواج أقل من الحقيقة؛ إذ ليس من السهل على الزوجة أن تعترف في مثل هذه البحوث بممارستها الجنسية خارج الزواج، أمَّا الأزواج فإنه من المعروف في معظم المجتمعات (وليس في مجتمعنا فقط) أن لهم علاقاتهم المتعددة خارج الزواج، ويشجعهم على ذلك النُّظُم والقوانين وتقاليد الحضارة الأبوية التي تعطي للرجل وحده الحرية الجنسية.

لقد فشل الزواج بقوانينه الجائرة التي لا تساوي بين الرجال والنساء في تحقيق السعادة للأزواج والزوجات؛ فالسعادة لا يمكن أن تتحقق إلا في ظل المساواة والحب

والحرية، وهذه المبادئ الثلاثة عجز الزواج عن منحها للرجال والنساء، وبالذات النساء؛ ولهذا لم أُدهش حين وجدت أن ٨٥ بالمائة من الزوجات يرفضن الزواج بأزواجهن مرة أخرى لو عادت السنين إلى الوراء.

وقد لاحظتُ أن المرأة غير المتعلمة وبالذات الريفية أكثر رضاءً عن حياتها من المرأة المتعلمة أو التي تعيش في المدينة.

ولا شك أن من ميزات الحياة الريفية ذلك الزواج المبكر الذي يحل مشكلة المراهقين والمراهقات في المدن وما يتعرضون له من كبتٍ نفسي وجنسي، وقوانين أخلاقية متناقضة، وازدواجية في القيم، ومشاكل متعددة. كما أن الحياة الريفية أقل تعرُّضًا من المدن للتناقضات الثقافية والأخلاقية الموجودة في مجتمعنا، والتي تنتقل عن طريق أجهزة الإعلام والأفلام والمجلات والصحف وغيرها.

لكن حياة الفلاحة المصرية بصفة عامة حياة قاسية شقِيَّة، والاستغلال يقع عليها مضاعفًا. والذي يهبط إلى الريف المصري يستطيع أن يرى الفلاحات الكادحات بجلاليبهن السوداء المتربة، وعيونهن الغائرة الحزينة، ووجوههن الممصوصة، وأيديهن وكعوبهن الخشنة المشقَّقة، فيدرك على الفور مدى انسحاق الفلاحة المصرية. والذي يعيش يومًا في بيت من بيوت الفلاحين يسمع صوت الزوج الخشن ينادي زوجته: «يا بت!» أو يرى كفه الخشنة الغليظة التي تسقط فوق وجهها في صفعةٍ قوية لأي خطأ منها، أو صوته الغليظ حين يرتفع غاضبًا لأتفه سبب قائلًا: عليَّ الطلاق بالثلاثة! بالإضافة إلى ما تتعرض له البنت الفلاحة ليلة الزفاف من مهانة التقليد الذي لا يزال سائدًا في الريف المصري، وهو فض بكارة العروس بالأصبع وإظهار الدم على بشكيرٍ للناس، وكم من مآسٍ بسبب العذرية في الريف!

أمَّا النساء العاملات الكادحات في المصانع أو الوظائف والأعمال الدنيا فحياتهن أشد قسوة؛ لأنها تجمع التناقضات والمشاكل جميعًا: مشاكل الريف ومشاكل الحضر، مشاكل التطلع إلى الطبقة الأعلى، مشاكل الدخل الصغير المحدود، مشاكل العمل خارج البيت وداخل البيت، كل ذلك في ظل القوانين نفسها الجائرة التي تحكم النساء جميعًا.

وقد أوضح تعداد ١٩٧٦ أن نسبة العاملات بأجر ٩٫٢ بالمائة من القوى العاملة كلها، لكن هذه النسبة لا تضم الفلاحات وربَّات البيوت اللائي يعملن بغير أجر.

والمرأة الكادحة هي التي تعمل داخل البيت (الطبخ والتنظيف ورعاية الأطفال)، وتعمل أيضًا خارج البيت في حقل أو مصنع أو مكتب أو أي مكان آخر، وتمثل النساء

الكادحات أغلبية النساء في المجتمع المصري، من فلاحات وشغالات وعاملات بالمصانع وموظفات بالمصالح الحكومية والشركات، ومهنيات في مختلف أنواع المهن، هؤلاء اللائي يقمن بأعمال في المجتمع جنبًا إلى جنب مع الرجال، ثُمَّ يَعُدْن آخر اليوم إلى البيت ليخدمْن الأسرة أو الأب أو الزوج والأطفال، وتحُول ظروفهن دون الحصول على خادمات المنازل.

ولا يخفى على أحد الحياة الشاقة المؤلمة التي تعيشها الفلاحات المصريات، وقد اعتدتُ أن أزور قريتي كفر طحلة (قليوبية) كل عام، وأعيش بين الفلاحات من قريباتي ومن أهل قريتي، وأستمع إلى قصص حياتهن المؤلمة، وأشهد نماذج من حياتهن التعيسة، وأقف على مدى ما يسود القرية المصرية حتى اليوم من أفكارٍ متخلفة تحقر المرأة، وخزعبلات وخرافات.

ولا شك أن الفقر أو المشكلة الاقتصادية هي أهم ما في حياة النساء الكادحات، إن السعي وراء لقمة الخبز يمتص حياة المرأة منذ شروق الشمس حتى غروبها، فلا تكاد تجد الوقت لتلتقط أنفاسها، أو تنظر إلى نفسها في المرآة لتعرف أنها امرأة أو رجل، أو تفكر في ذلك الشيء الذي نُطلق عليه اسم الحب أو الجنس.

سألتُ مرةً إحدى قريباتي المتزوجات عن حياتها الجنسية مع زوجها وعما إذا كانت ترضيها أم لا، وتطلَّعتْ إليَّ المرأة الفلاحة بدهشة وقالت: ما إن أضع جسدي المهدود فوق الحصيرة حتى أنام كالقتيل إلى أن أصحو على أذان الفجر.

ونظرتُ إلى هذه المرأة، كانت شابة في الثلاثين، لكنها تبدو في الخمسين، خشنة الملامح، جافة الجسد، سمراء البشرة، سوداء الجلباب، ولديها من الأطفال ثمانية، وسألتها: كيف أنجبتِ هؤلاء الأطفال؟

قالت في حزن: لا أعرف، ولدتُهم كما تلد الجاموسة.

وسألتها: والزواج؟

قالت: الله يلعنه يا دكتورة! نحن هنا في القرية لا نعرف شيئًا، ما إن تكبر البنت مِنَّا ويبرز ثديها حتى يزوجها أهلها لأي فلاح.

سألتها: ألا تذكرين ليلة الزفاف؟

قالت: أذكر أنه أُغلق البابُ عليَّ، وضربني بفلقة الحمارة حتى عضضتُ الأرض، ثُمَّ قفز فوقي وانتهى كل شيء.

وقد لمست الكثير من مشاكل الفلاحة المصرية الاجتماعية والنفسية والجنسية، لكنني أعتقد أن المشكلة الاقتصادية تطغى على جميع المشاكل الأخرى في بعض الحالات النادرة،

حين تصادف المرأة مشاكل حادة بسبب زوج شديد القسوة يذيقها كل ألوان الضرب والعذاب، أو حماة أو ضرَّة (زوجة ثانية لزوجها) تحوِّل حياتها إلى جحيم، أو طلاق يشرِّدها في الطرقات تشحذ لقمة عيشها، أو تفقد صوابها ولا تجد أمامها إلا الزار أو المشايخ أو أهل النصب والاحتيال.

والفلاحة المصرية رغم مشاكلها المتعددة أكثر قوةً وصحةً نفسيةً من المرأة العاطلة بغير عمل داخل البيت أو خارجه.

ولا توجد لدينا بيانات لتحديد نسبة دقيقة للنساء العاطلات، إلا أننا جميعًا نعرف أن هذه الفئة من النساء موجودة في مجتمعنا، وأنها تمثل معظم النساء من الطبقة العالية والطبقة فوق المتوسطة، ونساء الطبقة الجديدة التي تضخمت في السنوات الأخيرة بسبب الثراء السريع مع الجهل والتخلف.

ومعظم هؤلاء النساء يعشن في المدن الكبيرة والمدن الصغيرة، ومنهن من تعلمت تعليمًا عاليًا بالجامعة ثُم لزمت البيت بسبب الزواج أو التقاليد أو عدم حاجة الأسرة إلى مورد اقتصادي إضافي، ومنهن من لم تتعلم على الإطلاق بسبب التقاليد.

على أن السمة الغالبة على هذه الشريحة من شرائح المجتمع المصري أنها أكثر الفئات راحةً من الناحية الاقتصادية (بدليل وجود خدم بالمنزل)، وأن مستواها الاقتصادي أعلى من مستواها الثقافي والحضاري (بدليل وجود المرأة بالبيت، وبدليل شدة التمسك بالتقاليد والعادات القديمة ولو ظاهريًّا).

ومن المعروف في علم المجتمع أن التغيير الاقتصادي يحدث بأسرع من التغيير الاجتماعي أو الثقافي أو الوجداني، فما أسهل على الفلاح المصري بمجرد أن يحصل على بعض المال أن يشتري الثلاجة والراديو أو السيارة، ولكن ما أصعب عليه أن يغيِّر من عاداته وتقاليده ونظرته إلى المرأة، وبالمثل أيضًا ما أسهل على الأسر العالية في مصر أن تشتري أحدث الأجهزة، وتستخدم أحدث الوسائل التكنولوجية في البيت والعمل، بل وترتدي أحدث الملابس من سراويل ضيقة وفساتين قصيرة تكشف عن أفخاذ النساء (الميني جيب) وغيرها من أزياء القرن العشرين، ومع ذلك تظل الأعماق عاجزة عن التخلص من الأفكار المتخلفة وخزعبلات القرن التاسع عشر، وبالمثل أيضًا ما أسهل على المجتمع أن يتحول بالقرارات الاقتصادية وقرارات التأميم من مجتمع إقطاعي أو رأسمالي إلى مجتمع اشتراكي، ومع ذلك تظل الأفكار والمشاعر الوجدانية والتقاليد إقطاعية أو رأسمالية، ويمكن القول إن مجتمعنا المصري مزيج من كل هذه التناقضات والصراعات بين الريف والحضر، بين القديم والجديد، وبين الشرق والغرب، وبين الإقطاع والرأسمالية

والاشتراكية، وتختفي هذه التناقضات أحيانًا، أو تطفو على السطح أحيانًا، لكنها موجودة وتكون ظاهرة عامة عندنا.

ولا شك أن دراسة حياة المرأة المصرية في الأسرة فوق المتوسطة والعالية، وهذه الأسر التي تكون النساء فيها عاطلات أو شبه عاطلات، تعطينا صورة عن جزء من حياة مجتمعنا المصري عامة، كما أنها تعطينا صورة أوضح عن تلك التناقضات التي نعيشها؛ لأن المرأة (بسبب كثرة المحظورات عليها بالنسبة للرجل) أكثر عرضةً للوقوع فريسة التناقضات الاجتماعية.

إن المرأة المصرية في هذه الأسر هي مُستهلِكة فقط (بعكس المرأة المصرية الكادحة أو الفلاحة التي هي مُنتِجة ولا تكاد تستهلك شيئًا)؛ ولهذا فإن الفرق كبير جِدًّا بين هاتين المرأتين فيما عدا أنهما متساويتان في الخضوع للزوج بسبب اعتمادهما الاقتصادي عليه (رغم أن الفلاحة المصرية منتِجة عن طريق عملها في الحقل، إلا أنها تعمل بغير أجر لحساب زوجها وتعتمد اقتصاديًّا عليه). إن نظرة واحدة إلى وجه وشكل المرأة من هذه الطبقات، وإلى وجه وشكل المرأة الفلاحة، تعطينا صورة صارخة للتناقض بين هذه وتلك؛ إن المستهلكة ممتلئة باللحم، وترتدي أفخر الثياب، وتضع على وجهها وجسدها كمًّا هائلًا ثمينًا من المساحيق، في حين تعاني المرأة الفلاحة من النحول وذبول الجسد المرهَق، وتعاني نقصًا شديدًا في التغذية أيضًا، وجلبابها الأسود المُترَب بتراب الحقل، ووجهها الذي لا تغسله إلا بالماء نظرًا لارتفاع سعر الصابون.

ولا شك أن هذا التناقض ليس قاصرًا على النساء، ولكنه يشمل الرجال أيضًا، لكنه أوضح ما يكون في النساء؛ لأن الاستغلال الواقع على النساء يكون مُضاعَفًا، حيث إن البطالة تُفرَض على المرأة، وَمِنْ ثَمَّ يُفرَض عليها أن تكون مستهلِكة فقط، كما أن الفلاحة المصرية تتعرض لاستغلال من زوجها؛ لأن زوجها يسيطر عليها ويشغِّلها كالأجير لحسابه ويستهلك أكثر منها، فهو يعطي نفسه من الطعام والملابس والدخان والمتع ما لا يعطيه لها.

إن جميع النساء اللائي يعملن في البيوت أو الحقول أو المصانع أو المهن المختلفة، جميعهن منتِجات، وجميعهن يستهلكن أقل مما يستهلك الرجل في أُسَرهن، أمَّا هؤلاء النساء العاطلات بغير عمل في البيت أو خارج البيت فهن غير منتجات، ومن اللائي يمكن أن نقول عنهن إنهن مستهلِكات فقط.

وقد يتصور بعض الناس أن بطالة النساء ميزة تعطيهن الراحة، لكن البطالة نوع من أنواع الاستغلال، والبطالة تحرم المرأة من العمل الذي هو ضرورة إنسانية تُحقِّق

به ذاتها، وتحقق به نفعًا للمجتمع، وتَحقُّق الذات يمنح الإنسان سعادةً وذكاءً وتطوُّرًا وإنسانيةً، وتحرم من كل ذلك النساء العاطلات.

ولهذا لا تشعر النساء العاطلات بالسعادة بسبب عدم وجود العمل، وبسبب أيضًا وضع المرأة الأدنى في المجتمع، وإحساس المرأة أنها تابعة وعالة على الرجل.

وإن القانون يمنح الزوج حرية طرد زوجته في أي وقت يشاء؛ ولهذا كله تشعر النساء العاطلات بالفراغ والتعاسة والقلق على مصيرهن ومستقبلهن، ويحاولن تعويض كل ذلك عن طريق الاستهلاك الشَّرِه، وقتل المال في شراء الملابس وأدوات الزينة، وقتل الوقت في الثرثرة والنميمة، واصطناع احتياجات جديدة لمزيد من الشراء والاستهلاك، واصطناع شهوات جديدة للطعام والحلويات والمربات، والممارسات الجنسية أو إنجاب الأطفال.

ورغم الأكل الكثير واللحم الكثير والمساحيق الملونة، إلا أن المرأة العاطلة من هؤلاء حين تغسل وجهها يبدو وجهها شاحبًا بسبب الشقاء الذي تعيشه، وبسبب التناقضات التي تمزقها؛ فهي متخمة لكنها محرومة، وهي مشبعة لكنها فارغة، وهي مكتظة بالشهوات والمتع وهي عاجزة عن الاستمتاع بشيء منها، وهي تقتني الراديو والتليفزيون وتقرأ الصحف والمجلات وتذهب إلى السينما؛ ولهذا فهي تقع أيضًا فريسة التناقضات الثقافية في المجتمع كله، ويصلها حتى سريرها الأفلام الجنسية والرقصات العارية والموضوعات الفنية الرخيصة المشوِّهة لكل الحقائق والمشاعر.

يصل إليها كل ذلك عن طريق أدوات العلم الحديث والقرن العشرين. والمرأة تتلقى كل هذا، وهي هنا أيضًا مستهلكة، هي «منفعلة» فقط، لا تجرؤ على «الفعل» بسبب التقاليد، إنها قد تحفظ عن ظهر قلب النكات الجنسية الرخيصة، وتثرثر مع صديقاتها بكل قصص العشق والغرام، لكنها لا تعيش في واقع حياتها قصة حب حقيقية، وإن عاشتها فهي تعيشها نظريًّا فحسب أو بطريقةٍ مشوَّهةٍ مريضة، وهي تسمع ليل نهار تأوهات المغنيات والمغنين، وفوق الشاشة الكبيرة والشاشة الصغيرة وأغلفة الكتب والمجلات ترى أجمل الأجساد، لكنها لا تجرؤ على رؤية جسدها في المرآة، ولا تجرؤ على الاستمتاع بالجنس، والزوجة من هؤلاء تعاني من الحرمان الجنسي. إن علاقتها بزوجها لا تسبب لها الرضا، وإنما النفور وكراهية الجنس. إن الرضا الجنسي لا يمكن أن يحدث في ظل علاقة غير متساوية، ولا يمكن أن يحدث في ظل تربية صارمة تسبب العُقد، ولا يمكن أن يحدث في ظل تناقضات تسبب المرض النفسي والقلق، كما أن الزواج في معظم هذه

الحالات يتم لأسباب غير الحب الحقيقي، وقد تكون أيضًا حُرمت من العضو الحساس (البظر) بسبب عملية الختان، وفي ظل القيود والمحظورات، فإن الجنس يصبح عملية منفِّرة كريهة يهرب منها الزوجان، ويذهب كل منهما إلى حيث يعرض عن ذلك بطريقة أو بأخرى.

إن مظاهر التعويض نلاحظها على مثل هذه المرأة العاطلة في تقليدها الجنوني، أو جريها وراء الموضات، والتظاهر بالجاذبية الجنسية المتأجِّجة، تعويضًا عن الحاجة الجنسية المكبوتة، أو ذلك النهم الشديد للأكل والاستهلاك الشديد الذي ليس إلا تعبيرًا عن الكبت الشديد والتمزق الشديد بين التناقضات.

ومن أهم نتائج هذا البحث أن أغلبية النساء العاملات، متعلماتٍ وغيرَ متعلمات، لم يتحررن، ولا يعشن حياة أسعد من حياة النساء غير العاملات، وأنهن مرهقات جسديًّا ونفسيًّا بسبب الدورين اللذين يقمن بهما معًا داخل البيت وخارجه، بدون مساعدة الرجل أو المجتمع، إن خروج المرأة للعمل في ظل ظروف وقوانين لا تساوي بين الرجال والنساء في جميع الحقوق والواجبات، لا يؤدي إلا إلى المزيد من استغلال الرجل للمرأة خارج البيت وداخله، بعد أن كان يستغلها في الداخل فقط. إن المرأة الذكية الواعية هي التي ترفض أن يستغلها الرجل؛ ولذلك يزيد تمرد المرأة كلما زاد ذكاؤها وتعليمها، لكن التمرد أو الرفض يسبب لمعظم النساء العصاب، أمَّا القليلات القويات فهن هؤلاء النساء اللائي يحوِّلن الرفض إلى ثورة، أو إلى فعل حقيقي يرفع عنهن الظلم والاستغلال؛ ولهذا لا تُصاب الثائرات بالعصاب؛ فالفعل الحقيقي هو المصدر الوحيد للصحة النفيسة عند الإنسان الذكي الواعي، والفعل الحقيقي معناه العطاء للمجتمع والإيجابية، وليس التلقِّي والسلبية، وكما قال كيركجارد: «إنه من الأفضل أن تعطي عن أن تتلقى، إن التلقي أكثر صعوبةً على النفس من العطاء».

وقال سقراط أيضًا: «لكي تعرف نفسك لا بد أن تفعل»، والفعل هنا هو العمل الحقيقي الخلَّاق، وليس العمل الروتيني الممل الذي يشبه دوران البقرة في الساقية، وكم من النساء يدرن في ساقية العمل سواء داخل البيت أو خارجه، وكم من رجال أيضًا.

كلمة حول علاج المرأة من العُصاب

لعل من أهم مشاكل المرأة أيضًا أنها إذا ما أُصيبت بالعصاب أو أي أزمة أو مرض نفسي فإنها لا تجد أمامها إلا الطبيب النفسي الذي تذهب إليه، فيُشبِع جسدها بالحقن أو الأقراص، أو يوجِّه إلى رأسها الجلسات الكهربية.

ولأن معظم أسباب العصاب وغيره من أمراض المرأة النفسية ليست داخل رأس المرأة أو جسدها، وإنما هي في المجتمع والأسرة والمدرسة والشارع وأماكن العمل؛ لذلك فإن الحقن والأقراص والجلسات الكهربية لا تفيد شيئًا، ولا تعالج المرض من جذوره، وإنما قد تساعد بعض الشيء في تخفيف الألم أو التخدير المؤقت.

إن علاج الأمراض النفسية من جذورها أو بمعنى آخر إزالة أسبابها الحقيقية يُسَمَّى علميًّا باسم الطب الوقائي النفسي، أُسوةً بالطب الوقائي الجسدي الذي يمنع الأمراض العضوية عن الناس قبل أن يُصابوا بها، ولكن الطب الوقائي (سواء كان وقاية من الأمراض العضوية أو الأمراض النفسية) لا يتقدم التقدُّم المطلوب الذي يتناسب مع أهميته البالغة لتحقيق الصحة الجسدية والنفسية للناس، والسبب في ذلك هو أن تقدم الطب الوقائي يتعارض مع مصالح الأطباء ومفهوم مهنة الطب بصفةٍ عامة؛ إن تقدم الطب الوقائي (النفسي والجسدي) معناه عدم حدوث أمراض جسدية أو نفسية، وهذا معناه إفلاس عيادات الأطباء الخاصة.

وحينما دخلتُ كلية الطب (في بداية هذا الدخول) كنت أومن بأن مهنتي في الحياة ستكون الطب؛ فقد كنت أعتقد اعتقادًا راسخًا بأن الطب رسالة إنسانية، وفي اليوم الذي تخرجت فيه من كلية الطب (بعد ٦ سنوات ونصف) كنت قد آمنت بأن مهنتي في الحياة لن تكون بأي حال من الأحوال هي الطب، وأن الاعتقاد بإنسانية الطب ليس إلا حلم مراهقة.

وهمستُ في أذن أحد زملائي بهذا التغيير الضخم الذي حدث لي خلال سنوات الدراسة، فإذا به يصيح بصوتٍ عالٍ: وأنا أيضًا، وكلنا مثلك.

وقد حاولت أن أفهم الأسباب الحقيقية وراء هذا التغيير الذي يحدث للطالب أو الطالبة خلال سنوات الدراسة، فأدركتُ أن هذه الأسباب تنقسم إلى قسمين:

(١) الجو أو المناخ العام الذي يعيش فيه طالب أو طالبة الطب ويستنشق القيم المعوقة لنموه النفسي الإنساني.

(٢) المعلومات التي تدخل رأسه خلال هذه السنوات، والتي تفسد نظرته الشاملة إلى الإنسان كوحدةٍ متكاملة من جسد ونفس ومجتمع.

أمَّا من ناحية الجو العام أو المناخ الذي يعيش فيه طالب الطب، فهو مناخ يدفع بالطالب إلى التطلع إلى عربة أستاذه الطويلة الفارهة، وإلى يافطة عيادته الطويلة، والطريقة التي يضع بها فم سيجاره الذهبي في فمه. لا أنكر أن بعض أساتذتي في الطب كانوا يأتون إلى الكلية راكبين الترام العتيق الذي كان يمشي في شارع القصر العيني، ولكن هؤلاء كانوا قلة قليلة نادرة، وكان معظمهم من أساتذة الطب الوقائي أو الصحة العامة؛ مما يجعل طلبة الطب يربطون بين التخصص في الطب الوقائي وبين ركوب الترام.

وحيث إنَّ أيَّ إنسانٍ مهما كانت طبقته الاجتماعية يكره ركوب الترام البطيء المزدحم، فيبدأ الشعور بالكراهية ينمو في أعماق الطالب تجاه الطب الوقائي، ويعتقد أن التخصص في الطب الوقائي ليس إلا نوعًا من الكوارث التي يجب أن يحصِّن نفسه ضدها وأن يتفنن في أساليب الوقاية منها قبل أن تحدث.

كنت وأنا طالبة أحب قراءة كتب علم النفس والفلسفة والأدب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، وقد أدركت من هذه القراءات أن أسباب الأمراض النفسية (وكثير من الأمراض العضوية أيضًا) تكمن خارج الإنسان؛ أي في المجتمع والبيئة الخارجية، بسبب الفقر والجوع والظلم والقهر والكبت والكذب … إلخ؛ ولهذا أدركتُ أن الطب الوقائي سيكون مصيري وليس الطب العلاجي، وهمستُ بهذه الرغبة في أذن إحدى زميلاتي، فإذا بها تشهق في فزع وكأنني همست لها برغبةٍ جنسية آثمة أو مُحرَّمة، وصاحت: ماذا؟ الطب الوقائي؟ لماذا يا أختي؟ هو أنت فيك عيب أو عاهة؟

كان المناخ الدراسي العام داخل كلية الطب يُرسِّخ في أعماقنا العميقة ازدراء الطب الوقائي، وإحساسًا بأن الاتجاه نحوه أو التخصص فيه لا يمكن أن يحدث لطالبٍ ذكيٍّ

متكامل القوى العقلية والجسمية، وإنما لا بد أن يكون هناك عيب ما فيه يمنعه من الاتجاه نحو التخصصات الطبيعية المشروعة في الطب، والتخصصات الطبيعية المشروعة في الطب هي التخصصات العلاجية، مثل الجراحة وأمراض باطنة ونساء وولادة وصدرية وجلدية وعصبية وتناسلية وعيون وغيرها، أمَّا التخصص في أي فرع من فروع الطب الوقائي فهو جنوح عن الطبيعة وخروج عليها، ولا بد أن يكون ذلك لسببٍ قهري، أمَّا أن يكون اختياريًّا فهذا هو ما لا يقبله أي عقل.

أمَّا عن المعلومات التي تدخل رأس طالب أو طالبة الطب خلال سنوات الدراسة، فهي معلومات لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تؤهل الطبيب أو الطبيبة لمعرفة الأسباب الحقيقية للأمراض النفسية (وكثير من الأمراض العضوية أيضًا)، وإني أعترف بأنني لم أفهم في جسم الإنسان أو نفسه أو بيئته إلا بعد أن تخرجت في كلية الطب، وذلك من احتكاكي بالمجتمع وقراءاتي الخاصة في العلوم المختلفة. إنَّ الدراسة في كلية الطب تفصل الإنسان عن المجتمع، وتجعله جسدًا معزولًا كجسد الفأر الذي يُعزَل في المعمل؛ وبالتالي يجهل معظم الأطباء الأسباب الاجتماعية (وهي الأسباب الحقيقية) للأمراض في أحيان كثيرة (الأسباب الاجتماعية تعني الأسباب الاقتصادية والسياسية بطبيعة الحال).

أمَّا عن نفس الإنسان فهذا هو ما لم يُعرِّفنا به أحد خلال سنوات الدراسة في كلية الطب، اللهم إلا محاضرة أو محاضرتين في السنة الثانية، لا توضح لنا نفس الإنسان بقدر ما تزيدها غموضًا.

ولست أعتقد أنه يمكن لنا أن نعالج الأمراض النفسية (وكثيرًا من الأمراض العضوية) ما لم تُعالَج الأسباب الاجتماعية لهذه الأمراض، وأول خطوات العلاج هي أن نعرف هذه الأسباب الاجتماعية لنعرف كيف نعالجها، ولعلنا قد أدركنا الآن بعض هذه الأسباب، وعرفنا أن عدم المساواة، والكبت، والقيود على الحرية، والخوف، وغيرها من العوامل الاجتماعية التي تتعرض لها البنت منذ طفولتها حتى كهولتها، هي التي تُسبِّب لها العصاب والأمراض النفسية.

ولهذا ليس أمامنا من وسائل العلاج إلا علاج هذه الأسباب، وإزالة التفرقة بين الجنسين، وإزالة الكبت في حياة البنات والنساء، وإزالة القيود التي تمنع البنت والمرأة، وإزالة الخوف الذي يجعل البنت أو المرأة تكذب على نفسها والآخرين، فتصبح عاجزة عن ممارسة الحب الصادق، وتهيئة الظروف والإمكانيات التي تساعد المرأة على العمل المنتج الخلاق، وتحقيق ذاتها كإنسانة لها عقل وليست مجرد جهازٍ تناسلي لولادة الأطفال وإشباع الزوج.

ومن هنا نرى أن علاج النساء يرتبط ارتباطًا وثيقًا بقضية تحرير المرأة، وأن قضية تحرير المرأة ترتبط ارتباطًا وثيقًا بقضية تحرير المجتمع من الأسباب التي تدعو إلى استغلال الإنسان للإنسان، والتفرقة بين البشر، وتمزيق الناس إلى مجموعات فقيرة كادحة يمرضها التعب والجوع والإرهاق والهموم، ومجموعات ثرية مستريحة تمرضها الراحة والفراغ والتخمة، وتمزيق الناس إلى جنسين: جنس أنثوي مقهور، يُمرِضه القهر والخضوع والكبت والخدمة والطاعة العمياء، وجنس ذكري عدواني يمرضه العدوان والبطش والظلم والاستبداد بالرأي.

إنَّ الحكَّام المستبدين يتعرضون بسبب الاستبداد للسادية، تمامًا كما يتعرض المحكومون المستعبدون للماسوشية. إنَّ الاستبداد والاستعباد وجهان لعملة واحدة، وهما يُسبِّبان السادية والماسوشية، ولا يمكن لنا أن نُعالج السادية والماسوشية بالأقراص والحقن والكهرباء، ولكن علاجهما الوحيد هو علاج الاستبداد والاستعباد.

ومن هنا تأتي أهمية عدم الفصل بين العلوم السياسية والعلوم الطبية، أو أهمية ربط السياسة والطب؛ فالسياسة بمعناها الحقيقي لا تعني تدبير المؤامرات أو المناورات، أو لعبة الانتخابات، ولكن أهداف السياسة الصحيحة هي نفسها أهداف الطب الصحيح، وليس هناك أي تعارض بين الطب والسياسة، بل لا يمكن لأحدهما أن ينفصل عن الآخر.

ولعل هذا هو السبب في أن بعض الأطباء والطبيبات حين يدركون هذه الحقيقة يقودهم عملهم الطبي الصحيح (في الأنظمة الاستبدادية) لا إلى الثراء وشراء العمارات والأطيان، وإنما إلى السجون أو إلى المستشفيات النفسية، حيث يتعلمون عن طريق اختلاطهم بالمرضى أو المساجين حقائق الحياة أكثر وأكثر. إن هؤلاء المنبوذين من المجتمع، سواء كانوا مرضى أو مساجين، يمسكون في أيديهم وفي حياتهم كثيرًا من الحقائق التي يخفيها المجتمع، وقد قال غاندي: «من أجل زعزعة نظام الطوائف، يكفي تركيز الجهود على نقطة حساسة في المجتمع: المنبوذين.» وأنا أقول: من أجل زعزعة الاستغلال في المجتمع والأسرة الأبوية، يكفي تركيز الضوء على نقطة حساسة في المجتمع: النساء المريضات بالعصاب.

الجزء الثالث

نماذج

زينب

هي زوجة في الرابعة والعشرين من عمرها، شاحبة الوجه، منكسرة العين، قالت لي إنها خائفة من أن تفقد عقلها، وسألتُها عن مظاهر فقدان العقل التي تخافها، فقالت إنها حين تحتضن طفلتها لترضعها تشعر برغبة في أن تضغط عليها حتى تقتلها، وإنها من شدة هذه الرغبة التي سيطرت عليها أصبحت تخاف من أن ترضع طفلتها، بل أحيانًا ما ترتجف أصابعها حين تلمسها، ومن شدة خوفها من أن تقتل ابنتها أصبحت لا ترضعها ولا تلمسها، وتتركها وحدها تبكي، وقد أخذها زوجها إلى عدد من أطباء النفس، وحصلت على جميع أنواع العلاجات، ابتداءً من الجلسات الكهربية حتى الأقراص المهدئة دون فائدة.

ويتلخص تاريخ حياة زينب في أنها نشأت في أسرة من أب وأم وأربعة من الأبناء والبنات، وكانت هي البنت الكبرى، كان أبوها متوسط التعليم، ويعمل في شركةٍ صناعية كمشرف أو ملاحظ عُمال، ولم يكن مرتب الأب يكفي نفقات الأسرة؛ فكانت الأم تعمل أحيانًا خياطة وتحيك الملابس على مكَنتها بالبيت للأسرة المجاورة، ونشأت زينب على الطاعة واحترام أبيها وأمها، ودخلت المدرسة الثانوية في الحي المجاور (باب الشعرية)، وكان أبوها (وأمها أيضًا) يخاف عليها من صبيان الحي، وخاصة أن إشاعة ترددت في الحارة أن بعض الرجال عثروا على مولود «لقيط» بجوار الجامع، وأنهم سلموه للشرطة، ومن شدة خوف الأب كان يترك عمله أحيانًا ويرافق ابنته إلى المدرسة، وكان يشدد عليها الرقابة ولا يسمح لها بالخروج مع زميلاتها، وكانت زينب لا تعترض على أي أوامر من أبيها.

حصلت زينب على الثانوية العامة، ولم يعطها أبوها فرصة للتفكير في مستقبلها، فإذا به يسعى لتحصل ابنته على وظيفة بالمصنع الذي يعمل به، واعتقد الأب أنه يضرب

عصفورين بحجر واحد، فإن مرتب ابنته سوف يساعده في نفقات الأسرة، كما أن وجودها معه في الشركة نفسها يجعلها دائمًا تحت مراقبته ويطمئنُّ عليها دائمًا.

اشتغلت زينب في مصنع الشركة ثلاث سنوات، لا يزيد عملها على تعبئة بعض الزجاجات وتغليفها، وفي تلك الأثناء حصل أخوها الذي يصغرها بعامين على الثَّانويَّة العامة، وبرغم أنَّ مجموع درجاته كان أقل من مجموع درجاتها، إلا أنَّ الأب شجعه على دخول الجامعة، وفعلًا التحق الابن بكلية العلوم، وكانت زينب تدفع كل مرتبها لأبيها، وكان الأب يعطيها مصروفًا شهريًّا أقل مما يعطي أخاها، وكان يقول لها إن أخاها شاب وطالب جامعي ويحتاج إلى مصروفات أكثر منها.

وكان لزينب ابن خالة تخرَّج حديثًا من كلية الهندسة، وعُيِّنَ في منصب ممتاز (في عَيْن أبيها)، وأحسَّت زينب أن أباها يسعى بكل الطرق لتزويجها من ابن خالتها، وفعلًا استطاع أن يزوجها له، ولم يكن لزينب أن تخالف أي أمر لأبيها، وكان يقول عنها إنها ابنةٌ مثالية.

وبعد الزواج تركت زينب وظيفتها في الشركة وتفرغت لزوجها، الذي كان يعاملها معاملة طيبة بسبب طاعتها وهدوئها.

وتخرَّج أخوها في كلية العلوم، وكان متفوِّقًا فعُيِّن بالجامعة، واشترى سيارة، وأصبح موضع فخر الأب والأم وأفراد الأسرة كلها.

وأنجبت زينب طفلتها الأولى، وبدأت تنتابها حالة الخوف بالتدريج حتى وصلت إلى حالة الخوف التي وصفتها سابقًا، وهو الخوف من أن تقتل طفلتها. وتقول زينب هنا: «تصوري يا دكتورة، أنا أفكر في قتل ابنتي، وقد أنفق زوجي عليَّ الكثير عند الأطباء للعلاج بلا فائدة، والغريب أن أبي يتعاطف مع زوجي، ويقول لي بشدة وقسوة: مرض نفسي إيه وكلام فارغ إيه؟! إن حياتك تتمناها أية امرأة في العالم، لا أدري كيف يمكن لواحدةٍ مثلك أن تكون تعيسة إلى هذا الحد، إن عليكِ أن تسجدي لله شكرًا لأنه منحك أبًا حافظ عليك ثُمَّ زوَّجَك لرجلٍ ناجح طيب هيَّأ لك حياةً مريحة، ماذا تريدين أكثر من ذلك؟»

وتردد زينب لنفسها أمامي: «صحيح يا دكتورة، ماذا أريد أكثر من ذلك؟ إنني يجب أن أكون سعيدة، ولكن لا أدري لماذا أصبحتُ أخاف حتى من السير بمفردي في الشارع.»

وسألتها: لماذا تخافين؟ الإنسان لا يخاف إلا إذا شعر بخطر.

قالت: نعم، أشعر بخطر.

قلت: أين هو الخطر؟

قالت: لا أدري، ولكني أخاف.

سألتها: وماذا قال لك الأطباء النفسيون؟

قالت: قالوا لي إنه ليس هناك خطر في حياتي، ولا في الشارع، عليَّ ألا أخاف، وكتبوا لي الأقراص المهدئة.

وحينما نظرت في عينَيْ زينب بدأت الخوف والذعر، إنها تخاف فعلًا، لكن خوفها ليس لخطرٍ خارجي نراه بأعيننا، ولكن خوفها بسبب خطرٍ داخلي، في داخل نفسها، هذا الخطر لا نراه نحن، وليس واضحًا وضوح سيارة تجري بسرعة في الشارع وتكاد تدوسنا، أو رصاصة منطلقة من مسدس في وجهنا، ولكنه خطر موجود ومحسوس داخل الشخص الذي يعاني منه، ونحن عادةً نقتنع بالخوف الذي يحدث للإنسان بسبب خطرٍ خارجي، نحن لا نقول عن أي شخص إنه مجنون إذا صرخ مذعورًا في الشارع بسبب سيارةٍ مسرعة كادت تدهسه، لكنَّا نقول إن زينب مجنونة لأنها تشعر بالخوف ونحن لا ندري أي خطر حولها.

إن عدم رؤيتنا للخطر لا يعني أن الخطر غير موجود، قد يكون الخطر موجودًا ورؤيتنا هي القاصرة، وهي العاجزة عن رؤيته أو إدراكه.

وهذا هو ما حدث لزينب.

لقد تصور أبوها أن الخطر الوحيد الذي يمكن أن يهدد حياتها هو أن تحمل سِفاحًا (كالأم المجهولة لذلك اللقيط الذي وُجد بجوار الجامع)، ولم يدرك على الإطلاق الخطر من فرض زوج عليها لا تريده ولا تحبه، وتصور أنها يجب أن تسجد لله شكرًا لأنه منحها هذا الأب الذي حافظ عليها ثُمَّ زوَّجها لرجلٍ ناجحٍ طيب، ماذا تريد أكثر من ذلك؟!

وفي رأيي أن هذا الأب كان خطرًا على ابنته كالسيارة المسرعة التي تدهس الإنسان وتدوس على جسده، بل إن خطره كان أشد؛ لأن الخطر الذي يدوس النفس أشد فتكًا بالإنسان من الخطر الذي يدوس على جسده فقط.

وبينما أنا أفكر في هذا؛ سمعت زينب تقول لي: «أتعرفين يا دكتورة كم أتمنى أن أُشفى! كم أتمنى أن يزول عني هذا الخوف! كم أتمنى أن أسير في الشارع كما يسير الناس، وأُرضع ابنتي ككل الأمهات دون أن تراودني فكرة خنقها! إني أتمنى الشفاء بأي ثمن، بأي ثمن. لقد قلتُ لأحد الأطباء: اخلع عيني من رأسي أو اقطع ذراعي وأعطني دواءً يشفيني!»

وصدقت زينب بالطبع؛ فأنا أعرف أن فقدان أي عضو من أعضاء الجسم لا يساوي شيئًا بالنسبة لفقدان النفس؛ ولهذا فإن السيارة التي تدهس شخصًا في الطريق العام

وتقطع ذراعه أو ساقه أو تفقأ عينه، خطرها أقل بكثير من أن يُرزَق الطفل بأبٍ كمثل أبي زينب.

والغريب أننا جميعًا لا نرى خطر هذا الأب. إنه في نظرنا أيضًا أبٌ مثالي؛ فهو لا يسكر، ولا يسهر، ولم يطلِّق زوجته، ولم يعربد، ولم يسرق، ولم يختلس، ولم يبطش، ولكنه كان أبًا يعمل في شركة طول النهار، ويُنفق كل مرتبه على أسرته، يحافظ على أولاده وبناته، ويحميهم من كلام الناس أو السمعة السيئة، ويختار لهم أزواجًا طيبين ناجحين يضمنون لهم الراحة والحماية، مثل هذا الأب في عيوننا جميعًا ليس إلا أبًا مثاليًّا وأبًا مُحِبًّا لبناته وأولاده، ولكن كم من الجرائم تُرتكَب باسم المثالية وباسم الحب! إن ما حدث في حياة زينب هو جريمة قتل. لقد قتلها أبوها، وهي تعيش مع زوجٍ شبه أباها، إنه زوجٌ مثاليٌّ مُحبٌّ لزوجته، إنه لا يسكر ولا يسهر ولا يعربد، وينفق كل مرتبه عليها وعلى البيت والطفلة، ماذا تريد أكثر من ذلك؟ ما الذي يخيفها؟! إن حياتها آمنة تمامًا، خالية من الحوادث والمفاجآت، خالية من التحديات والصعوبات، خالية من التفكير في شيء يحدث؛ لأن شيئًا لم يحدث، لأن حياتها خاوية خالية، كعدم الحياة، كالموت تمامًا، وهنا حدثت الصدمة النفسية لزينب، وتُسَمَّى في علم النفس بصدمة «انعدام المؤثرات في الحياة»، وهي تشبه صدمة الموت، لكن الجسد يظل على قيد الحياة. لقد اكتشفت زينب أن حياتها خاوية تمامًا، وأنها لم تعد تنتظر شيئًا من حياتها؛ فالمستقبل سيكون كالحاضر، كالماضي، ولا شيء سيحدث غير هذا الخواء في حياتها، والاستسلام والطاعة المستمرة لأبيها ثُمَّ لزوجها. إن شيئًا لم يحدث ليغير هذا، وسوف تصبح حياتها لا شيء في المستقبل كما كانت لا شيء في الماضي.

وكانت زينب في أعماقها لا تكف عن مقارنة نفسها بأخيها، الذي أصبح ملء السمع والبصر بتفوُّقه الفكري في الجامعة، وقال لها أحد الأطباء النفسيين الذي ذهبت إليه: إن ذلك بسبب عقدة الحسد الذي تشعر به البنت نحو أخيها الولد بسبب امتلاكه عضو الذكر (أفكار فرويد). لكنها ذُهلت لهذا الرأي، وقالت له إنها لم تطرأ على بالها تلك الفكرة أبدًا، ولكنها تشعر أنها حُرمت من التعليم العالي، وأنها كانت أكثر تفوقًا منه، وكادت أن يكون لها مستقبل أفضل من مستقبله، وإنها تشعر أنه من الظلم أن تُحرَم من طموحها الفكري وأن يشغِّلها أبوها في الشركة وتدفع مرتبها الشهري من أجل أن يدخل أخوها الجامعة ويتعلم هو وينجح ويرقى وتظل هي راكدة في بيت الزوجية الآن.

والغريب أن الطبيب فسَّر رغبتها في قتل طفلتها على أنها نوع من العدوان بسبب الكبت الجنسي الذي تعانيه، وكان هذا الطبيب قد سأل زينب عن علاقتها الجنسية مع

زوجها، فقالت إنها لا تفكر في الجنس على الإطلاق، إذا رغب زوجها فيه فإنها تمارس معه الجنس، وإذا لم يرغب فهي لا تفكر في الموضوع، واستنتج أنها تعاني من البرود الجنسي، وأن هذا البرود هو سبب الاضطراب النفسي الذي تعاني منه.

ولم يدرك الطبيب المعالج أن البرود الجنسي عند زينب ليس إلا نتيجة الموت النفسي والفكري الذي حدث في حياتها، إن الإنسان (امرأةً أو رجلًا) لا يمكن أن يُقتَل فكريًّا ونفسيًّا وتظل رغبته الجنسية صاحية وحدها، متأججة أو مشتعلة بالحياة.

إن النشاط الجنسي في حياة الإنسان جزء من النشاط الفكري والنفسي، ويدركه الموت والبرود لا شك حين يدرك الموتُ والبرودُ النشاطَ النفسيَّ والفكري.

إن خوف زينب من رغبتها المسلطة عليها لقتل طفلتها لم يكن إلا تعبيرًا عن إحساسها بأن هذه الطفلة البنت ستُقتَل مثلها، وستعيش الحياة التي هي تعيشها، وأنها ما دامت ستموت كما هي ميتة فالأفضل لها أن تموت وهي طفلة صغيرة، وقبل أن تتعذب، بدلًا من أن تمر بالمراحل جميعها التي مرت بها.

إن زينب قد أدركت الخطر المحدق بحياة ابنتها؛ هذا الخطر الذي لا يراه معظمنا ومعظم أطباء النفس، لكن زينب قد أدركت الخطر لأنها عرفته وعاشته وعانت منه، ولأنها أيضًا إنسانة ذكية ولها عقل يفكر، لكنها في الوقت نفسه تدرك أن هذا الخطر يملأ الوجود وأنه أقوى منها وأقوى من ابنتها؛ ولذلك فهي تشعر أنَّها لا تمتلك في مواجهة هذا الخطر إلا أن تحمي ابنتها منه، وذلك بأن تخفيها من الوجود تمامًا.

وهذا هو سبب خوفها من السير في الشارع. كانت زينب حين تسير في الشارع تخاف من أن تلقي بنفسها تحت العربات. حينما طلبتُ منها أن تفسر لي ماذا تشعر وهي تسير في الشارع، قالت: أشعر كأنني سأسقط تحت العربات.

وسألتها: كيف تسقطين؟

قالت: لا أدري، ولكني أحس أن قوة خفية تدفعني من الخلف تحت العجلات.

إن هذه القوة الخفية لم تكن إلا رغبة زينب نفسها في أن تقتل نفسها، وهي رغبة منطقية جِدًّا تتمشى مع رغبتها في قتل ابنتها، والخوف الذي تشعر به أيضًا خوف منطقي جدًّا لأنها تحب نفسها وتحمي طفلتها من الموت، وكم يكون شاقًّا على الإنسان أن تضيق به سبل الحياة جميعًا فلا يجد طريقًا يسلكه إلا الموت، أو لا يجد طريقًا يهرب به من الموت إلا الموت ذاته.

وقالت لي زينب بعينين منكسرتين حزينتين جِدًّا: الموت أرحم يا دكتورة مما أنا فيه، ليتني أموت، أعطيني دواءً يميتني ويريحني.

ولم يكن في استطاعتي أن أكتب لها أي دواء. وماذا كنتُ أكتب لها؟ تلك الأقراص الجديدة في الطب التي يسمُّونها أقراص السعادة! إن مثل هذه الأقراص في رأيي تشبه عصا الحاوي حين يرفعها في الهواء ويقول إنها ستتحول إلى عصفور.

لم أكتب لها أي دواء، لكني قابلتها ثلاث مرات، وفي كل مرة كنت أتحدث معها ما يقرب من ساعتين، حاولت معها أن ألقي بعض الضوء على حياتها وأسباب خوفها.

فإن الأسرة التي نشأت بها لم تكن أسرةً ريفية في الريف؛ حيث يكون للنساء نوع من الحرية في الذهاب إلى الحقل والعمل والاختلاط بالناس ذكورًا وإناثًا، ولم تكن من الأسر المثقفة المتحضِّرة نوعًا ما؛ حيث يكون للنساء نوع من الحرية في الذهاب إلى النوادي أو الجامعة أو العمل، ولكنها تلك الأسرة المتوسطة أو تحت المتوسطة التي تعيش في المدن، والتي تسيطر عليها التقاليد المتزمِّتة، والآباء أنصاف المتعلمين الذين هم أشد جهلًا من الجهلاء الذين لا يتعلمون شيئًا ويتصرفون بفطرتهم وطبيعتهم.

ويتصف معظم هؤلاء الآباء، بالإضافة إلى التزمُّت، يتصفون بالتطلع إلى الطبقة الأعلى، بل إن تزمُّتهم الشديد ليس له من سبب سوى تطلعهم الشديد. إن الأب لا يتردد لحظة في التضحية بابنته من أجل الصعود درجة في السلم الاجتماعي، وقد فعل ذلك أبو زينب، لقد استغلها ومصَّ دمها من أجل أن يصعد درجة في المجتمع.

استغلها قبل الزواج حين قطع تعليمها وشغَّلها واستولى على مرتبها، واستغلها باسم الزواج حين باعها لزوج من الطبقة الأعلى؛ كل هذا الاستغلال يحدث في جو من التزمُّت الأخلاقي الشديد، والطاعة العمياء للأب، التي يسمونها في تلك الطبقة احترام الأب.

وسألتُ زينب: كنتِ تحترمين أباك؟

قالت بصوتٍ ضعيف: جِدًّا، لقد عوَّدنا على أن نقف حين يدخل، وأن نُقبِّل يده حين نصافحه.

سألتُها: وأمك؟

قالت: كانت أمي امرأةً طيبة، مكافحة، تشتغل طوال النهار في البيت والطبخ، وبالليل تجلس على الماكينة تحيك الملابس.

سألتها: ماذا كان شعورك نحوها؟

قالت: شعورٌ عادي، لم أكن أحترمها مثل أبي، لكني كنت أشفق عليها، وأحيانًا حين تقف في صف أبي أشعر أني أكرهها.

وسألتها: ألم تشعري بالحب لأحد من الشباب؟

قالت: لا، كنت أخاف من الصبيان، وكان أبي ينبِّهني دائمًا للمحافظة على نفسي، وألا أثق بأي شاب، وفعلًا كنت أشك في أي شاب.

سألتها: والجنس؟

قالت: مع زوجي؟

قلت: هل هناك جنس آخر؟

قالت: لا.

قلت: إذن مع زوجك.

قالت: الحقيقة يا دكتورة أنا لا أحب الجنس، أبي كرَّهَني في جميع الرجال.

سألت: هل أجروا لك عملية الختان؟

قالت: بالطبع، هذا تقليد في العائلة كلها.

سألتها: هل شعرت بالخوف يوم عملية الختان؟

ضحكتْ وقالت: بالطبع، هربت من الداية فوق الدولاب، لكنهم أمسكوني في النهاية.

كانت زينب امرأةً طيبةً هادئة، لم يكن من الممكن لها بعد التربية التي تربَّتها أن تكون امرأةً عنيدة رافضة أو ثائرة على الأوضاع في حياتها.

إن عجزها عن الرفض والتمرد والثورة هو الذي أصابها بذلك العصاب أو حالة الخوف والفكرة المتسلطة التي تخاف منها.

إنها لو استطاعت أن ترفض وأن تثور لتخلصتْ من هذا العصاب، لكن مثل هذه التربية الصارمة المغلَّفة من الخارج بقشرة من الحب تخدع الإنسان وتوهمه أن كل شيء على ما يُرام، وأنه ليس هناك سبب يجعله يثور، وتمضي السنينُ على هذا النحو، ولا يفيق الإنسان إلا على صدمة الموت، واكتشاف الحقيقة المرة، أنه فقد نفسه وأنه مات، وهو على قيد الحياة، كما حدث لزينب. إن الحياة القاسية الصعبة الواضحة القسوة أفضل بكثير من هذه الحياة؛ لأن الإنسان يستطيع أن يثور عليها، ويجد الأسبابَ الواضحة التي تجعله يثور مبكِّرًا في حياته قبل أن يستفحل الأمر ويحدث الموت.

إن الموت في حياة الإنسان أنواع متعددة، أحدها هو الموت البيولوجي، وهو موت الجسم، وإن الناس (بالذات الرجال) يحرصون على أن يعيشوا اجتماعيًّا ومهنيًّا وسياسيًّا وبيولوجيًّا أيضًا. إن الموت النفسي هو أن يعيش الإنسان بيولوجيًّا فقط، ويموت في المجالات الفكرية والنفسية والاجتماعية.

إن كثيرًا من الناس يتصورون أن الموت البيولوجي هو الموت الوحيد الذي يمكن أن يحدث لهم؛ ولهذا هم يموتون نفسيًّا وفكريًّا، ولا يُصابون بالعصاب، أو لا يشعرون

بالخطر لأنهم لا يرونه وغير واعين به. إن مرض العصاب ليس إلا «نورًا أحمر» تشعله النفس علامة على الخطر. إن المحظوظين فقط من الناس هم الذين يرون «النور الأحمر»؛ هؤلاء الذين حظوا بقدرٍ كبير من الحساسية والذكاء، والذين ارتفعوا كثيرًا عن مجرد أن يعيشوا بيولوجيًّا، أو يأكلوا ويشربوا ويناموا ويتناسلوا فقط.

وحينما نظرتُ في عينَيْ زينب رأيت الحساسية والذكاء، وأدركت أن زينب لن تُشفى من عصابها وحالة الخوف عندها إلا بأن أؤكد لها أن الخطر موجود فعلًا، وأنها على حق في خوفها، وأنها لكي تُنقذ نفسها من الموت المحدِق بها لا بد أن تعيش فكريًّا ونفسيًّا واجتماعيًّا، وذلك عن طريق العمل.

ولمعتْ عيناها ببريقٍ خاطف، وقالت: «يا ريت يا دكتورة، يا ريت تشوفي لي شغل، أنا أريد أن أعمل.» وطلبتُ من زينب أن تبحث عن أي عمل لها، وأنا بدوري سأساعدها، وفعلًا وجدتْ زينب عملًا في إحدى الشركات التجارية. لم يكن هو نوع العمل الفكري الذي تريده، لكنها زارتني بعد بضعة شهور، كانت مرحةً نشيطة، وأدركتُ أنها اجتازت الأزمة بنجاح، وقالت لي زينب بحماس: «إن عملي روتينيٌّ مملٌّ يا دكتورة، لكني اشتريتُ بكل ماهيتي كُتُبًا وبدأتُ أقرأ ...»

وسكتت لحظة ثُمَّ قالت بشيء من التردد والخجل: «وقد بدأت أكتب أيضًا ...»

وسألتها: ماذا كتبتِ يا زينب؟

قالت بخجل: قصيدة شعر.

سألتها: ولماذا تخفضين صوتك هكذا؟ هل كتابة الشعر عملية مخجلة؟

قالت: لا يا دكتورة، لكني وأنا تلميذة بالمدرسة الثانوية كتبتُ قصيدة شعر وأخفيتُها بين كتبي، لكن أبي عثر عليها، فقد كان يفتش كتبي من حين إلى حين، وحين قرأها مزَّقها وأمرني بأن أذاكر فقط وألَّا أُشغل ذهني بالأمور الفارغة.

وضحكت زينب وهي تناولني قصيدتها، وقالت: «هذه القصيدة ليست جيدة يا دكتورة، لكني سأكتب أخرى، إني أشعر بالراحة وأنا أكتب.» وقرأتُ قصيدة زينب، كانت أفضل في رأيي من كثير من القصائد التي أقرؤها منشورة في بعض المجلات والصحف، وقلتُ لها: إنها قصيدة جيدة يا زينب، وسأساعدك على نشرها في إحدى المجلات.

وهنا صاحت زينب من شدة الفرح: صحيح يا دكتورة! صحيح يا دكتورة القصيدة أعجبتك؟!

قلتُ لها: أفضل من بعض القصائد التي تُنشر في المجلات؛ فلمعتْ عيناها بالسعادة، وتنهدت تنهيدة عميقة، وكأنما تقول لنفسها: أخيرًا ... أخيرًا ... أعثر على نفسي!

وأصبحت زينب صديقة لي حتى اليوم، ولم تعد تشعر بالخوف، وأصبحت تحتضن طفلتها بكل حنان، وفي المرة الأخيرة التي رأيتها فيها قالت لي: تعرفي يا دكتورة، أنا لم أكن أتصور أبدًا أنني سأُشفى.

قلت: أنتِ لم تكوني مريضة يا زينب. أنت كنتِ شديدة اليقظة؛ ولذلك أدركتِ الخطر من حولك ومن حول ابنتك.

قالت: تعرفي يا دكتورة ... أنا سأبذل كل جهدي لأجعل ابنتي تعيش حياة أخرى غير الحياة التي عشتُها. سأوفِّر لها أحسن تعليم، وأحسن كتب، ولن أزوِّجها، ولكني سأتركها هي التي تقرر حياتها بنفسها.

سألتُها: وما رأي زوجك؟

قالت وهي تضحك: إن زوجي رجلٌ طيب يا دكتورة، ليس شديدًا مثل أبي، كما أنه فرح جِدًّا حين شُفيت، ويقول لي دائمًا: اللي أنت عاوزاه اعمليه.

علياء

«علياء» شابة طويلة سمراء، ملامحها حادة قوية، لا يمكن أن تضيع ملامحها من ذاكرة من يراها ولو مرة واحدة، إن عينيها من ذلك النوع الذي يستحوذ على الإنسان، ويفرض عليه أن يحترم صدقها وذكاءها، وإن بلغ أية درجة من الجنون أو الخروج عن المنطق المألوف لأغلبية البشر.

قالت لي وفي صوتها رنَّة خفيفة من السخرية: لم أكن أتصور أنني أدخل عيادة طبيب نفسي في يوم من الأيام. كنتُ شديدة الغرور بإرادتي وقدرتي على تحدي العالم، والتعبير عن نفسي بكل صدق وشجاعة، ولم أكن أتصور أن شيئًا يحطمني، ولكنني أدركتُ أن المرأة لا يحطمها إلا زوجها.

وقاطعتُها قائلةً: «لا أظن أن شيئًا يمكن أن يحطمك، هذا هو إحساسي قبل سماعي لمشكلتك». ابتسمتْ بطريقتها الهادئة الممزوجة بالسخرية الخفيفة وقالت: ولكني محطَّمة فعلًا يا دكتورة، لقد تأكدتُ من ذلك في الأيام الأخيرة؛ فأنا لا أنام إلا بالأقراص المنوِّمة، ولا أصحو إلا بالأقراص المنبِّهة، ولم أعد أطيق أي شيء في حياتي، حتى الكتابة التي كانت المتنفَّس الوحيد لي أصبحتُ عاجزة عنها، وأقدمت على الانتحار عدة مرات، ولا يشغلني الآن سوى اختيار أفضل وسيلة للموت، لقد كنتُ أظن أن الانتحار دليل الضعف، الجبن، الهروب من الحياة، ولكني أعتقد الآن أن الانتحار دليل القوة، والصلابة، ومواجهة الحياة بشجاعة، لم أعد أرى في الحياة شيئًا يستحق أن أعيش من أجله.

تغيرت ملامحها بسرعة، وكَسَتْها مسحةٌ غريبةٌ ومفزعةٌ من الكآبة والحزن، انتقلتْ إليَّ كأنما بالعدوى، فشعرتُ أن قلبي ثقيل، وأخذتُ أُنصِت إليها دون أن أقاطعها.

وقالت علياء بعد أن أشعلت سيجارتها: أخرجني أبي من الجامعة وأنا في السنة الأولى ليزوِّجني من رجلٍ تاجرٍ ثريٍّ، ولكن هذا الرجل طلَّقني بعد سنة ونصف السنة،

أنجبتُ فيها طفلًا، وكان سبب الطلاق أنه نظر في وجه طفله بعد ولادته فأحس أنه ليس ابنه، وأن الطفل لا يشبهه، ودهشتُ لهذا؛ لأني كنت صغيرة (في الثامنة عشرة من عمري)، ولم أكن أعرف أي رجل آخر. قال إنه يشكُّ فيَّ منذ ليلة الزفاف لأنني لم أكن عذراء، دهشتُ أكثر وأكثر؛ لأني لم أكن قد اتصلت جنسيًّا بأي رجل قبل الزواج، وصارح هذا الرجلُ أبي وجميعَ أسرتي بكل شكوكه وأرسل إليَّ ورقة الطلاق، ورفع أبي عليه قضية نفقة لي وللطفل، ولكننا عرفنا أنه صفَّى جميع أعماله التجارية وغادر البلاد إلى كندا ومعه زوجةٌ أخرى، وأصبحت أنا وطفلي نعيش في كنف أبي الذي كان يتذمَّر دائمًا من طفلي وكثرة المصاريف، ويلمِّح لي دائمًا بأن شكوك زوجي ربما كانت حقيقية، لكني كنت أؤكد له دائمًا أن زوجي كان كاذبًا في شكوكه، وأنه تعلل بكل هذه العلل ليطلِّقني في ظل تلك الفضيحة التي تُسهِّل عليه التهرب من دفع النفقة لي وللطفل، حتى يغادر البلاد مع زوجته الأخرى. كانت حياتي أنا وطفلي في بيت أبي جحيمًا ومهانةً، ولم تكن أمي تملك شيئًا ولا إخوتي الستة الصغار، وفكرتُ في أن أعمل بالثانوية وأعول نفسي وطفلي، وكنت أشعر برغبة شديدة للكتابة، وكتبتُ قصة، قرأتُها لإحدى صديقاتي، فأُعجبتْ بها جِدًّا، وشجعتني على أن أحاول نشرها في إحدى المجلات وآخذ عنها أجرًا.

وحصلتُ على عملٍ كتابي بإحدى المؤسسات الصحافية، وبالرغم من أن عملي لم يكن فنيًّا إلا أن جو العمل هيَّأ لي الاتصال ببعض الصحفيين والكُتَّاب، وبدأت أفهم الحياة وأقرأ كثيرًا، وأكتب من حين إلى حين.

ثُمَّ قابلتُ زوجي الحالي، وهو محامٍ، وأحبَّني وأحببته، وتزوجنا منذ خمسة عشر عامًا، وأنجبتُ بنتين، وبذلك أصبح لديَّ ولد وبنتان، صارحتُ زوجي قبل الزواج بكل ما حدث لي في حياتي قبل أن أقابله، وصدَّقني، وطلب مني أن أنسى ما فات، وأن أفكر في المستقبل. وفعلًا فعلت ذلك، وبدأت أعمل من أجل مستقبلي ككاتبة، فقد أحسست أن الكتابة هي مستقبلي الوحيد. وكنت أفرح كلما نُشِرَت لي قصة وحازت إعجاب بعض الناس، ولم يكن ينغِّص عليَّ فرحتي إلا زوجي، الذي بدأتُ أدرك أنه يحاول أن يعطلني عن الكتابة، وكان يتعلل بأن الكتابة تشغلني عنه وعن البيت، لكني عرفت أنه يغار من أي نجاحٍ أدبي أحصل عليه، وبدأ يظهر ضيقه كلما تقدمت في الكتابة وعرفني الناس، وإذا نَشرتْ عني إحدى الصحف خبرًا أو نشرت صورتي فالويل لي في هذا اليوم. إن زوجي لا بد أن يتعمد مشاجرة في البيت لأتفه الأسباب، وكنت أتحمل زوجي لأنني كنت أحبه، وكنت أحب أسرتي وأولادي، ولا أريد أن تتحطم حياتي الزوجية للمرة الثانية. وكان

زوجي يقسو عليَّ كلما تحملته، وكلما تنازلت عن حق من حقوقي من أجل إرضائه طمع في المزيد، وظللتُ على هذا النحو حتى وجدتُني في النهاية قد تنازلت عن كل مستقبلي الأدبي، ولم أعد أكتب، ولم يعد زوجي يجد أي سبب للتشاجر معي، لكني بدأت أشعر بالصداع والأرق، وشعرت بكراهيةٍ لحياتي ورغبة في الموت، وذهبت إلى طبيب نفسي، فأعطاني أقراصًا مهدئة وأقراصًا منومة، ونصحني بأن أحاول الكتابة مرة أخرى، لكني أصبحت عاجزة عن الكتابة، وعاجزة عن التفكير في شيء أو التركيز، كراهيتي لزوجي تزيد يومًا بعد يوم؛ لأني أشعر أنه السبب فيما حدث لي، ولم أعد أشعر معه بأية رغبة عاطفية أو جنسية. وقد اتهمني منذ شهور بالبرود الجنسي، وهددني بأنه سيذهب إلى امرأةٍ أخرى؛ فلم أشعر بأي اهتمام، بل شعرت بشيء من الراحة لأنه سينشغل بامرأةٍ أخرى عني، علاقتي بأولادي لم تتغير كثيرًا، لكني أشعر أنني أصبحت أكثر ابتعادًا عنهم، وأكثر رغبةً في الانطواء على نفسي. وفي إحدى الليالي كنت مؤرقة وأشعر بصداع شديد واختناق، وحينما رأى زوجي حالتي ثار وغضب، وقال إنه لا يعترف بشيءٍ اسمه مرضٌ نفسي، وأنه لا يرى أي سبب في حياتي يدعوني إلى الاكتئاب، وأنني يجب أن أحمد الله لأني عثرت على زوجٍ رضيَ أن يتزوجني رغم الماضي الذي عشتُه، وكدت أصعق من قسوة الكلام الذي قاله لي، والذي أكد لي فيه أنه لم ينس أبدًا ما قلته له، وأنه كان يشك فيَّ أيضًا، وأن من الأفضل لنا أن ننفضَّ، واعترف لي صراحةً أنه تزوج امرأةً أخرى، وفي اليوم التالي أرسل إليَّ ورقة الطلاق.

وسكتت علياء قليلًا لتستريح، ونظرتْ إليَّ في تساؤل قائلةً: ألا ترين يا دكتورة أن هذا الزوج حطمني؟

قلت لها: أنت التي حطمتِ نفسك حين تخلَّيتِ عن الكتابة وهجرتِ الفن الذي كان يعطيك معنًى للحياة.

قالت: ولكني فعلت ذلك من أجل إرضاء زوجي وعدم تحطيم حياتي الزوجية.

قلت لها: ولكن حياتك الزوجية تحطمت رغم ذلك، أليس كذلك؟

قالت: بلى.

قلت: إذن، كان من الأفضل ألا تهجري الكتابة أبدًا؛ إن الكتابة جزء من نفسك، لا تستطيعين أن تعيشي بغيره، أمَّا زوجك فلقد عجزتِ أن تعيشي معه قبل أن تنفصلا رسميًّا بالطلاق، لقد انفصلتِ عنه منذ فقدت رغبتك العاطفية والجنسية نحوه، ولم تكن حياتكما معًا بعد ذلك إلا نوعًا من الطلاق غير الرسمي، وإني أعتقد أن حالتك ستتحسن

كثيرًا بعد هذا الطلاق، وأنك ستعودين إلى الكتابة، وتجتازين هذه التجربة القاسية بنجاح كما اجتزتِ غيرها من قبل.

قالت: لا أظن أنني سأستطيع هذه المرة.

قلت: ستستطيعين يا علياء، أنت نوع من الناس الذين لا يمكن أن تهزمهم الحياة.

تساءلتْ بدهشة: كيف عرفتِ ذلك؟

قلت لها: أرى ذلك في عينيك.

ابتسمت ابتسامةً واهنة، وشدت قامتها بعض الشيء، وقالت: كنت أحس ذلك، ولكن الآن ... أحس أنني تحطمت.

قلت لها: لا شيء قادرًا على تحطيمك ما دمتِ قادرة على الحصول على ورقة وقلم.

وابتسمتْ أكثر إشراقًا وتساءلت: أتظنين أنني سأستطيع أن أكتب مرةً أخرى بعد كل هذا التوقف.

قلت لها: أنت لم تتوقفي يا علياء، لقد كنت تقاومين دائمًا، وهذا الصداع والأرق والتعب النفسي لم يكن إلا نوعًا من المقاومة، إنك لم تستسلمي أبدًا، وسوف تكون كتاباتك أكثر نضجًا وخبرةً بالحياة.

وحينما نهضت علياء وصافحتني أحسست من يدها وهي تشد على يدي كأنها تمدني بشيء، وأنها قادرة على الوفاء، أحسست بهذا العهد.

كاميليا

كاميليا امرأة في الخامسة والعشرين، نشأتْ في أسرة متحررة، لا تفرق في المعاملة بين الولد والبنت، ودخلت كاميليا الجامعة، وتخرجت، واشتغلت بإحدى الوظائف، أحبَّت أحد زملائها في العمل، وبادلها الحب، وتطورت العلاقة حتى بلغت العلاقة الجنسية، شعرتْ بالسعادة معه، ورغبت في الزواج منه، لكنه لم يفاتحها في موضوع الزواج، فبدأت هي بمفاتحته على أساس الحب الذي بينهما، لكنها فوجئت بأنه بدأ يتهرب منها، ثُمَّ قطع علاقته بها تمامًا، وعرفت أنه خطب ابنة خالته وهي بنت في السابعة عشرة.

تغلبتْ على الصدمة النفسية، واستمرت في عملها وحياتها. وفي يوم عرفت من زميلتها أن ابن عمتها وهو مهندس ناجح يريد التقدم للزواج منها، فكرتْ بينها وبين نفسها في الموضوع، وأدركت أنها لا يمكن أن تعيش بغير زواج، كما أدركت أن معظم الرجال لا يتزوجون الفتاة التي تنشأ بينها وبينهم علاقة حب قبل الزواج، وقررت أن تتزوج ابن عمتها، فهو ناجح، وهو يريدها، وهي لا تكرهه، وربما تحبه بعد الزواج، لكن المشكلة أمامها كانت تلك العلاقة السابقة التي حدثت في حياتها، وكانت تعلم أن ابن عمتها لن يسكت إذا اكتشف ليلة الزفاف أنها غير عذراء، سألت إحدى صديقاتها عن حل المشكلة، فأخذتها صديقتها إلى طبيب حيث أجرى لها عملية جراحية بسيطة وأعاد لها عذريتها نظير عشرين جنيهًا.

بدأت كاميليا تستعد للزواج، واشترى لها أهلها الجهاز، وأخذت تسمع كلمات الحب من خطيبها، وكانت تتوقع أنها ستكون سعيدة لكنها بدأت تشعر بالأرق والصداع وآلام في أماكن متعددة في جسمها، وكلما دعاها خطيبها للخروج شعرت برغبة في النوم وعدم الخروج، لم تكن تعرف السبب في تلك الحالة؛ فهي لا تكره خطيبها، وتريد الزواج منه، لكنها لا تستطيع مقاومة حالة الأرق والقلق الذي أصابها، ذهبت إلى أحد أطباء النفس،

فأعطاها أقراصًا منومة ومهدئة، وقال لها إن معظم البنات يشعرن بقلق قبل الزواج؛ بسبب الخوف القديم منذ الطفولة، وأن هذا القلق سيضيع تمامًا بعد الزواج.

وتزوجت كاميليا ابن عمتها، وكانت تتوقع أن يزول عنها الأرق والقلق بعد مرور ليلة الزفاف على خير، ومرت ليلة الزفاف على خير، ومرت ليالٍ أخرى كثيرة على خير، لكن الأرق والقلق ظَلَّا ملازمين لكاميليا، بل زادا، وبدأت تشعر أحيانًا بعدم القدرة على النهوض من السرير والسير، وانتابتها حالات من البكاء الطويل، أو الصمت الطويل، أو الشرود الطويل، وبدأ زوجها يضيق بها بعد أن أخذها لعدد من الأطباء الذين لم يستطيعوا شفاءها.

وسألتُ كاميليا: هل ذكرتِ قصة حبك السابق للطبيب النفسي، وقصة العملية الجراحية وإعادة العذرية.

وقالت كاميليا: لا.

وسألتُها: لماذا؟

قالت: لم أستطع، خشيتُ أن يخطئ الطبيب ويقول لزوجي أو أحد أفراد أسرتي، ثُمَّ إن هذا الموضوع فات على خير، وكان لا بد أن يضيع القلق لو أنه السبب.

قلت لها: لكن القلق لم يذهب، لا بد أن يكون هناك سببٌ آخر.

قالت: نعم، ولكني لا أعرف هذا السبب الآخر، لقد كنتُ مرحة، وكنت أحب الحياة، وكنت مقبلة على أي شيء، كأنني أصبحت واحدةً أخرى غير كاميليا التي كنت أعرفها.

قلت لها: هذا هو سبب القلق، لقد تخليت عن نفسك الحقيقية، وعشت بنفسٍ أخرى مزيفة ليست هي حقيقتك.

قالت: بالضبط، منذ اليوم الذي خرجت فيه من عيادة الطبيب بعد أن أجرى عملية إعادة العذرية، شعرتُ كأنني أضع على وجهي قناعًا وأرتدي شخصية أخرى مزيَّفة.

قلت لها: ولأنك بطبيعتك وبتربيتك إنسانة صادقة؛ لهذا أنت تصارعين هذا الزيف بذلك القلق والعصاب.

قالت بأَسًى: أنا أكره الكذب، وأتعذب أن أكذب، ولكن ليس أمامي طريقٌ آخر وإلا تحطمتْ كل حياتي.

قلت لها: أنت تحطمين نفسك الحقيقية، وتتصورين أن حياتك يمكن أن تظل من الخارج بالشكل الذي يقبله المجتمع.

قالت: الناس يهمها الشكل الخارجي فقط، أَمَّا الداخل فلا أحد يهتم به.

قلت لها: ولكنكِ لستِ من هؤلاء الناس الذين يمكن أن يعيشوا على الكذب، ويرتدون شخصيات أخرى غير حقيقتهم.

قالت: نعم، ولهذا أنا أتعذب.

قلت: لا، هذا العذاب يدل على أن جزءًا من نفسك الحقيقية لا يزال يقاوم، وقد ينتصر يومًا وترفضين الزيف، وقد يُهزَم تمامًا وتعيشين كما يعيش معظم الناس، فأيهما تفضلين؟

قالت في حيرة: لا أدري.

قلت لها: لا أدري، هذا يتوقف عليك، وعلى هدفك من الحياة، إذا كان هدفك من الحياة هو الاستقرار في حياتك الزوجية الحالية بأي شكل وبأي ثمن فسوف ينهزم الجزء الباقي من نفسك الحقيقية بمزيد من الأقراص المهدئة والمنومة، وتشفين من الأرق والقلق، وتقبلين الزيف والكذب كأشياء طبيعية في الحياة، أمَّا إذا كان هدفك هو أن تكوني نفسك الحقيقية، وأن تطوري هذه النفس لتكون أكثر صدقًا وأكثر عظمةً وأكثر نفعًا للمجتمع وتطوره إلى الأفضل، فسوف ينتصر الجزء الحقيقي من نفسك وترفضين الزيف وتخلعين القناع، حتى ولو تحطمت حياتك الزوجية الحالية.

وحين نظرتُ إلى وجهها رأيته شاحبًا، ولم أستطع أن أخمن من شحوبها النتيجة النهائية للصراع في أعماقها.

ويبدو أنها كانت تريد مني أن أحدِّد لها طريقها، فسألتني قائلةً: لو كنتِ مكاني يا دكتورة، ماذا كنت تفعلين؟

وقلت لها: أفضِّل نفسي الحقيقية.

ورأيت ابتسامة لأول مرة على وجهها، وقالت بصوتٍ جديد لم أسمعه من قبل: وأنا أيضًا.

نجوى

فتاة في الحادية والعشرين، طالبة بالسنة النهائية بالجامعة، تعاني من تبوُّل لا إرادي بالليل وبالنهار، وصداع، وبكاء قد يستمر طوال النهار والليل، وهي فتاةٌ ذكية حساسة، متفوقة في دراستها رغم كل هذا، ولم يبقَ أمامها للتخرج سوى بضعة شهور، لكن التبول اللاإرادي يسبِّب لها كثيرًا من الحرج والمشاكل، تشعر أحيانًا برغبة في الانتحار، ولكنها لا تقدم على الفعل. ذهبتْ إلى عدد من أطباء النفس، وأُعطيت أنواعًا مختلفةً من الأقراص دون جدوى. قالت لي إن أحد أطباء النفس الذين ذهبتْ إليهم سألها عن اسمها واسم أبيها وعمله، ثُمَّ شخَّصها فورًا وكتب في أوراقها: اكتئاب وقلق. ودُهِشَت؛ كيف يشخِّص هذين المرضين بعد سؤالين عن اسمها واسم أبيها وعمله، وحينما أبدت اعتراضها على ذلك لأنه لا يعرف عنها شيئًا ولم يفحصها، وأنها لن تأخذ الأقراص التي كتبها لها، صرخ فيها قائلًا: هذا شغلي أنا.

نشأت نجوى في أسرة متوسطة الحال، الأب موظف بشركةٍ (تعليم متوسط)، ولها أخ يكبرها بعامين، ولها أخٌ أصغر وأختٌ واحدة، ماتت أمها وهي في التاسعة من عمرها، وعرفتْ من عمتها وخالتها أن أمها كانت تعيسة في حياتها مع زوجها، وأنها طلبت الطلاق منه ولم يطلقها، وأنها ماتت وهي في الثلاثين من عمرها؛ لمرضٍ ما في قلبها، وعاشت نجوى مع أبيها وأخواتها. وتصف نجوى أباها بأنه رجل شديد القسوة، لدرجة أنه من حين إلى حين يطرد أولاده وبناته في الشارع، ويقول لهم إنه غير ملزم بإطعامهم، ويضطر الأولاد والبنات إلى الذهاب إلى عمتهم أو خالتهم، حيث يتعرضون لقسوةٍ أشد؛ فيعودون إلى أبيهم، وبالطبع فشل الأولاد والبنات في دراستهم ولم يكملوا التعليم، إلا نجوى التي استمرت بسبب ذكائها، لكنها لم تكن تحصل على تقديرات جيدة بسبب أنها تطبخ لأخواتها وتغسل لهم وتخدم الأب أيضًا، الذي كان يعاملها بقسوةٍ شديدة

كأنها خادمة وأقل، وحينما تطلب منه أن يعاملها بهدوء (ودون أن يسبَّها) يقول لها: «أنا تعودت على ذلك، والبنت خُلقت لتَخدُم ولتُسَبَّ، وإذا لم يعجبكِ الحال فالباب واسع والشارع واسع»، وكانت تضطر أن تخضع من أجل أن تستمر في دراستها التي كان يهددها دائمًا بأنه لن يدفع لها المصاريف، مما اضطرها إلى الاستدانة وعمل «قرض» من الجامعة تسدده بعد التخرج.

الأب له شخصية هادئة أمام الناس والأقارب، ولكنه في البيت يصبح شريرًا وقاسيًا، تقول نجوى إنه يتصور نفسه أبًا مثاليًّا لأنه يؤويهم في البيت ويطعمهم.

أُجريت لها عملية الختان وهي طفلة في السادسة من العمر، وكذلك أختها، وكذلك جميع بنات العائلة. مارست نجوى العادة السرية في الطفولة والمراهقة، وتمارسها الآن على فترات متباعدة، تشعر بحنينٍ جارف لحبِّ رجل، لكن مشكلة التبول اللاإرادي تجعلها تخاف، ولم تتصل بأحد من الجنس الآخر سوى بعض المشاعر العاطفية من طرفٍ واحد، من ناحيتها هي فقط.

قسوة الأب على بناته أشد من قسوته على أولاده، ويفرِّق في المعاملة بينهما، ويتحيز للأولاد رغم فسادهم وانقطاعهم عن الدراسة، الأب كان يضرب أولاده وبناته بشدة بالعصا والكرباج، وهم جميعًا يخافون منه، يكذب أمام الناس ويتظاهر أنه يعاملهم برقَّة، وإذا صرَّحَ أحد أولاده أو بناته بما يحدث حقيقةً ضاعف الأب من قسوته عليه أو عليها.

تقول نجوى إنها محاطة بالقسوة والكراهية، من الأب، ومن أخيها الأكبر؛ لأنها تكمل دراستها الجامعية وهو لم يكمل دراسته، يعاملها أخوها بقسوة وكراهية. أختها الصغرى فشلت في دراستها، وأصبحت من أجل أن تحصل على ملابسها تخرج من حين إلى حين مع الرجال، وتأخذ منهم بعض المال، وبالطبع تعرف نجوى عنها كل شيء، لكنها تتظاهر بأنها لا تعرف؛ لأنها تحب أختها وتشفق عليها من أبيها القاسي.

وتسألني نجوى بحيرةٍ: هل يمكن يا دكتورة أن تغير الأقراصُ من ظروفي التي أعيشها؟ ليس أمامي الآن إلا الانتحار.

قلت لنجوى إنها قطَعَتْ شوطًا كبيرًا في دراستها ووصلت إلى السنة النهائية رغم كل ظروفها القاسية، وإنها لو تخرجت واشتغلت وتركت بيت أبيها فسوف تتخلص من كثيرٍ من المشاكل، ولم يكن باقيًا على تخرجها إلا شهران، وطلبتُ منها أن تتحمَّل هذين الشهرين بأي شكل، لكنها قالت لي: كنتُ أتمنى أن يكونا شهرين فقط يا دكتورة، ولكن أبي بعد تخرجي لن يوافق على أن أترك البيت، كما أنني لن أعمل بعد التخرج مباشرةً

وربما أنتظر عامًا كاملًا حتى أجد عملًا، وهذا أيضًا سبب شقائي، ثُمَّ إن أبي بعد أن أحصل على عمل سوف يستولي على مرتبي بالقوة، ولن أتخلص منه أبدًا.

ولم تنجح نجوى في التخلص من التبول اللاإرادي رغم مواظبتها على أدوية الأطباء طوال العامين الماضيين، وكانت تتصل بي من حين إلى حين تليفونيًّا، وتشكو لي من حياتها في البيت، وأنها غير قادرة على المذاكرة، وأن الأقراص التي تأخذها تسبب لها اختناقًا، وتود لو امتنعت عنها، لكن طبيبها يصرُّ على هذه الأقراص.

واختفت نجوى شهرًا أو أكثر، وظننت أنها مشغولة بالامتحانات، لكن صوتها جاءني يومًا من خلال التليفون، وسألتها عن حالتها، فقالت: أبي دخل مستشفى الدمرداش الأسبوع الماضي؛ صدمته عربة وهو عائد إلى البيت ليلًا، ونقلوه إلى المستشفى، وقال لي الطبيب إن الإصابة في العمود الفقري، وأنه أُصيب بشلل في نصفه الأسفل، وسوف يظل راقدًا بقية حياته.

وأحسستُ أنها في حاجة إليَّ، فطلبتُ منها أن تزورني، وجاءت نجوى، ورأيت على الفور أنها تغيرت، وأن شيئًا ما تغير في ملامحها ونظرتها، وسألتها عن صحة أبيها، فقالت إنه نُقل إلى البيت وإنها تخدمه هي وأختها ليل نهار، وإنهما تشفقان عليه كثيرًا؛ فقد أصبح كالطفل الصغير، ولم يعد ينادي نجوى إلا بابنتي الحبيبة نجوى، وأطرقت نجوى إلى الأرض، ومسحت دموعها بمنديلها، لكنها حين رفعت عينيها إليَّ لاحظتُ أن شيئًا تغير فيها.

وسألتها: وكيف حالك أنت يا نجوى؟

قالت: تصوري يا دكتورة، لقد نسيتُ مرضي تمامًا في مرض أبي، لم أعد أشعر بأي صداع أو اختناق.

سألتها: والتبول اللاإرادي؟

قالت: منذ اليوم الذي نُقل فيه أبي من المستشفى إلى البيت لم أبلل فراشي ولا ليلةً حتى اليوم.

سألتها: كيف تعللين ذلك؟

قالت: أنا أحس أنني تغيرت يا دكتورة، منذ رأيت أبي يتحول فجأة من رجلٍ جبار قاسٍ إلى طفلٍ ضعيف يبول في فراشه، ولا يستطيع أن يضع الطعام في فمه إلا بمساعدتي أو بمساعدة أُختي، هذه الصدمة جعلتني أفيق من كل آلامي السابقة، وأن أقف على قدميَّ لأتولى مسئولية الأسرة، خاصةً أن أخي منذ علم بحادث أبي اختفى من البيت ولا نعرف أين ذهب.

وسألتها: وكيف حال المذاكرة؟

قالت بأسًى: لن أدخل الامتحان هذا العام لأني غير مستعدة، ولكني مصممة على التخرج العام القادم لأشتغل وأعول الأسرة، تصوري يا دكتورة إن معاش أبي لا يكفي الشقة، لكن أختي اشتغلت في محل تجاري، وسوف تساعدنا حتى أتخرج.

ليلى

هي موظفة بإحدى الوزارات، ورغم أنها متخرجة في كلية الآداب إلا أنها تعمل عملًا كتابيًّا لا علاقةَ له على الإطلاق بما تعلمته أو بما كانت تطمح في عمله، تعالَج ليلى منذ عام عند أحد أطباء النفس من حالة اكتئاب، ليلى وصفت لي حالتها كالآتي: أصحو من النوم الساعة الخامسة صباحًا لأحضِّر الإفطار لزوجي وأطفالي، ويخرج زوجي إلى عمله، ويذهب الطفلان الكبيران إلى المدرسة، ويبقى الطفل الثالث الصغير معي، وأحمله على كتفي وأسير حتى بيت حماتي على بُعد حوالي كيلومترين من بيتي، وأحيانًا اركب الأتوبيس، ولكني أفضل السير على بهدلة الطفل في الأتوبيس، وأترك الطفل لحماتي التي تتذمر دائمًا من الطفل، وأن صحتها لم تعد تحتمل تربية الأطفال، ويكفيها أنها ربَّت سبعة أولاد من قبلُ. وبعد أن أترك الطفل، أركب الأتوبيس إلى الوزارة، وإن عملية انتظار الأتوبيس والركوب والوصول إلى عملي تستغرق مني على الأقل ساعتين، بالإضافة إلى الإهانة التي أشعر بها وأنا داخل الأتوبيس، وجسدي محشور بين أجساد الرجال، ومعظم الرجال مكبوتون جنسيًّا؛ ولذلك كثيرًا ما أهبط من الأتوبيس قبل وصولي، وأسير بقية المسافة على قدميَّ، وحين أصل إلى عملي أكون منهكة القوى والأعصاب، ويقابلني رئيسي في العمل كل يوم بالتأنيب الشديد؛ لأني أتأخر عن العمل كل يوم تقريبًا، بالإضافة إلى الإجازات المتكررة حين اضطر للبقاء مع طفلي بالبيت إذا مرض، أو إذا مرضتْ حماتي ولم تستطع رعايته في ذلك اليوم، أو إذا مرضتُ أنا وشعرتُ بالإنهاك العصبي أو النفسي الشديد ولم أستطع النهوض من سريري.

بحثت عن خادمة أو دادة للطفل تبقى معه في البيت، وتساعدني في أعمال الطبخ والغسل والتنظيف، ولكني لم أجد، معظم الخادمات الآن يطلبن أجورًا عالية لا أستطيع دفعها، قلت لزوجي ذات يوم إنني سأترك عملي وأتفرغ لأطفالي والبيت والطبخ؛ لأني

لا أستطيع أن أجمع بين كل هذه الأعمال والوظيفة، وبحثنا الموضوع، واتضح لنا أننا لا يمكن لنا أن نعيش بماهية زوجي فقط، فاضطررت إلى الاستمرار في وظيفتي رغم الإرهاق الجسدي والنفسي. زوجي يعود في الرابعة بعد الظهر منهكًا وفي حاجة إلى أن يأكل ويستريح، وأنا أعود قبله بساعة واحدة (الساعة الثالثة)، وفي هذه الساعة رغم إرهاقي أطبخ بسرعةٍ الغداء وأحضر الطعام لزوجي وأطفالي العائدين من المدرسة، حين ينام زوجي بعد الغداء أذهب إلى بيت حماتي لأحضِر طفلي، وفي الليل أجهز العشاء للجميع، وأساعد طفليَّ في المذاكرة، وفي الساعة العاشرة مساءً أو بعد ذلك أضع جسمي في السرير وأنا أشعر بكل أوجاع العالم، ولا ينقذني من أوجاعي إلا النوم، زوجي ينتهي عمله حين يصل إلى البيت الساعة الرابعة، ويأكل وينام، وفي المساء يخرج، ويقول لي إنه ذاهب لزيارة بعض أصحابه، وحين أطلب منه أن يبقى معي في البيت ويساعدني تحدث مشاجرة، ويقول إنه لا يطيق الجلوس في المساء في البيت، وقلت له إنني أيضًا لا أطيق البقاء في البيت والقيام بكل هذا المجهود وحدي، لكنه يقول إن كلَّ الزوجات يعملن في البيوت وكل الرجال يخرجون في المساء، وهذه هي طبيعة الحياة. كنت أشعر ببعض اللذة الجنسية في أول الزواج، لكني الآن، بسبب جسدي المنهك وأعصابي المنهكة، فأنا لم أعد أحتمل الجنس، وأُفضِّل عليه النوم والراحة، ويُظهر زوجي الغضب كثيرًا حين أقول له إنني متعبة، فتحدث مشاجرة، ويرتدي ملابسه ويخرج، ولا يعود إلا قرب الفجر، وأصبحت أضطر إلى تلبية رغبته رغم تعبي، وأصبحت العملية الجنسية عبئًا جسديًّا ونفسيًّا في حياتي، وزادت من أعبائي عبئًا، إنني الآن في الثانية والثلاثين من عمري، ولكني أشعر أنني لم أعد شابة، ولم أعد أجد لذة في أي شيء في حياتي، وأشعر باكتئاب من حين إلى حين، وأحيانًا لا أنام إلا بالأقراص المنومة، وحين سألني الطبيب النفسي عن حياتي الجنسية، وقلت له إنني لم أعد أحب الجنس قال إنني مصابة بالبرود الجنسي، وأعطاني بعض الأقراص والحقن، ولم أشعر بأي تحسُّن، بل زادت حالتي سوءًا، خاصةً أن زوجي أصبح يهملني ويخرج كل ليلة، وأني أحس أنه عرف امرأةً أخرى، وأشعر بقلقٍ شديد خوفًا من أن يطلقني، ولا أعرف ماذا أفعل وحدي بهؤلاء الأطفال الثلاثة. إن حياتي لم تعد تُطاق، وأصبحت أعصابي على وشك الانفجار، وأخشى أن أفقد السيطرة على نفسي تمامًا، وتراودني أفكار تخيفني، منها فكرة الانتحار، والراحة الكاملة في الموت، ولكني أتراجع عن الفكرة حين أفكر في أطفالي، وأن أحدًا لن يرعاهم بعدي، خاصةً أن زوجي من النوع الذي لا يطيق رعاية الأطفال، ويقول إنها مهنة المرأة والرجل غير مسئول عن رعاية الأطفال، مع أن زوجي متعلم ومتخرج مثلي في الجامعة.

وقلت لليلى إن حياتها صعبة بغير شك، وإنها ليست وحدها التي تعاني، وإنما آلاف الزوجات العاملات يعشن الحياة المرهقة التي تعيشها هي، وإن زوجها ليس الرجل الأناني الوحيد الذي لا يزال يرفض مشاركة زوجته أعباء البيت والأطفال برغم أنها تشاركه نفقات البيت، وقلتُ لها إن التعليم لا يعني الثقافة، وكم من رجالٍ متعلمين، ولكنهم غير مثقفين؛ فالثقافة تجعل الرجل فاهمًا لأمور الحياة، مدركًا لدوره الجيد حين يتزوج امرأة تعمل مثله، ويشعر بمسئولية جديدة تجاه البيت والأطفال، تمامًا كما تدرك زوجته مسئوليتها الجديدة تجاه مشاركته في الإنفاق.

ولكن كيف يمكن أن تشفى ليلى من عصابها بتلك الكلمات، إن علاج ليلى لا يمكن أن يكون بكلمات، ولا يمكن أن يكون أقراصًا تُبتلَع، إنها في حاجة إلى دار حضانة بجوار منزلها تترك فيها طفلها، وهي في حاجة إلى مقعد في أتوبيس تجلس عليه بكرامتها لتصل إلى عملها، وهي في حاجة إلى راحة بالبيت بعد العودة من عملها، وإلى شريك يحادثها في المساء أو يخرجان معًا إلى المسرح أو السينما، ولكن هذا كله لا يمكن أن يحدث في حياة ليلى، وفي حياة عددٍ كبير من الزوجات العاملات في مجتمعنا؛ فالمجتمع عندنا لم يخطط بعدُ لأن تعمل النساء؛ ولذلك لم يُنشئ المجتمع دور الحضانة الكافية لأطفال العاملات، ولم يحل مشكلة الأعمال المنزلية والطبخ بوسائل أخرى حديثة أو مؤسسات ترفع عن كاهل المرأة أعباء الغسل والتنظيف والطبخ، ولم تتطور عقلية معظم الأزواج بحيث يساعدون المرأة في أعمال البيت والطبخ والأطفال، والسبب في عدم تطور عقلية الرجل أن التعليم والثقافة العامة والإعلام والصحافة لا تزال في معظمها تنشر الأفكار العتيقة التي لا تناسب إلا نساءً متفرغات في البيوت بغير عمل، فمَن هذه المرأة العاملة التي تستطيع أن تنفذ تعليمات المحررة أو المذيعة المشرفة على ركن المرأة بشأن رسم الحواجب، وتنعيم البشرة، وعروض الأزياء؟ إن المرأة العاملة إذا وجدت المال لشراء هذه الملابس، وهذه المساحيق والدهانات، فلن يكون لديها الوقت، وإذا كان لديها الوقت فلن يكون لديها الجهد بعد كل ذلك الإرهاق الجسدي والنفسي داخل البيت وخارجه. إن الثقافة العامة والإعلام لا تخاطب أغلبية النساء الكادحات والعاملات، ولكنها تخاطب تلك الفئة العاطلة من النساء، والتي لا تعمل خارج البيت، والتي تحررت من العمل داخل البيت بسبب وجود الخادمات والطباخات والمربيات؛ ولهذا يغضب أزواج العاملات حين يرون زوجاتهم مرهَقات غير أنيقات، ويتصورون أن هذا تقصير من الزوجة أو استرجال بسبب عملها؛ ولذلك يتركون بيوتهم في المساء ويذهبون يبحثون عن هؤلاء النساء الأنيقات الناعمات البشرة، اللائي لا يقشرن البصل والثوم، وينسى الزوج منهم أنه كي يتناول غذاءه لا بد

لزوجته أن تقشر البصل والثوم، ولكن معظم الأزواج تعلموا الأنانية منذ الطفولة، وفي المدارس، وفي الشوارع، ومن خلال الكلام الذي يسمعونه في الراديو، أو يقرءونه في المجلات والصحف، ولا يمكن لأمثال ليلى من النساء العاملات أن يتخلصن من أسباب العصاب في حياتهن ما لم يتعلم الذكور منذ الطفولة التعاون مع أخواتهم، ومعنى ذلك أن تكون مساواة المرأة والرجل حقيقة يؤمن بها المجتمع، ويترجمها إلى أفعال، وليست مجرد شعارات أو نظرية داخل أدراج مُغلَقة.

كنت أدرك أن هذا الكلام كله لا يعالج ليلى، ولكن المشكلة ليست مشكلة ليلى وحدها، إنها مشكلة جميع الزوجات العاملات في مجتمعنا، والعلاج هنا ليس علاجًا طبيًّا، ولكنه علاج اجتماعي وسياسي بالدرجة الأولى، وهذا العلاج لن يحدث ما دامت الأغلبية من النساء بعيدات عن العمل السياسي، يتصورن أن العمل السياسي من اختصاص الرجال وحدهم. وبذلك ينفرد الرجال بالسُّلطات في المجتمع، ويصبح إصدار القوانين من عمل الرجال وحدهم، وبالتالي تكون معظم القوانين في صالح الرجل.

وهذا هو السبب في أن كثيرًا من القوانين في مجتمعنا تعدَّلت ما عدا القوانين الخاصة بالمرأة والرجل. لقد تعدَّلَت بعض القوانين التي تُنصف الفئات التي ظُلمت من الشعب مثل الفلاحين والعمال بعض الإنصاف، وأصبح هناك قانون ينصُّ على أن يُمثَّل الفلاحون والعمال في التنظيمات السياسية بـ ٥٠ بالمائة على الأقل، رغم المحاولات العديدة لإجهاض فعالية هذا القانون، أمَّا المرأة التي تمثِّل نصف المجتمع، فلا يمثلها إلا أفراد قليلات يُعددْن على الأصابع، ولا تزال قوانين الزواج والطلاق تظلم المرأة ظلمًا بيِّنًا، وحين تبدأ بعض محاولات لتعديل القوانين يغضب الرجال، ويستخدمون قوتهم لمحاربة التعديل. أمَّا النساء فيتراجعن إلى الوراء؛ لأنهن لا يمثلن أية قوة سياسية يمكن لها أن تفرض التعديل. وينتصر الرجال، وتظل القوانين الظالمة كما هي.

وقد يظن بعض النساء أن النساء المريضات بالعصاب هن فقط اللائي يُعانين من هذا الوضع، وإلى هؤلاء أنقل ما نشرته جريدة الأخبار في ٢٤ مارس سنة ١٩٧٤، كتبت جريدة الأخبار تحت عنوان: ألا من نهاية لهذه المآسي! تقول:

> كيف نجد لهذه المآسي وهذه القصص غير الإنسانية نهاية؟ زوجة شابة ظلت أكثر من عشر سنوات تتردد على المحاكم، وبين مكاتب المحامين، وتفقد راحتها وشبابها ومالها من أجل الطلاق من زوج استعمل حقه في أن يُطلِّق أو لا يُطلِّق بإرادته وحده، مستغلًّا كل الأسباب المشروعة وغير المشروعة ليجعل الزوجة

معلَّقة، لا هي مطلقة ولا هي متزوجة، لا لشيء إلا للكيد والانتقام، وأخرى منفصلة عن زوجها وتعمل في الخارج، وتطلب الطلاق من زوجها، وفي كل مرة تعود إلى مصر لترى أبناءها وأهلها، يجبرها زوجها على دفع مبالغ خيالية من أجل موافقته لها على السفر مرة أخرى، لدرجة جعلها تغيب عن مصر سنوات طويلة وتعيش في الغربة وتقاسي الحرمان من الوطن والأهل والأبناء حتى لا تتعرض من جديد لاستغلال الزوج الجشع الذي لا يستعمل حقه الشرعي من أجل حبه لها وحرصه على الحياة الأسرية معها، وإنما من أجل المال فقط.

ويُقابل هذا النوع من الظلم ظلمٌ آخر، الزوج الذي يطلِّق زوجته بدون أسباب قوية، لمجرد نزوة أو رغبة أو ليتزوج غيرها، ويتركها هي وأطفالها بلا مأوًى وبلا مورد، مدة لا يعلم إلا الله وحده مداها، إلى أن تحكم لها المحكمة بنفقة لا تكفيها هي وأولادها في أغلب الأحيان، وتضيع الزوجة الشابة بين الحاجة وبين إشفاقها على أولادها، ويصبح مصيرها في مهب الريح بين إغراءات الانحراف وبين العذاب والحيرة في البحث عن عملٍ شريف، يصعب عليها إيجاده في ظروفنا الحالية.

وزوجة أخرى أفنت زهرة شبابها بجانب زوجها، تكافح معه وتتحمل شظف العيش من أجل أن يبني مستقبله، وبعد أن تصل إلى السن التي لا تستطيع معها بدء حياة جديدة تجد نفسها بدون عائل، اللهم إلا نفقة سنة واحدة، لا تجد بعدها حتى لقمة العيش، لا لشيء إلا ليتزوج الزوج زوجة أخرى شابة تقاسمه نجاحه الذي صنعته زوجته الأولى وأفنت في سبيله شبابها وحياتها!

أليس هناك نهاية لهذه المآسي التي نسمع عنها، وتحدث حولنا كل يوم، ولا نجد لها حلًّا عادلًا؟!

مديحة

كانت مديحة من أذكى النساء اللائي قابلتُهن في حياتي، وهي تخرجت في كلية البنات (علوم)، واشتغلت مدرِّسة علوم بإحدى المدارس، لكنها كانت تكره وظيفتها، وكانت تحب الرسم، وحوَّلت حجرتها في البيت إلى مرسم، وأقامت معرضًا للَوْحاتها في أحد الأحياء الصغيرة بالقاهرة، تزوجت أحد الرسامين، الذي شعرت نحوه بالحب، أنجبت منه طفلًا، ثُمَّ حدث الطلاق؛ لأن زوجها كان يغار عليها لدرجة الجنون، وحوَّلَ حياتها إلى جحيم، مع أنها كانت تحبه. لم يكن في حياتها رجلٌ آخر، لم تفكر مديحة في الزواج مرة أخرى، وتفرَّغت لعملها الفني وهو الرسم، وحاولت أن تنجح فيه، لكنها شعرت منذ عشرة شهور بأرقٍ وصداع وخفقان في القلب، ذهبت إلى طبيبٍ باطني، فحوَّلها إلى الطبيب النفسي الذي شخَّص مرضها بكلمة «قلق»، وأعطاها بعض الأقراص، لكن حالتها لم تتحسن. وتصف مديحة مشكلتها كالآتي:

إن كل الحياة من حولي تفرض عليَّ أن أكذب، أن أكون واحدة أخرى غيري، أن أكون مزدوجة الشخصية؛ لأن المجتمع من حولي مزدوج الشخصية ومزدوج الأخلاقيات، إن مرضي النفسي وأرقي وقلقي كله سببه أنني عاجزة أن أكون واحدة غيري، كل ما أطلبه هو أن أكون نفسي وحقيقتي، وأن أعبر عن ذلك بالرسم.

ولكنهم يسدُّون أمامي كل الطرق، نصحتني إحدى صديقاتي من الرسامات الناجحات أن أعمل مثلها، وأن أجعل النجاح هدفي (معنى النجاح هنا هو أن يفتتح الوزير معرضي، وتكتب عنه الصحف)، ولكنني أرى النجاح غير ذلك، إنني أحاول أن أقدم فنًّا جيِّدًا رفيعًا يعبر عن حقيقة الإنسان ومشاعره، كما أنني أشعر باحترام لفني، ولا أطيق الانتظار في مكاتب الوزراء وكبار الموظفين. وتقول عني صديقتي إنني لست اجتماعية، ولكن الرسم والقراءة وطفلي ووظيفتي التي آكل منها (وهي التدريس) كل

ذلك يأخذ وقتي، ومع ذلك فأنا اجتماعية ولستُ منطوية على نفسي، أنا أحب الاختلاط بالناس، وبالذات الناس الذين أشعر أنهم صادقون في مشاعرهم وأفكارهم، ولكني لا أطيق هؤلاء الذين يحاولون التزييف أو النفاق، وهذا هو السبب الحقيقي وراء كراهيتي الانتظار في مكاتب الوزراء وكبار الموظفين. صديقتي تقول لي إنني سوف أظل رسَّامة مغمورة لا يعرفها أحد (بمعنًى آخر: رسامة فاشلة)، ولكني عاجزة عن أن أفعل ما تفعله هي، وعاجزة عن أكون شخصيةً أخرى غير شخصيتي، ولكني أشعر بالعزلة وأشعر بالوحدة، وأشعر أن فني لا يصل إلى الناس؛ وأنا لا أرسم كي أتفرج على لوحاتي، ولكني أرسم ليرى الناس لوحاتي. إن الفنان لا يعيش إلا من خلال تفاعل الناس بأفكاره؛ إنني في أشد الحاجة إلى الناس، والوصول إلى توصيل فكرتي إلى الناس يكلفني الكثير، يكلفني أن أتملق السلطة، وأكذب، وأصبح مزدوجة الشخصية. إن السلطة تقف بين الناس والفنان، لا يمكن أن يرى الناس لوحاتي إلا بعد موافقة السلطة، وعن طريق أجهزتها ووسائلها. وظللتُ أرسم بضع سنوات ثُمَّ توقفت، كنت أشعر بالاختناق حين أجلس وأتفرج على لوحاتي المتراكمة وحدي، أو مع صديقتي التي كانت تحب رسوماتي ولكنها تكره انطوائي وابتعادي عن الناس.

بعد طلاقي من زوجي بثلاث سنوات شعرت بالحب نحو رجلٍ آخر، لكننا لم نتزوج، لقد كان نسخة مكررة من زوجي السابق، كان يقول إنه يحبني، لكنه كان يريد أن يملكني امتلاكًا كليًّا بحيث لا أفكر إلا فيه هو: ماذا يأكل؟ وماذا يشرب؟ وماذا يلبس؟ وكيف يتمتع بالجنس والخروج والنزهة؟ كان لا يطيق أن أنشغل عنه بالرسم أو القراءة أو حتى طفلي الصغير، وكان يغار من حياتي الماضية، ومن زوجي السابق، ومن طفلي، ومن لوحاتي، ومن أي شيء يشعر أنني أحبه أو كنت أحبه، وقد أراد هذا الرجل أن يسلخني عن كل هذا، وأن يبعدني حتى عن طفلي الذي لم يكن له أحد يرعاه غيري؛ ولهذا هربت من هذا الرجل ورفضت الزواج به، رغم أنني كنت أشعر نحوه بميلٍ شديد؛ وقد أرهقتني هذه المشكلة نفسيًّا وزادت من أرقي وقلقي، ولم أجد الحل إلا في الأقراص المهدئة والمنومة.

ولم أشعر بالحب بعد ذلك لأي رجل، لقد اكتسبتُ من خبراتي السابقة فهمًا لشخصية الرجل المزدوجة في مجتمعنا، إنه يفكر بطريقة، ويسلك في الحياة اليومية بطريقة أخرى، إنه يتكلم نظريًّا عن المساواة والحب والأخلاق، ولكنه ينتهك في تصرفاته اليومية كل هذه المبادئ. ومضت أربع سنوات إلى الآن دون أن أحب أي رجل، ودون

أن أمارس الجنس؛ لأن الجنس مرتبط عندي مع الحب، إنني أشعر بحنينٍ جارف إلى الحب والجنس، وأشعر كالظمآن الذي لا يجد الماء، مع أنني محاطة بالرجال في وظيفتي، ولكنهم جميعًا من النوع المزدوج الشخصية، وقد قال لي الطبيب النفسي أن أتنازل بعض الشيء عن مبادئي، وأن أعيش كما يعيش الناس، ولكني لا أستطيع؛ إنني لا أستطيع أن أكون مزدوجة الشخصية، ولا أستطيع أن أفقد الحقيقة من أجل أي شيء، وإن كان هو النجاح كرسَّامة أو النجاح كامرأة وزوجة، لكن الفشل الذي أعيشه يرهقني نفسيًّا، وعدم تمكني من عرض لوحاتي على الناس يقتلني، وعدم إشباعي لحاجتي إلى الحب والجنس يرهقني جسديًّا ونفسيًّا، وأنا ما زلت أعيش في هذه الدوامة، والأقراص المهدئة والمنومة لا تفعل لي شيئًا الآن.

وحينما أزيد كمية الأقراص أشعر بقواي الجسمية تخور وتضعف، وأشعر بالاختناق، وأحيانًا بعدم القدرة على النهوض من سريري، وأحيانًا أشك في نفسي، وأظن أن طريقتي في الحياة خاطئة، وأن العيب فيَّ وليس في الآخرين، ولكنني أتذكر طفولتي، وما كان يقوله لي أبي وأمي، وكم كانا يثقان فيَّ وفي ذكائي، وكانا يشجعاني دائمًا على الصدق، وكنت متفوقة في دراستي، وكان أبي وأمي يمنحانني الحرية ويثقان فيَّ، ولم أتعود أبدًا على أن أكذب أو أغير حقيقتي، لدرجة أنني كنت أحكي لأبي ولأمي عن كل ما يحدث لي مع زملائي وزميلاتي، ولم يكن أبي أو أمي يمنعانني من أن يكون لي أصدقاء من الجنسين. وبالطبع لم أتعرض لعملية الختان، وحدَّثتني أمي عن الدورة الشهرية والحيض قبل أن أصل إلى سن البلوغ، وحدَّثتني عن كثيرٍ من الأمور، ومنها العادة السرية، وقد كنت أمارسها قليلًا قبل أن أنام، وخاصة أيام الربيع، حين يصبح الجو دافئًا بعد الشتاء، أو حين أتخيل الرجل الذي أحبه، كنت أصل إلى الأورجازم من هذه الممارسات، وقد وصلت إلى الأورجازم بسهولة مع زوجي أول الأمر، وحين كانت حياتنا لا تزال سعيدة، ولكن حينما أفسدَتْ غيرتُه الشديدةُ حياتنا لم أعد أصل إلى الأورجازم، ولم أعد أحب ممارسة الجنس معه، وتكرر هذا مع الرجل الذي أحببته، أحيانًا أمارس العادة السرية حين يشتد توتري الجسدي والنفسي، وأصل إلى الأورجازم، وأشعر أن التوتر زال عني، لكني أظل أشعر بظمأ إلى الحب والجنس مع رجل أحبه، حينما أرسم أشعر بالراحة، ولكن حينما تظل اللوحة قابعة في ركن حجرتي المظلم أشعر بالاختناق، أنا أحب طفلي، وأشعر بالراحة حين أحتضنه وأُقبِّله وأُطعمه، ولكني أشعر أنه لا يأخذ إلا جزءًا صغيرًا من حياتي، وطاقتي النفسية والفنية، وأشعر برغبة في إفراغ تلك الطاقة في شيء أكبر.

ليست عندي مشكلة اقتصادية؛ لأن مرتبي الشهري بالإضافة إلى مورد آخر صغير من منزل تركه لي أبي يكفيني أنا وطفلي. ليست عندي مشكلة في الوظيفة سوى أنني أشعر بالملل من التكرار، ولا أشعر بلذة في الوظيفة أو تجديد بها، ولكني في حاجة إليها بسبب المرتب الشهري، ولأنني لا أستطيع أن أعيش اقتصاديًّا على الرسم وبيع لوحاتي كما يفعل الرسامون المشهورون.

هذه هي مشكلة مديحة كما عبَّرتْ هي بنفسها عنها، وقد ذهبتْ إلى طبيبين نفسيين للتخلص من الأرق والصداع وحالات الاكتئاب التي تصيبها، أحد الأطباء شخَّصها «قلق» وأعطاها الأقراص اللازمة، والطبيب الثاني حاول أن يقنعها أن المشكلة داخل رأسها هي، وأن العلاج هو اقتلاع هذه المشكلة الوهمية من رأسها عن طريق تغيير كيمياء الدماغ، وذلك عن طريق حقنها بمادة كيميائية معينة سوف تشعر بعدها بالراحة والسعادة وانتهاء المشكلة، ولم تقتنع مديحة بهذا الكلام، لكنها تركت نفسها ليفعل بها الطبيب النفسي ما هو يراه، وفعلًا أخذت جميع العقاقير الكيماوية التي أعطاها لها، ولكن حالتها لم تتحسن، ولم تشعر بالراحة أو السعادة.

والمشكلة كما هي واضحة ليست في رأس مديحة؛ إن عقل مديحة عقل ذكي منذ الطفولة، وهي فنانة وخلاقة، وهي إنسانة طبيعية تمامًا، وسليمة النفس والجسد والعقل، ولكن المشكلة في المجتمع الذي يحوط بمديحة، وعلاج المجتمع لا يكون بالأقراص والعقاقير، ولكن بعلاج المجتمع ذاته من الأساليب التي تفرض على أمثال مديحة الكذب والازدواجية في الشخصية والأخلاق.

سوزان

هي امرأة في الثامنة والعشرين، مثقفة ثقافةً عالية، وبعد تفوقها الجامعي سافرت إلى أوروبا في بعثةٍ دراسية، ثُم عادت واشتغلت في عملٍ فكري تشعر فيه بلذة وعطاء فكري لعدد من الناس. شعرت بالحب لأحد زملائها، وكان يدرس معها في أوروبا، وقد استمر هذا الحب أربع سنوات خلال البعثة الدراسية، وكانت هذه المدة كافية لأن يعرف كلٌّ منهما الآخر معرفة كبيرة، متنوعة، منها المعرفة الفكرية والمعرفة الجنسية، وتقول سوزان: كان رجلًا ذكيًّا متطور الأفكار، وكان يتعامل معي بالمثل، ويحترم حقوقي كإنسانة مثله تمامًا، ويعترف بأننا متساويان في الذكاء والعقل، وكان بيننا أيضًا توافقٌ جنسي كبير بسبب احترامه لإيجابيتي ورغباتي تمامًا كرغباته، ولهذا استمر الحب بيننا أربع سنوات.

وحينما عادا إلى مصر فكَّرا معًا في الزواج، لكنها شعرت أنه متردد في الزواج منها، وبدأت تفهم جوانب جديدة في شخصيته، وأن عودته إلى المجتمع الذي تربَّى فيه، والذي نشأ فيه على تقاليد معينة؛ جعلته يعود إلى الإيمان بهذه التقاليد، خاصةً أنها في صالح الرجل، لكنه كان لا يزال يحبها، وكانت لا تزال تحبه، وبرغم بوادر الخلافات الفكرية التي بدأت بينهما، إلا أن الزواج تم بينهما، واستمر ثلاثة أعوام، ثُمَّ حدث الطلاق بعد أن أنجبت سوزان طفلًا واحدًا، وعند الطلاق كانت حاملًا في الطفل الثاني؛ فلجأت إلى طبيب وأجرى لها عملية إجهاض، وتقول سوزان: «خلال ثلاث سنوات الزواج حاول زوجي أن يغيِّرني لأن أتقبل العلاقة بين الزوج والزوجة على أساس أن الزوج له حقوق وواجبات تختلف عن حقوق وواجبات الزوجة، ولكني لم أستطع ولم أقبل أن أتغير.»

وتحكي سوزان عن أن زوجها لم يعترف لها صراحةً بأنه المسيطر، ولكنه كان يغلف ذلك دائمًا بطريقة أو بأخرى، كأن يقول لها مثلًا: ماذا يقول الناس عني؟ إنهم سيقولون إنني لست رجلًا كي أترك زوجتي تفعل ما تفعلين، ولم تكن هي فعلت شيئًا سوى أنها

تصرفت بطبيعية وتلقائية في وسط مجموعة من الأصدقاء والصديقات، وعبرت عن آرائها في بعض الأمور، أو طلبت من زوجها أن يصنع الشاي للضيوف لأنها منهمكة في النقاش معهم. وتقول سوزان: «في كل مرة يأتي أصدقاء له يطلب مني أن أصنع لهم الشاي، وأصنعه عن طيب خاطر، ولكن حين يأتي أصدقاء لي، وأطلب منه أن يصنع الشاي لهم (بسبب انشغالي معهم) يغضب، فأضطر أن أترك أصدقائي بعض الوقت لأعمل لهم الشاي.»

ولم يكن زوجها يعارض في خروجها إلى العمل بالطبع؛ فعمل المرأة أصبح من القيم الاجتماعية السائدة، ولم يعد يتشكك الناس في رجولة الرجل الذي يوافق على أن تعمل زوجته، بالإضافة إلى أن مرتَّبها كان يُضاف إلى مرتبه في الإنفاق على الأسرة. لقد كان زوجها قادرًا على تقبُّل القيم الاجتماعية السائدة فقط، لكنه كان عاجزًا عن تقبل أي قيمةٍ أخرى غير سائدة، مثل أن يصنع الزوج الشاي لضيوف زوجته، أو أن يرتدي فوطة المطبخ ويغسل الصحون مثلًا، ولم يكن لديهم شغَّالة مستديمة للقيام بالأعمال المنزلية (بسبب النقص في الشغالات عامة، وبسبب عدم وجود وقت عند سوزان أو زوجها للبحث عن شغالة)، وإنما كان يأتيهم طباخ في الصباح، يطبخ الطعام وينصرف، وكان على سوزان أن تعدَّ المائدة وتغسل الصحون، بالإضافة إلى تنظيف البيت. وحين جاء الطفل زادت أعباؤها بالطبع، ولم يكن زوجها يمانع في مساعدتها أحيانًا، لكنه كان يكره هذه الأعمال، وكان يساعدها لبضع دقائق ثُمَّ سرعان ما يملُّ ويكفُّ، ويتركها هي تكمل الجزء الأكبر الباقي.

وتقول سوزان: «كنت أشعر بعدم العدالة، ففي الوقت الذي أشاركه في الإنفاق على الأسرة، وأبذل جهدًا في العمل خارج البيت مساويًا للجهد الذي يبذله في عمله، أجدني في البيت أشتغل أكثر منه، وفي الساعتين اللتين ينامهما بعد الغداء أشتغل أنا في المطبخ وأقوم بغسل الصحون وإزالة التراب من فوق الأثاث.»

لكن أهم ما سبَّب لسوزان حالة الاكتئاب التي أصابتها، والتي قادت إلى الطلاق، هو أن زوجها كان يحاول أن يغيِّر شخصيتها وطبيعتها؛ بحيث تتلاءم مع كونها زوجة له، وأن الزواج مؤسسة أبوية، السلطة فيها للأب، لم يقل ذلك صراحةً لها، وكان يدَّعي أنها مؤسسة قائمة على التعاون بين الزوجين والمشاركة، لكن أعماله كانت تتناقض مع ما يقوله، مثال ذلك أن سوزان كانت من النوع الطبيعي البسيط، سواء في ملابسها أو في تصرفاتها، لم تكن من النوع الذي يزيف وجهه بانفعالات غير حقيقية، أو يغطيه

بطبقات من المساحيق، وكانت مشغولة بعملها الفكري عن الجري وراء الموضات والأزياء الأنيقة من آخر طراز، وكان زوجها على خلاف ذلك، فهو من النوع الذي يحب دائمًا أن يظهر بأحسن مظهرٍ ممكن، وأن ينتمي في مظهره إلى الطبقة العالية، وكان يقول لها إن كل الناس ترتدي أقنعة حين تلتقي في المجتمع، وإنها لا بد أن ترتدي أيضًا القناع، ولكنه كان يخلع قناعه في البيت، ولم تكن سوزان بطبيعتها تميل إلى ذلك، وترى أن تكون دائمًا على حقيقتها، سواء داخل البيت أو خارجه.

وكانت الخلافات بينهما تنشأ أحيانًا لأنها تريد أن ترتدي الملابس المريحة البسيطة التي تحب أن ترتديها، وكان هو يصر على أن يتدخل في ملابسها، ويطلب منها أن ترتدي الملابس الأنيقة اللائقة بزوجة رجل له منصب محترم، وأسرة تنتمي إلى الطبقة العالية، وخاصةً في الحفلات الليلية، حيث تتبارى الزوجات (والأزواج) في الإعلان عن انتمائهم للطبقات العالية. وفي مرة من المرات احتد النقاش بينهما حول الملابس التي كانت سترتديها في إحدى الحفلات. كانت تصر سوزان على ارتداء بلوزة بسيطة وبنطلون، وأصرَّ الزوج على أن ترتدي فستانًا للسهرة كان قد اشتراه في إحدى سفرياته إلى أوروبا، وانتهى النقاش بأن ذهب هو إلى الحفل وحده، ورفضت سوزان إلا أن ترتدي الملابس التي تريدها هي، كانت تقول له إنها لا تتدخل في الطريقة التي يلبس بها، فلماذا يتدخل هو في ملابسها؟ وكانت سوزان تحب بعض الأشياء الصغيرة التي تذكرها بصباها وطفولتها، كأن تشتري قرطاسًا من الفول السوداني مثلًا وتأكله وهي سائرة في الشارع، وكان زوجها يستاء أشد الاستياء، ويقول لها إن مثل هذا لا يليق بوضعها الاجتماعي، وكان يشعر بالحرج حين يراها أحد من أصدقائه أو من أفراد أسرته وهي تتصرف مثل هذه التصرفات، ويقول لها: «ماذا سيقول الناس عني؟» وكانت سوزان تغضب وتقول له: «ما دخلك أنت في هذا؟ إن الناس يجب أن تحكم عليك بتصرفاتك أنت، وتحكم عليَّ بتصرفاتي أنا.» لكنه كان يرد عليها قائلًا: «طالما أنت زوجتي، فإن كل تصرف من تصرفاتك يُنسَب إليَّ أنا.» وتشعر سوزان بالضيق وتقول له: «ولكنك الآن تقيِّدني، أنت تريد مني أن أتصرف وفق ما تريد أنت، وليس وفق ما تريد أنت فحسب، ولكن وفق ما يريده الناس من زوجتك، ومعنى ذلك أن أقلِّد تصرفات جميع الزوجات من طبقتك الاجتماعية، وأن ألغي شخصيتي وطبيعتي تمامًا.»

واعتذرت سوزان لي وهي تحكي عن كثرة الخلافات التي كانت تنشب بينها وبين زوجها بسبب مثل هذه الأشياء التي تبدو صغيرةً جِدًّا وليس لها قيمة، لكن سوزان أكدت

لي أن مثل هذه الأشياء الصغيرة ليست صغيرة وليست تافهة؛ لأنها تحدث كل يوم، ولأنها الحياة اليومية لأي زوج وزوجة، ولأي إنسان. إن من أبسط الحقوق للإنسان أن يرتدي الملابس التي تريحه (بشرط ألا يصدم مشاعر الناس بالملابس الشاذة جِدًّا)، وأن يتصرف بحرية وتلقائية (طالما أنه لا يضر أحدًا).

وتقول سوزان إن زوجها كان يقول لها دائمًا إن كلمة «يضر أحدًا» هذه نسبية؛ فإن عدم قبولها للقيم الاجتماعية السائدة في طبقتهم تضره من حيث إن الناس يقولون عنه إنه زوج غير قادر على السيطرة على زوجته، وهنا تشعر سوزان بالرغبة في الصراخ، وتقول له: ولكني سأضطر إلى تغيير كل صفاتي وكل شخصيتي من أجل أن تتمتع أنت وسط أسرتك ومجتمعك بلقب «الزوج المسيطِر على زوجته»، وتسأل سوزان زوجها هنا: «وأنا، ألم تفكر في الضرر الذي يحدث لي أنا بسبب محاولتك قتل شخصيتي الحقيقية؟» ويرد زوجها قائلًا: «نحن لا نعيش وحدنا، إننا نعيش وسط مجتمع.»

وبهذا شعرت سوزان أن زوجها يريدها أن تخضع لقيم المجتمع السائدة، وكانت هي ترفض هذا الخضوع، وتشعر أنها تخون نفسها وتخون عقلها لو أنها فعلت ما لا تؤمن به، أو ما تشعر بأنه العدالة، وكانت ترى أن العدالة هي أن يكون من حقها أن تتصرف وتلبس وتفكر بما تراه مناسبًا لها.

ومما زاد من شدة الصراع بين سوزان وزوجها أن سوزان نشأت في أسرة متحررة نوعًا ما، وأن أباها كان رجلًا مفكِّرًا متقدمًا لا يفرق في المعاملة بين بناته وأولاده، وكانت سوزان أكبر أخواتها البنات والبنين، وكانت أمها قد توفيت وهي طفلة، فمارست سوزان مسئولية الأم إلى حد ما، وبسبب تحرر أبيها واتساع أُفقه؛ فقد شعرت بشخصيتها، وكانت تتصرف بحرية، وكان أبوها يشجعها على أن تكون طموحة فكريًّا، ساعدها أيضًا ذكاؤها على أن تتفوق في دراستها، ووجدت في مكتبة أبيها الفرصة للقراءة وتوسيع أفقها.

أمَّا زوجها فقد نشأ في أسرة ثرية، والده رجل أعمال وصاحب مصنع، ولا يهمه من حياته إلا الربح المادي بأي شكل، وأمه كانت من الطبقة الأرستقراطية التي تعلمت قليلًا من اللغة الفرنسية وقليلًا من البيانو، ثُمَّ باعها أهلها باسم الزواج لهذا الزوج الرأسمالي الثري، وكان له ثلاث أخوات بنات تعلمن في مدرسة فرنسية، ثُم تزوجن لأزواج أثرياء من أصحاب الأرض وأصحاب المصانع. وهكذا تأثر زوجها بقيم هذه الأسرة الرأسمالية الثرية والجاهلية، والتي تعيش لتأكل أفخر أنواع المأكولات وترتدي أفخر أنواع الملابس، ولا يكون دور النساء فيها إلا الاستهلاك الشديد فقط (كل نساء أسرته ليس لهن عمل

لا داخل البيت ولا خارجه)، أمَّا رجال أسرته فهم مشغولون ليل نهار في مصانعهم وفي تجميع أكبر قدر من الأرباح ورأس المال.

وكان زوج سوزان مختلفًا عن رجال أسرته في أنه تعلَّم تعليمًا عاليًا، وسافر إلى الخارج في بعثات متعددة، وكان متفوقًا في عمله الفكري، ولم يكن يهتم كثيرًا بالمال مثلهم، ولكنه كان متأثِّرًا إلى حدٍّ كبير بقيم أسرته، يقيم وزنًا كبيرًا لكلام أمه، وكانت أمه حين تقارن بين سوزان وبين بناتها من ناحية الأناقة والاهتمام بالبروتوكول الاجتماعي تجد أن ابنها كان يستحق زوجةً أفضل، ولم تكن مثل هذه الأم بطبيعة الحال تُقدِّر أي صفة فكرية في سوزان؛ لأن الزوجة في رأيها لا تُقاس بالفكر وإنما تقاس بالشكل الخارجي والأناقة والجمال، وكانت سوزان مشغولة دائمًا بسبب عملها الفكري وقراءتها، وكانت الأم تغضب من ذلك وتقول لابنها دائمًا: «لقد تزوجتَ رجلًا وليس امرأةً.»

وتبتسم سوزان بمرارة، وتقول إن زوجها كان يتأثر بكلام أمه، وكان على استعداد لتقبل فكرة أنها رجل وليست امرأة لولا تلك العلاقة الجنسية الناجحة بينهما، والتي كانت تؤكد له أن سوزان امرأة، وكان الجنس يلعب دورًا كبيرًا في استمرار الحياة الزوجية بينهما رغم الخلافات الكثيرة للأسباب السابقة وما شابهها.

وتقول سوزان إن نجاح الجنس بينهما كان بسبب أنها كانت إيجابية، وكانت تتصرف معه بحرية، وأنها كانت تحبه، وتشعر أنه يحبها رغم كل الخلافات، وكانت سوزان تصل إلى الأورجازم بسهولة وعدة مرات، ولم تكن تشعر بأي حرج مع زوجها؛ وقد جاء ذلك من تربية أبيها المتحررة لها، ومن اختلاطها المبكر بالجنس الآخر وحياتها في أوروبا سنوات طويلة، وعدم إحساسها بأن اللذة الجنسية إثم أو عيب، وبالطبع لم تتعرض سوزان لعملية الختان، أو التربية الصارمة لقمع شخصية البنت؛ لأن أمها تُوفيت وهي طفلة، ولأن أباها كان متحرِّرًا، ولم يكن يفرض عليها القيود المعتادة.

وتقول سوزان إن زواجها امتد ثلاث سنوات؛ بسبب الحب والثقة والمتبادلة بينهما، وبالرغم من أن زوجها كان يعلم أنه ليس الرجل الأوَّل في حياتها العاطفية والجنسية إلا أنه كان يثق في أنها إنسانة صادقة، ولم يكن يشكُّ فيها أبدًا من هذه النواحي؛ لأنه كان متأكِّدًا من حبها له، وفعلًا كانت سوزان تحبه، ولم تكن من نوع النساء الذي يمكن أن يكذب على الزوج أو على الآخرين؛ كانت تشعر أنها في غير حاجة إلى الكذب، وقد ربَّاها أبوها على أن تكون صادقة دائمًا.

وكانت سوزان، رغم اعتزازها بشخصيتها، على استعداد دائمًا للعطاء والحنان، لكنها لم تكن تؤمن بالتضحية الدائمة من جانب الزوجة والأخذ الدائم من جانب الزوج، كانت

تريد الحياة الزوجية تبادلًا في العطاء والأخذ، لكن ذلك كان مستحيل الحدوث في ظل القيم الاجتماعية السائدة التي تفرض عليها أن تضحي بكل شيء كبير وصغير في حياتها وشخصيتها من أجل زوجها، ولم يكن زوجها (بتربيته وأسرته وعدم قدرته على الصعود فوق القيم السائدة) قادرًا على تحمُّل ما تسببه تصرفات سوزان الطبيعية واعتزازها بحريتها وشخصيتها من حرج ومشاكل بسيطة، لا تزيد عن موضوع الرجولة ومفهومها السائد من حيث السيطرة وحكم الزوجة، وكانت هناك أيضًا الخلافات حول المشاركة في الأعمال المنزلية أو في رعاية الطفل، ومحاولة زوجها إلقاء كل هذه الأعباء عليها وحدها.

أمَّا كيف حدث الطلاق، فتقول سوزان إن الخلافات اليومية أصبحت تزيد بينهما حول اللبس والأكل والطفل والخروج والحفلات وزيارة أسرته، إلى حدٍّ أن ذلك أصبح يؤثر على حبهما وعلى علاقتهما الجنسية. وتقول سوزان: «بعد مشاجرة من هذه المشاجرات حول رأي أمه فيَّ لم أشعر برغبة جنسية في تلك الليلة، لكنه أصر على أن يحدث الجنس ليحدث الصلح ككل مرة، لكني هذه المرة عجزت عن أن أشعر بأية رغبة جنسية نحوه، وحدث الجنس من طرف واحد فقط، وتكرر ذلك، وأصبحتُ شبه باردة جنسيًّا معه، وصارحته بالأمر، وبدأت أشعر أن حياتنا معًا أصبحت مهدَّدة لعدم المشاركة في أي شيء، سوى بعض القراءات والأفكار المشتركة العامة المجردة، لكن حياتنا العملية اليومية أصبحت تتباعد، وأصبحت أشعر بحالات الاكتئاب، وأرق، وقلق، وبدأتُ في ابتلاع الأقراص المنومة والمهدئة، لكن حالتي لم تكن تتحسن.»

وسألتُ سوزان: «فكيف حدث الطلاق؟»

وقالت: «فكرتُ في الطلاق حين وجدت نفسي وحيدة في البيت مع طفلنا وقراءاتي، وأصبح زوجي يخرج ويسهر في بيت أسرته مع مجموعة من الأصدقاء والصديقات، الذين لم أكن أشعر بتجاوبٍ فكري معهم، وأشعر بتفاهة أحاديثهم، وباتصاله المتكرر بأسرته، والجو الاجتماعي الذي يعيشون فيه، أصبح أكثر شَبهًا بهم، وأكثر حرصًا على التكيف مع قيمهم، وبذلك زادت بيننا الخلافات إلى حد أن قلتُ له في يومٍ إن زواجنا لم ينجح، ومن الأفضل أن نواجه الأمر بدلًا من الهروب من الحقيقة.

ووافقني زوجي على ذلك، وتم الطلاق بهدوءٍ شديد، وبالطبع أخذتُ الطفل معي، ولم يطلب هو أن يأخذه.»

وسألتُها: «هل تحسنتْ حالتك النفسية بعد الطلاق؟»

قالت سوزان: «نعم، زال عني الأرق والقلق، لكن ما هي إلا بضعة شهور وأصبحت مواجهة بمشاكل اجتماعية كثيرة؛ هي مشكلة المرأة المطلقة في مجتمعنا، وكان عليَّ أن

أصارع المجتمع مرةً أخرى، ولكن وحدي هذه المرة، وبدأ الأرق يعاودني، وحالات الاكتئاب، ولم أعد أستطيع أن أنام بغير الأقراص المنومة.»

سألتها: «وماذا عن عملك الفكري؟ هل يرضيك؟»

قالت: «لولا عملي الفكري الذي يعوِّضني كثيرًا ويؤكد لي قدرتي؛ لفقدتُ عقلي تمامًا، أو فكرتُ في الانتحار يأسًا من حياتي في مثل هذا المجتمع، لكن الظروف التي أعيشها تعطلني كثيرًا، وتُجهدني؛ فإذا بي في حالة من الإرهاق النفسي تجعلني عاجزة عن إعطاء علمي حقه من التفرغ والإثراء المستمرِّ، وهذا أيضًا يُشقيني ويعذِّبني، ولكني أدور في حلقة مفرغة، وأحسُّ أنني أصارع قوةً ضخمة أكبر مني بكثير، وأحيانًا أتساءل: أليس أبي هو المسئول عن شقائي لأنه عوَّدني على أن أكون مستقلة حرة وصادقة في مجتمع لا يحب في المرأة إلا الكذب والخداع وعدم الاستقلال؟»

وأكَّدتُ لسوزان أنها كانت محظوظة ليكون لها مثْلُ ذلك الأب المتحرر الواسع الأفق، وطلبتُ منها أن تكف عن الأقراص المنومة والمهدئة، وأن تصمم بينها وبين نفسها على الاستمرار في الكفاح من أجل تفوقها في عملها الفكري، وتنمية قدراتها في عملها وفي عطائها الفكري للناس؛ مما ينورهم ويساعدهم على تغيير القيم المتخلفة، وأن تفتح ذراعيها للحياة، وتعيش وتسعد وتتصرف بتلقائية وحرية، وأن ترتدي الملابس التي تريدها، وتصادق الناس الذين تريد أن تصادقهم، وتأكل الفول السوداني كما يحلو لها وهي سائرة في الشارع، وأن تشتري الكتب التي تحبها، وتقرأ وتفكر وتنتج، وتكون الإنسانة الطبيعية الصادقة، وإذا أحبها رجلٌ كما هي فلتتزوج، وإذا أراد أن يضعها في قالبه فلترفض، وليكن زواجها السابق خبرةً كبيرة لها، وتجربةً تساعدها على فهم الحياة والناس، تجعلها أكثر تمسُّكًا بمبادئ الصدق لا العكس.

واختفت سوزان شهورًا طويلة، ثُمَّ قابلتُها صدفة في الطريق، وأحسستُ من نظراتها اللامعة وحركتها النشيطة أنها تغلَّبت على الأزمة، وشدتْ على يديَّ وهي تصافحني، وقالت: «لقد قذفتُ من نافذة حجرة نومي بكل علب الأقراص المنوِّمة، وصممتُ على أن أكون قوية وشجاعة وصادقة، وأن أستعد للسفر مرةً أخرى في بعثة قصيرة إلى غينيا»، وتألَّقت عيناها بالحماس وهي تقول: «هذه أول مرة أزور فيها أفريقيا، وأشعر بشوقٍ كبير لرؤية هذه البلاد.»

وتركتني سوزان واتجهتْ إلى مكتب شركة الطيران، وأحسستُ أن حياتها أصبحت مليئة ومتجددة، وأنها أصبحت تعطي لعملها الفكري اهتمامًا أكبر، وأنها وضعت قدمها

على الطريق، وتخيلتها وهي تلتقي بالرجل الصادق مثلها، الذي يستطيع أن يقدِّر صدقها ويحترمها فتعيش معه، أو أنها لا تعثر عليه أبدًا، فلا تشعر بالفشل أو الاكتئاب، ولا تتعاطى الأقراص المنومة أو المهدئة، ولكنها تجد في عطائها الفكري للناس ما يسعدها، وما يعوِّضها عن أي شيءٍ آخر. والحياة بغير زواج أفضل من الحياة في ظل زواجٍ فاشل وغير سعيد.

فاطمة «أ»

فاطمة في العشرين من عمرها، طالبة بكلية الآداب قسم فلسفة، ذكية، تقضي معظم وقتها في قراءة الفلسفة والتاريخ والأدب وعلم النفس، وتفتح عقلها على مفاهيم جديدةٍ تمامًا عليها، متناقضة تمامًا مع القيم التي تربَّت عليها في أسرتها. كانت أسرتها إحدى أسر الطبقة المتوسطة، أبوها كان مُدرِّسًا للجغرافيا بأحد المعاهد المتوسطة، وأمها في البيت، ولها أربع بنات، كبراهنَّ هي فاطمة، وكان الأب من النوع المتديِّن، الذي ورث التدين عن أبيه كما ورث البيت الذي يعيش فيه، ورغم أنه مُدرِّس، إلا أنه لم يقرأ شيئًا خارج ذلك المقرر المحدود الذي يُدرِّسه للتلاميذ في الجغرافيا، ورغم تدينه الشديد، إلا أنه كان جاهلًا بالدين؛ لأنه لم يقرأ فيه إلا تلك المعلومات الأولية التي يعرفها جميع الناس، والتي لا تساعده إلا على أداء الفرائض، أمَّا حقيقة الدين وجوهره فلم يكن يعرف عنه شيئًا، وكان كمعظم الآباء (وبالذات آباء البنات) متزمِّتًا، يخاف على بناته من الفساد الأخلاقي الذي يعتقد أنه منتشر، والذي يرى مظاهره في الرقصات الخليعة في السينما والتليفزيون، وصور النساء نصف العارية فوق أغلفة المجلات. وقد فرض الأب على ابنته الكبرى فاطمة أن تواظب على الصلاة وهي طفلة في السابعة من العمر. وكان يحذِّرها من الاختلاط بالأولاد، وكانت فاطمة تلميذة مجتهدة في المدرسة الابتدائية، لكنها كانت ضعيفة جِدًّا في الحساب، فأتى لها أبوها بمدرس للحساب في البيت (وهو أحد زملائه المدرسين في المعهد)، وكان هذا المدرس يشرح لها الحساب، لكنها كانت تحس أصابعه أحيانًا فوق فخذها، وأحيانًا تصعد أصابعه إلى فوق، ومن شدة الخزي والحياء والخوف كانت تستسلم لأصابعه استسلامًا كاملًا، وأحيانًا تشعر باللذة التي سبَّبتْ لها إحساسًا أليمًا بالذنب، ورغم أنها كانت تصلي، وتطلب من الله أن يغفر لها، إلا أن الإحساس بالذنب كان يؤرقها كثيرًا.

حصلت فاطمة على الابتدائية، ولم يعد مدرس الحساب يأتي إليها، وتنفست الصعداء، لكنها وهي في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة كانت تمارس العادة السرية أحيانًا، وتشعر بلذة، ويعقبها ذلك الإحساس الأليم بالذنب، والذي لا يضيع بالصلاة والصوم وطلب المغفرة من الله.

وحين حصلت فاطمة على الثانوية العامة لم يمنعها أبوها من دخول الجامعة؛ لأنها كانت تحب التعليم والقراءة، ولأن أحدًا لم يتقدم للزواج منها، وكان الأب يحمل همَّ أربع بنات، ويتمنى لو رزقه الله بأربعة عرسان لهن ليزوِّجهن وينتهي من عبئهن، لكن أحدًا لم يتقدم، ودخلت فاطمة كلية الآداب، وبدأت تقرأ كتب الفلسفة، وكان أبوها يفرض عليها أن ترتدي طرحة تخفي تحتها شعرها، وترتدي أكمامًا طويلةً صيف شتاء، ولم تكن فاطمة تختلط بزملائها في الكلية، كانت تتصور أن مصافحتها للرجال حرام، وأن صوتها عورة، وكانت بعد انتهاء المحاضرات تسرع إلى البيت دون أن تكلم أحدًا، كانت حياتها تنحصر في المذاكرة والقراءة والصلاة.

لكن بعد سنتين في الجامعة شعرت بالميل نحو أحد زملائها، وتصورت أن هذا الزميل يخصها بنوع من الاهتمام، كان يبتسم حين يراها في الفناء، أو يقول لها صباح الخير، فيحمرُّ وجهها وترد عليه بالتحية، وبدأت فاطمة تعيش حُبًّا صامتًا لهذا الشاب، وتغذيه بأحلامها وخيالاتها، ولم تجرؤ على أن تصرح له بهذا الحب، بل كانت تختلس إليه النظرات من بعيد، وفي الليل تحلم أحلامًا جنسية تسبب لها في النهار إحساسًا طاغيًا بالذنب، وفوجئت فاطمة في يوم أن هذا الزميل قد خطب زميلةً أخرى، وتصورت أنَّه خانها، وأُصيبت بصدمةٍ عنيفة جعلتها تبكي وحدها وهي في سريرها، وحين تصلي تطلب من الله المغفرة على ذنوبها، وكانت ذنوبها أنَّها تخيلت كثيرًا أنَّ هذا الشَّاب يُقبِّلها ويمارس معها الجنس في أحلامها.

وفي يوم كانت فاطمة تصلي، فإذا بها بدلًا من أن تسبِّح بحمد الله تبدأ في توجيه اللوم إلى الله، بل أكثر من اللوم، كلمات عنيفة قاسية لا يمكن أن يوجهها أحد إلى أحد، فما بال الله، وارتعدت فاطمة من الذعر، وحاولت أن تمنع نفسها، لكنها لم تستطع، كانت هذه الألفاظ تسيطر عليها ولا تستطيع منعها، ومن شدة الذعر كانت تبدأ الصلاة مرة أخرى، وتستغفر الله على ما بدر منها من ألفاظ وأفكارٍ سيئة، لكنها بعد الاستغفار تجد نفسها فريسةً مرة أخرى لهذه الأفكار والألفاظ غير اللائقة. والغريب أن هذه الألفاظ تحولت بعد أيام قليلة إلى أفعال، وأصبحت فاطمة فريسة لأحلامٍ جنسية مفزعة، تُفرَض عليها

فرضًا بقوةٍ قاهرة لا تستطيع منعها، ولم تكن هذه الأفعال تحدث إلا مع الله، الذي كان يتجسد أمامها أحيانًا على شكل رجل، ومن شدة الفزع كانت تبكي وتلعن نفسها، وتتهم نفسها بسوء الخلق والفساد، وتكثر من الصلاة حتى أصبحت تصلي نصف النهار، لكن الصلاة أصبحت ترعبها أيضًا؛ لأن الأفكار السيئة كانت تغزوها أثناء الصلاة ذاتها.

ولم تستطع فاطمة أن تحكي مشكلتها لأبيها أو لأمها، وحينما بدأ الهزال والشحوب يظهر عليها أدركت أنها أصبحت عاجزة عن النوم، وعذَّبها الأرق والبكاء. لجأت إلى الطبيب الباطني في عيادة الجامعة، ولم تستطع بالطبع أن تحكي حقيقة المشكلة، لكنها قالت له إنها تشعر بصداع دائم ولا تنام، وحوَّلها الطبيب الباطني إلى الطبيب النفسي، ولم تستطع أن تحكي له حقيقة المشكلة، كانت ترتعد كلما انفرجت شفتاها لتقول كلمة «الله»، وتصورت أن ما يحدث لها جريمة لا تُغفَر، وأن أي أحد سيسمعها سيتَّهمها بأفظع الأشياء، وأعطاها الطبيب النفسي بعض الأقراص المهدئة والمنومة، ولم تشعر فاطمة بأي تحسن، وأصبحت حياتها جحيمًا، ولم تعد قادرة على المذاكرة أو القراءة. وفي إحدى الليالي، وبعد أن عاشت أكثر من ساعة فريسة لتلك الأفعال والأفكار اللاإرادية المنكَرة، فكرت في الانتحار، وابتلعت جميع الأقراص الباقية في الزجاجة، وكادت تموت، لولا أن أمها حملتها بسرعة إلى المستشفى حيث عملوا لها غسيل معدة وأنقذوا حياتها، وعادت مع أمها إلى البيت.

ولكن أسرتها هبَّت من نومها فزعة ذات ليلة على صوت صرخةٍ عالية، ورأوا فاطمة مُلقاة على سجادة الصلاة والطرحة حول رأسها، تهذي بكلمات غير مفهومة، فحملوها إلى المستشفى النفسي حيث تلقَّت الجلسات الكهربية.

وسألتني فاطمة بصوتها الضعيف الخائر: ماذا أفعل يا دكتورة؟ إنهم يمنعونني من الموت.

وسألتها: ألم تتحسني بعد مجيئك إلى المستشفى؟

قالت: لا، لقد زادت حالتي سوءًا، وبعد أن كانت الأفكار السيئة تراودني مرة أو مرتين في اليوم، أصبحت تراودني ثلاث وأربع وخمس مرات، ولا أدري ماذا أفعل!

نظرت إليَّ فاطمة بعينين مذعورتين، وسألتها وأنا أنظر داخل عينيها: ماذا يفزعك يا فاطمة؟

قالت: يفزعني عذاب الله.

قلت لها: إن الله لن يعذبك.

نظرت إليَّ في دهشة وقالت: كيف؟ إنني بنتٌ منحطَّة، وسوف يحرقني الله.

قلت لها: لستِ بنتًا منحطة.

فسألتْ بسرعة: وهذه الأفكار السيئة يا دكتورة؟

قلت: يمكنك التخلص من هذه الأفكار لو استطعت التخلص من إحساسك بالذنب، إنكِ لستِ مذنبة يا فاطمة.

سألتْ: وهذه الأفكار؟

قلتُ: إنها لا تراودك وحدك، بعض الناس تراودهم هذه الأفكار نفسها بسبب التزمُّت والتخويف والكبت.

اتسعت عيناها بدهشة وقالت: لا أظن أن هناك من يراوده مثل هذه الأفكار.

وحكيتُ لفاطمة عن بعض الحالات من الفتيات اللائي قابلتهن، واللائي كن يعانين من المشكلة نفسها، وشرحتُ لها أسباب ذلك.

إنَّ الإحساس الشَّديد بالذنب الذي عانته في طفولتها بسبب مدرس الحساب، ثُمَّ بسبب ممارسة العادة السرية، ثُمَّ بسبب الأحلام الجنسية؛ أرهقها نفسيًّا، خاصةً أنها تعيش في جوٍّ من القيم والتقاليد التي تتناقض تمامًا مع ما يحدث لها في أعماقها، لقد وقعتْ فاطمة فريسة التناقض بين الواقع الذي يفرضه عليها جسدها وبين النظرة التي يفرضها عليها أبوها والمجتمع من حولها، ولا شك أنَّ قصة حبِّها الصامت ومن طرفٍ واحدٍ تدل على أنها في حاجةٍ ماسة إلى تبادل الحب مع الرجل، لكن القيم النظرية داخل رأسها كانت تمنعها من ممارسة الحب أو الاعتراف به، وهذا جعلها تختزن عواطفها كالبخار المضغوط داخل نفسها، وكان لا بد أن يأتي يوم وتنفجر نفسها كبركانٍ لأقل هزة، وقد حدثت هذه الهزة حين خطب هذا الشاب (الذي أحبتْه ومارست معه كل شيء في أحلامها) فتاةً أخرى غيرها. إن رد الفعل لهذا الحدث كان شديدًا بسبب الشيء المخزون داخل فاطمة.

ولم يكن لفاطمة أن تُشفَى من حالتها إلا إذا أصبحت واعية بهذه الأشياء:

(١) إن اللذة التي شعرت بها وهي طفلة (بسبب المدرس) أو بعد ذلك (بسبب العادة السرية) كانت إحساسًا طبيعيًّا، وما كانت لتسبب لها أي ضرر، لولا الإحساس بالذنب الذي صاحبها والذي كان له تأثيرٌ ضارٌّ على نفسيتها.

(٢) إن الأحلام الجنسية التي كانت تعيشها كانت أحلامًا طبيعية، وما كانت لتسبب لها أي ضرر لولا ذلك الإحساس بالذنب الذي صاحبها.

(٣) إن حبَّها لذلك الشاب كان شيئًا طبيعيًّا، وكان يمكن أن يكون أكثر صحةً لو أنها غذَّته بالحقيقة والواقع بدلًا من الخيالات، وربما لو عرف هذا الشاب أنها تحبه لأحبها، ولكنه كان يجهل بالطبع أنها تحبه؛ ولذلك لا يمكن أن نعتبر خطوبته لفتاةٍ أخرى خيانةً لها.

(٤) إن الإحساس بالذنب، والكبت، والتناقض، والخوف الشديد من عقاب الله، هو الذي أدى بها إلى تلك الحالة العكسية التي أصابت علاقتها بالله، ولا بد لها أن تدرك أنها غير مذنبة، وأن الله لن يعاقبها، وأنها ليست الوحيدة التي تشعر بما شعرت به، وإنما هناك الكثيرون غيرها.

ولم يكن من السهل بطبيعة الحال إقناع فاطمة بهذه الحقائق، ولكنها شعرت بارتياحٍ شديد، وتنهدت وهي تقول: لقد كنت أتصور أنني فتاة منحطة الخلق فاسدة، وكنت أظن أنني الفتاة الوحيدة على ظهر الأرض التي حدث لها ذلك. وكلما كنت أؤكد لفاطمة أنها ليست الوحيدة التي حدث لها ما حدث، وأنَّها فتاة ذكية، وأخلاقها طيبة، وليست منحطة، وأنها تستحق كل خير من الحياة؛ كانت تشعر فاطمة بالارتياح، وطلبتُ منها أن تتطلع إلى المستقبل، وأن تضع لنفسها هدفًا فكريًّا تحققه بقراءتها ودراستها.

وقد قابلت والد فاطمة، وشرحتُ له حالة ابنته على حقيقتها، والأسباب الحقيقية، ولم يكن هذا الأب منغلق الذهن تمامًا، وكان قد بدأ يلمس الراحة والتحسن في عيني ابنته، وبدأ الأمل في شفائها، وبسبب ذلك أنصت إليَّ بذهنٍ مفتوح، واقتنع بما شرحتُ له، وطلبتُ منه أن يساعدني من أجل شفاء ابنته.

وفعلًا ساهم هذا الأب في شفاء ابنته، فقد أكد لها أنها غير مذنبة، وأن إحساسها بالذنب لا أساس له، وأن أحدًا لن يعاقبها، وأن من حقها أن تحب وأن تشعر برغباتٍ جنسية، وقد كان لوقع هذه الكلمات من الأب نفسه فعل السحر في نفسية ابنته، التي بدأت تشعر كأن عبئًا ثقيلًا ينزاح عن قلبها، وقالت لي في اندهاش وراحة: لم أكن أتصور أن أبي سيقول لي هذا الكلام في يوم من الأيام.

وساعد هذا الأب ابنته على الخروج من المستشفى، وانتظمت فاطمة في دراستها مرةً أخرى، وجاءني صوت أبيها في التليفون ذات يوم يقول في سعادة: تصوري يا دكتورة، لقد نسيَتْ تمامًا هذا الشاب الذي سبَّب لها الصدمة، لم أكن أتصور أنها ستنساه، لقد كانت تهذي باسمه طول الليل.

قلت له: هذا الشاب لم يكن السبب الحقيقي فيما حدث لفاطمة، إنه كان القشة فحسب التي قسمت ظهر البعير، أمَّا السَّبب الحقيقي فهو الخوف الدفين منذ الطفولة، لو أنَّ فاطمة وهي طفلة حكَتْ لأمها أو أبيها عن حكاية مدرس الحساب، أو عن العادة السرية، ولو أن أمها أو أباها طمأناها وشرحا لها حقائق الحياة، لما دخلت فاطمة في تلك الحلقة المفرغة من الخوف والكبت، ثُمَّ الإحساس العنيف بالذنب، الذي تفجَّر في النهاية على شكل المرض النفسي.

سهير

دق جرس التليفون في منزلي الساعة السادسة صباحًا، وجاءني صوت فتاة مضطربة وخائفة، وتطلب مني المجيء إليها فورًا.

وسألتُها: أين أنتِ؟

قالت: مستشفى العباسية.

سألتُها: ما اسمك؟ وفي أي قسم؟!

قالت: سهير … في قسم …

ركبتُ سيارتي الصغيرة، وطوال الطريق من الجيزة إلى العباسية وأنا أفكر في أمر تلك الفتاة، ولا بد أن الأمر خطير؛ حتى تطلبني بالتليفون في هذا الوقت المبكر، خاصةً أنني لست من أطباء المستشفى.

ولا بد أنها بذلت جهدًا كبيرًا في التمكن من استخدام تليفون المستشفى في ذلك الوقت، وأنا أعلم حال التليفونات في المستشفيات العامة، فما بال تليفونات المستشفيات النفسية؟ ولا بد أنها دفعت شيئًا للتمورجي النبوتجي، أو تنازلتْ له عن طعامها، أو نفذت أوامره ومسحت العنبر بدلًا منه (إذا لم تكن تملك شيئًا تدفعه له).

حين دخلتُ المستشفى من باب الحديقة الخلفي رأيت بعض المريضات بملابسهن البيضاء جالسات على الحشيش، ونهضتْ واحدة حين رأت العربة، واقتربت مني قائلةً: معك ثلاثة قروش؟

سألتها: نعم، لماذا؟

قالت: سأشتري قطعت حلاوة.

وتقدمت واحدة أخرى مني تقول: معكِ سيجارة؟ وجاء رجل عجوز له عينان واسعتان حزينتان وقال لي: أعطيني قرشًا.

ولم أدهش بالطبع؛ فأنا أعرف من زياراتي لهذا المستشفى، ولغيره من المستشفيات النفسية (وغير النفسية) كم يجوع المرضى والمريضات! وبالذات هؤلاء الذين لا أهل لهم، أو الذين تخلى عنهم أهلهم بسبب طول المرض (مشاعر الأسرة والأهل تجاه الابن أو الابنة المريضة تظهر على حقيقتها)، أو الذين لهم أهل فقراء لا يرسلون إليهم طعامًا بصفة منتظمة أو حتى بصفةٍ متقطعة.

تركت عربتي تحت شجرة أمام المبنى الرئيسي للمستشفى، وسِرتُ نحو المبنى الآخر حيث القسم الذي به «سهير». حين دخلتُ المبنى لفح وجهي على الفور هواءٌ رطب بارد له رائحة عفنة كرائحة حظائر الماشية في بيوت الفلاحين في قريتنا، ورأيت بعض المريضات جالسات على الأرض وأمامهن أكواز من الصفيح، وعرفت أنهن يشربن الشاي. وهذا الشاي المغلي عدة مرات (لاستخدامه أكثر من مرة) يُعَدُّ ترفًا تحظى به المريضات القادرات على دفع ثمنه للتمورجية.

وكانت سهير راقدة في عنبر (يشبه إلى حدٍّ كبير العنابر التي رأيتها في سجن النساء بالقناطر)، وسريرها عليه مرتبة رفيعة ممزقة في أجزاء، ويخرج منها القطن، والملاءة بلون التراب، وإلى جوارها على رف النافذة رغيفٌ أسود، وبقايا عدس في صحن نحاس، تجمَّع حوله عدد من الذباب والصراصير السوداء الصغيرة (تذكرتُ على الفور المناظر التي رأيتها في سجن القناطر).

جلستُ على طرف السرير، وفي مواجهتي وجه «سهير» الشاحب بملامحها الدقيقة، وعينيها الواسعتين، لها نظرةٌ فاحصة ذكية.

قالت لي بصوتٍ هادئ: ألا تذكرين يا دكتورة؟

قلتُ لها: يُخيَّلُ إليَّ أنني رأيتُكِ من قبل.

قالت: نعم، منذ عامين، حين جئتِ إلينا في ندوة في كلية طب عين شمس.

قلت: أنت طالبة بكلية الطب؟

قالت: نعم، في السنة النهائية.

قلت: وكيف جئتِ إلى هنا؟

قالت: أنا لم أجئ، هم الذين أتوا بي إلى هنا.

قلت: مَن؟

قالت: أهلي، أبي وزوجته.

سألتها: لماذا؟

قالت: سأحكي لك كل قصتي، ولكني لجأت إليك اليوم لتساعديني في الخروج؛ فالامتحان بعد أسبوع واحد، وأريد أن أدخله حتى لا تضيع عليَّ السنة، لقد ذاكرت وأنا هنا، ولا أريد أن أتخلف عن الامتحان، إن تخرُّجي من الكلية سوف ينقذني من أبي، وأستطيع أن أعول نفسي، وأعيش وحدي بعيدًا عن أسرتي.

وطلبتُ من سهير أن تترك سريرها، وأن تهبط معي إلى فناء المستشفى لنجلس في الهواء الطلق وأسمع قصتها. كنتُ قد شعرتُ بآلام في رأسي وجسمي من الرائحة العفنة داخل العنبر، والمنبعثة من جسد امرأة ترقد على السرير المجاور لسرير سهير.

وجلسنا في الفناء، وبدأتْ سهير تحكي قائلةً: كنت في السادسة من عمري حين رأيت أبي يضرب أمي، ويصرخ قائلًا لها: أنتِ طالق. ولم أعد أرى أمي، وتزوج أبي من المرأة (هي أخت زوجة عمي)، وأصبح عمي يزورنا مع زوجته كثيرًا، وفي يومٍ كنتُ أطعم الفراخ فوق سطح المنزل، حين دخل عمي ورائي العشة، ورفع عني ملابسي وهو يهمس بصوتٍ غريب قائلًا: لا تخافي، كنت في حوالي السابعة من العمر، ومن شدة الذعر لم أستطع أن أقول لأبي (بسبب قسوته الشديدة عليَّ دائمًا يقول إنني أشبه أمي)، ولكني قلت لزوجة أبي، وكانت تُظهر لي بعض العطف أحيانًا، ولكنها صفعتني على وجهي وقالت بغضب: لا تقولي هذا الكلام المسيء عن عمك يا بنت! إنه رجلٌ فاضل ويحب زوجته، وزوجته تحبه، فلا تفسدي حياتهما بهذه الخيالات التي تتوهمينها. وكنت طفلة، وصدقتُ زوجة أبي أن الذي حدث لم يكن إلا خيالًا توهمتُه، لكن عمي كرر ما فعله مرةً ثانية، وفي هذه المرة أدركت أشياء لم أكن أدركها في المرة السابقة، وقال عمي يهددني: لا تقولي لأحد وإلا ذبحتك! وأصبحت أخاف من الصعود إلى عشة الفراخ في السطح، وضربتْني زوجة أبي مرة لأصعد وأطعم الفراخ، لكني رفضت؛ فظلت تضربني حتى سال الدم من أنفي؛ فصرختُ وقلت لها: لا أريد أن أصعد! فصرختْ: لماذا؟ فصرختُ وأنا أبكي: إنه يصعد ورائي! فصرختْ: مَن؟ فقلت لها: عمي! فنظرت إليَّ في استنكار وصفعتني على وجهي وهي تقول: أنتِ مجنونة! سأقول لأبيك ليضربك. وكنت أخاف من أبي؛ لأنَّ ضربه كان شديدًا، وكان يضربني على رأسي، وكأنه يريد أن يقتلني، فرجوتُها ألا تقول له شيئًا، وأخذتُ أكل الفراخ وصعدت إلى العشة وأنا أرتعد خوفًا، ولم يجئ عمي، وعرفت أنه مريض، ثُمَّ مات بعد بضعة شهور، وفرحتُ حين علمت بموته فرحًا شديدًا، وكنت في حوالي العاشرة من عمري، وارتدتْ زوجة أبي السواد، ورغم أنني كنت صغيرة إلا أنها أتت لي بفستانٍ أسود لأرتديه، فرفضتُ، وضربتني وهددتني بأن تقول لأبي إذا لم ألبس الفستان الأسود، واضطررتُ إلى ارتدائه.

وأصبحتْ زوجة أبي تفرض عليَّ أشياء كثيرة وتهددني، وأصبحتُ أشعر أنني أسيرة لها، ووضعت كل همي في المذاكرة، وكان لي ابن خالة يكبرني بخمس سنوات، وكان يزورنا أحيانًا، وكنت أحكي له عن قسوة أبي وزوجته، فكان ينصحني بالمذاكرة ودخول المدرسة الثانوية مثله، ثُمَّ نشتغل في أي عمل ونهرب من أهلنا، وكان هو أيضًا يعاني من قسوة أبيه، وفعلًا كنتُ متفوقة دائمًا في الدراسة، وحصلت على مجموعٍ عالٍ في الثانوية، رغم أن زوجة أبي كانت تشغلني في البيت، وتفرض عليَّ ترك المذاكرة ورعاية أطفالها، وحاول أبي (بتحريض من زوجته) أن يمنعني من دخول كلية الطب، لكن خالتي وزوجها وابنهما ظلوا وراءه حتى قَبِل، ودخلت الكلية، وكنت متفوقة دائمًا ولا أجد صعوبة في أي علم من العلوم، ولكن الصعوبة الوحيدة كانت في الجو الذي أعيشه في البيت.

وحينما وصلتُ إلى السنة النهائية بدأت زوجة أبي تدرك أنني سأكون طبيبة عما قريب، وبدأت تغيِّر من معاملتها لي، وتناديني أحيانًا: يا دكتورة سهير. وفي يوم جلستْ إلى جواري، وقالت إنها أتت لي بعريسٍ ممتاز، ولم يكن هذا العريس إلا أحد أقربائها، وكان رجلًا مترهِّلًا، لم أشعر نحوه بأي مشاعر، وكنت أشعر بالميل لابن خالتي الذي كنت أشعر بأنه يحبني ويهتم بي، وكان هو سبب تحمُّلي لحياتي الشقية في البيت، وفي نجاحي في دراستي، وكنا قد اتفقنا على الزواج بمجرد تخرجي.

لكن أبي جاءني يومًا وقال لي إن ذلك الرجل (قريب زوجته) قد خطبني منه، وإنه وافق، وإنه اتفق معه على أن يكون كَتْب الكتاب الخميس القادم، أمَّا الدُّخلة فتكون بعد تخرجي هذا العام، ورغم أنني كنت أخاف من أبي، فقد طلبت منه أن يؤجل ذلك كله حتى أنتهي من دراستي، ولم أستطع بالطبع أن أقول له إنني لا أريد هذا الرجل وأريد رجلًا آخر، لكن أبي رفض فكرة التأجيل، وفوجئت بيوم كتب الكتاب، وأبي هو الذي يوقع عقد الزواج بصفته وكيلًا عني، وأصبح الرجل المترهل (قريب زوجة أبي) هو زوجي الذي سأُزَفُّ إليه بعد تخرجي من الكلية.

اهتزت الأرض من تحت قدميَّ، وأحسستُ أن الأمل الذي بنيتُه راح، وأنني لن أتحرر إلى الأبد من هذه القسوة، وبدأتُ أشعر بالصداع والأرق، ولم أعد أستطيع المذاكرة. وجاء الامتحان بالطبع، وتدهورت حالتي، وأصبحت أشعر برغبة في البكاء الدائم والصراخ، واشتدت قسوة أبي وزوجته عليَّ، وأصبحت أقضي اليوم كله في سريري راقدة، وأشعر بالصداع والآلام في كل جسمي. وفي يوم جاءت زوجة أبي لتخرجني من السرير بالقوة لأحضِّر الغداء لأبي، لكني رفضتُ، فصفعتْني على وجهي، فانهلتُ عليها ضربًا ولكْمًا،

وجاء أبي وضربني، فأخذت أصرخ بأعلى صوتي، وفقدتُ الوعي تمامًا، ثُمَّ حين أفقتُ وجدتُني هنا في هذا المستشفى، وعلمتُ أن زوجة أبي قالت لأبي إنني مجنونة، واقتنع أبي بكلامها، وحملني على الفور في تاكسي إلى المستشفى، ولم يحاول واحد من الأطباء أن يسمع ما أقوله؛ لقد اكتفوا بما قاله أبي وزوجته، وأدخلوني بالقوة إلى مكان مظلم رطب، حيث سلَّطوا على رأسي جلسة كهربية جعلت عظامي تؤلمني عدة أيام، ورفضت أخذ أي أقراص، وقلت للطبيب إنني لست مريضة، وإنني طالبة بنهائي طب، فردَّ عليَّ الطبيب قائلًا: لا تتصرفي إذن كالجاهلات، وخذي الدواء الذي يُصرَف لك، وطلبتُ منه أن يسمعني لمدة خمس دقائق لأنني لست مريضة، لكنه لم يتوقف وأسرع وركب عربته وغادر المستشفى. والآن يا دكتورة أرجو أن تساعديني في الخروج من هنا، إن أي عاقل يدخل هنا لا بد أن يصبح مجنونًا بعد بضعة أيام؛ إن كل الظروف التي عشتُها تدفع إلى الجنون فعلًا، ولكني ما زلت أحتفظ بقواي العقلية، وقد علمتُ من الطبيب أن زوجة أبي ذكرت له أنني كنت وأنا طفلة أتخيل أشياء وهمية، فحكيتُ له قصة عشة الفراخ وعمي، وقلتُ للطبيب إن هذه ليست خيالًا، وإنها حدثت بالفعل، وكنتُ أتصور أن الطبيب سيصدِّقني، لكنه أمر بإعطائي جلسة كهربية، وحينما طلبت من الطبيب أن يُخرجني من المستشفى حتى لا يضيع عليَّ الامتحان للمرة الثانية قال لي: سأُخرجك حين تُشفَين تمامًا.

وسألته: ومتى أُشفى تمامًا؟

قال: حين تكفِّين عن تصور الخيالات.

قلت له: أية خيالات؟!

قال: الخيالات عن عمك وعشَّة الفراخ.

قلت: هذه أشياء حدثت وأنا طفلة صغيرة، وقد نسيتُها.

قال: هذه أشياء لم تحدث.

قلت له: كيف عرفتَ أنها لم تحدث؟

قال: أهلك قالوا إنها لم تحدث.

قلت: ولماذا تصدق أهلي ولا تصدِّقني أنا؟

قال: نحن نصدق الأهل ولا نصدق المريض.

قلت: ومن قال إنني مريضة؟

قال: نحن.

قلت: من أنتم؟

قال: الأطباء.

قلت: ولكن لم يحدث أن فحصني طبيبٌ واحد منكم، ولم يحاول واحدٌ منكم أن يسمعني أكثر من نصف دقيقة، وقد أمرتم لي بجلسة كهربية فوق رأسي قبل أن تسمعوا مني شيئًا، هل هذه مهنة الطب؟!

قال غاضبًا: المستشفى بها ٣٥٥٠ مريضًا ومريضةً (٢٢٠٠ مريض، ١٣٥٠ مريضة)، فهل يمكن أن أسمع كل واحد منهم أكثر من نصف دقيقة.

قلت: وهل أنت الطبيب الوحيد هنا؟

قال: نحن تسعة أطباء فقط في كل هذا المستشفى؛ أي أن كل طبيب مسئول عن ٤٠٠ مريض ومريضة، أي أنني لو استمعت لكل مريض لمدة دقيقة واحدة، فمعنى ذلك أنني أقضي سبع ساعات في اليوم لمجرد سماع أقوال المرضى والمريضات، ومتى إذن يمكنني أن أقوم بأعمالي العلاجية الأخرى.

قلت: ولكنك لا يمكن أن تقوم بأعمالك العلاجية الأخرى دون أن تسمع ما يقوله المريض أو المريضة.

قال: وهل كل ما يقوله المريض صحيح؟

قلت: بالطبع لا، ولكن هل كل ما يقوله الأهل صحيح؟

قال: لا بالطبع، ولكن ماذا أفعل أنا؟

قلت: لا بد أن تبحث عن الحقيقة. إن معظم المريضات هنا لسن مريضات، وإنما لهن مشاكل مع الأسرة، ومن الظلم اتهامهن بالجنون أو المرض النفسي.

قال: وماذا تريدين الآن؟

قلت: أريد أن تكتب لي «خروج» من المستشفى.

قال: سأكتب لك «خروج» حين تشفين تمامًا.

قلت: وكيف تعرف أنني شُفيت تمامًا؟

قال: حين تقولين إن موضوع عمك لم يحدث، وحين تتكلمين عن أبيك وأسرتك باحترام؛ إن هذا الأب هو الذي أنجبك، وهو الذي أطعمك، وهو الذي أدخلك كلية الطب، ويجب أن تشعري نحوه بالامتنان لا الكراهية.

وسكتت سهير قليلًا، وكان قد تجمع حولنا بعض الفتيات والنساء المريضات، ونظرت إليَّ سهير بعينيها الواسعتين الحائرتين وقالت: المفروض أن أكذب لكي أخرج من هنا يا دكتورة، وسوف أكذب حتى أخرج من هنا وإلا انتهيتُ تمامًا.

وقالت إحدى الفتيات التي بدت في مثل عمر سهير (٢٤ سنة): أرجوك يا دكتورة، وأنا أيضًا أريد أن أخرج، لقد ضيَّعوا عليَّ امتحان العام الماضي، كل زميلاتي وزملائي تخرجوا من كلية الصيدلة، وأنا هنا في هذا القبر.

وسألتها: كيف دخلت إلى هنا؟

ابتسمت بسخرية وقالت: الدخول إلى هنا سهل جِدًّا.

وقالت فتاة أخرى: يكفي أن يرفع الأب سماعة التليفون ويقول لهم: خذوا ابنتي.

وقالت امرأة أخرى: يكفي أن يرفع الزوج سماعة التليفون ويقول لهم: خذوا زوجتي!

وقالت سهير: لقد عرفتُ لأول مرة القانون الغريب رقم ١٤١ لسنة ١٩٤٤م الذي ما زال يسري حتى اليوم، والذي بمقتضاه حسب المادة الثانية، فإنه يمكن لأي شخص (الأب أو الزوج أو الجار) أن يبلغ البوليس (ولو كيديًّا) ويقول: هذه مريضة أو هذا مريض. وتحضر عربة البوليس على الفور وتحمل الشخص بالقوة. وإثبات كون الشخص مريضًا أم لا يتم بواسطة مفتش الصحة (الذي لا يعرف شيئًا في الطب النفسي أو حتى الطب الجسدي؛ لأن عمله الأساسي هو فحص الموتى واستخراج شهادة الوفاة)، وما إن يرى مفتشُ الصحة رجالَ البوليس يسوقون إليه شخصًا، فإن هذا الشخص مريض بعقله لا شك، ومهما قال هذا الشخص شيئًا فلا أحد يصدقه، ويكتب مفتش الصحة على الأوراق: حالة جنون. ويُساق الشخص إلى المستشفى على الفور.

وقالت إحدى النساء الواقفات حولنا: الدخول سهل جِدًّا يا دكتورة، يكفي أن تُرزَق واحدة مثلي بزوجٍ جشع، أراد أن أبيع جسدي ليسدد ديونه، وحين رفضت ضربني وطلب البوليس، وحين ساقوني إلى مفتش الصحة قلت له إن زوجي هو المجنون؛ لأنه يريد أن يجعلني مومسًا ليسدد ديونه، لكن مفتش الصحة كان يستعد للخروج من مكتبه، فلم يسمعني، وكتب شيئًا على الأوراق بسرعة، وساقوني إلى هنا.

وقالت امرأة أخرى: أراد زوجي أن يطلقني ليتزوج امرأة أخرى.

وقال لي: تنازلي عن النفقة والمؤخر. فرفضتُ، فضربني وطردني من البيت، ونمتُ عند الجيران؛ لأن أهلي في أسوان. وفي الصباح عُدت إلى بيتي؛ فحاول أن يطردني، فضربني ومزق ملابسي، وطلب البوليس وأخذوني بملابسي الممزقة إلى مفتش الصحة، ولم يكن موجودًا، فاتصل به التمورجي بالتليفون، وقرر مفتش الصحة أنني مريضة بالتليفون ودون أن يراني، وساقوني إلى المستشفى.

وقالت سهير: الدخول هنا سهل جِدًّا، ولكن الخروج عملية صعبة جِدًّا معقدة، فكيف يمكن إثبات أن هذا الشخص شُفي أم لم يُشْفَ بعد؟ إن مقومات إثبات المرض غير

موجودة؛ وبالتالي لا توجد مقومات تثبت الشفاء؛ ولهذا يتردَّى الشخص بالسنوات في هذا المستشفى، خاصةً إذا نسيه أهله ولم يطالبوا بخروجه، بعض المرضى والمريضات دخلوا المستشفى منذ ثلاثين عامًا، وفي معظم الأحيان لا يطالب الأهل بالخروج. إن معظم الآباء أو الأزواج الذين يُدخلون ابنهم أو ابنتهم أو زوجتهم إلى هذا المستشفى، يفعلون ذلك من أجل التخلص منهم؛ فكيف يمكن أن يهتموا بعودتهم أو يطالبوا بخروجهم؟ ثُمَّ إن الذي يدخل إلى هنا مرة واحدة يصبح موصومًا إلى الأبد، ومن السهل إدخاله مرةً أخرى، أو التلميح بأنه دخل هذا المستشفى من قبل ليتحطم مستقبله.

وقالت فتاة أخرى يبدو على وجهها الأسى والحزن: إني أسعى لدى الأطباء منذ ثلاث سنوات للخروج، دون جدوى. لقد أحضرني أبي هنا منذ أربع سنوات واختفى، وكلما طلبتُ الخروج قال لي الطبيب إن أبي لم يحضر، ولا بد للمستشفى أن تسلِّمني لأبي أو ولي أمري الذي أحضرني.

وقالت فتاة أخرى: إنهم يرمون بنا هنا ليتخلصوا من أكلنا ومصاريفنا.

وقالت سهير: إني أطلب منك يا دكتورة أن تنقذيني وتخرجيني من هنا!

وصاحت الفتيات والنساء من حولنا: ونحن يا دكتورة، أنقذينا وأخرجينا من هنا!

وكان يومًا من أتعس أيام حياتي، ووجدتُني وسط أكثر من أربعين أو خمسين فتاة وامرأة، وكل واحدة تحاول أن تحكي قصتها، وكلهن ضحايا أُسَر مزَّقها الطلاق، وتعدُّد الزوجات، وخيانة الأزواج، وخيانة الآباء، وضعف الأمهات، وبعضهن طالبات بالجامعة أو المعاهد العليا أو موظفات، وبعضهن زوجات بغير عمل وبغير عائل، وبعضهن انقطعت عنهن زيارات الأهل منذ سنوات طويلة وأصبحن بغير أهل، ويعشن تحت رحمة مجموعة من التمورجية، يأكلون أكلهن (أكل المستشفى الضئيل) ويشغلونهن في مسح الأرض وغسل الملابس والصحون، والتي تعصي الأوامر فليس هنا إلا الضرب، وأحيانًا الاعتداء الجنسي ذاته، وحين تذهب الفتاة إلى الطبيب لتشكو فإن أحدًا لا يسمعها، وإن سُمعتْ فإن أحدًا لا يُصدِّقها؛ لأن معظم أطباء النفس يؤمنون بالمثل القائل: إذا كان المتكلم مجنونًا فالمستمع عاقل.

وتركتُ سهير والفتيات والنساء البائسات وذهبت إلى الأطباء، وحاولتُ أن أعثر معهم على حل، لكن أحدًا لم يكن بيده الحل، ووجهات النظر تختلف، كان بعضهم يرى أن المريضات والمرضى أيضًا يُظلَمون، وأنهم جميعًا ضحايا أُسَرٍ فاسدة أو فقرٍ شديد أو مشاكل جنسية وكَبْت وحرمان، وبعضهم كان يرى غير ذلك ويعتقد أن المريضات

والمرضى نوع أدنى من البشر ويستحقون ما هم فيه، وآنست في أحد الأطباء نوعًا من الفهم واتساع الأفق والإنسانية، فطلبتُ منه أن يساعد سهير في الخروج بأسرع ما يمكن حتى لا يضيع عليها الامتحان، وفعلًا تمكَّنَتْ سهير من الخروج من المستشفى بمساعدة هذا الطبيب، وكم كانت فرحتي حين سمعتُ صوتها في التليفون يأتيني بعد عدة شهور وينبئني بأنها نجحت وحصلت على بكالوريوس الطب والجراحة! وأن الرجل المترهل (قريب زوجة أبيها) يرفض تطليقها، وأنها تستعد لرفع قضية في المحكمة ليحكم لها القاضي بالطلاق ولتستطيع الزواج من ابن خالتها.

وسألتُها: وما موقف أبيك الآن؟

قالت: حين خرجتُ من المستشفى علمتُ أنه طلق زوجته؛ ولذلك هو يشجِّعني على الطلاق من قريبها.

سميحة

هي فتاة في الثانية والعشرين، تحاول الانتحار، وتكره حياتها، نشأتْ في أسرة تُفضِّل الذكور على الإناث في كل شيء، حتى الأكل. وتقول سميحة: كان أبي وأمي يطلبان مني دائمًا أن أخدم أخي، وأسقيه وهو راقد في السرير، وأمسح حذاءه، رغم أنني كنت في المدرسة أكثر تفوُّقًا من أخي، وكان أخي يضربني إذا لم أخدمه، وكنت أضربه كما يضربني، لكن أبي وأمي كانا يسمحان له بضربي ويمنعانني من ضربه.

وكنتُ أتمنى أن أكون ولدًا مثل أخي ليعاملني أبي وأمي كما يعاملانه، ولا أشعر بالمهانة التي أشعر بها كلما نهرتْني أمي أو نهرني أبي قائلًا: أنتِ بنتٌ! وكنتُ أبكي وأنا أصلي لله، وأسأله لماذا خلقني بنتًا، وكنت أوجِّه إليه اللوم لأنه لا يعدل بيني وبين أخي، ولا يجعل أبي وأمي يعدلان بيني وبين أخي، وقد انهارت كل آمالي حين رفض أبي أن أدخل الجامعة بعد حصولي على الثانوية، وفوجئت بهم في يوم يقولون إنني سأتزوج، وبكيتُ ورفضت، لكن أبي عقد قراني على رجل لا أعرفه ولا يعرفني، أبي هو الذي وقَّعَ على عقد قراني لأنه ولي أمري، حاولتُ الانتحار عدة مرات، فأخذتني أمي إلى طبيبٍ نفسيٍّ، قال الطبيب إنه سيعالجني في ثلاثة أشهر، وعليَّ أن أذهب إليه مرة كل أسبوع، وفعلًا كنت أذهب إليه، وفي كل مرة يجلس أمامي يسألني أسئلة غريبة، سألني مرة: لماذا أحسد أخي وأتمنى أن أكون ولدًا؟ فقلت له: لأن أهلي يفضِّلونه عليَّ. لكنه طلب مني أن أفكر قليلًا وأتذكر طفولتي، ولمَّا لم أتذكر شيئًا قال لي: هل لأنه يملك عضو الذكر وأنت لا تملكينه؟ وفوجئت بهذا السؤال الغريب، وقلت له إن ذلك لم يخطر ببالي أبدًا! لكنه سألني إذا ما كنت أحب أبي أكثر من أمي، فقلت له إنني أفضِّل أمي؛ لأنها تقف إلى جانبي أحيانًا، أمَّا أبي فهو الذي منعني من دخول الجامعة، وهو الذي عقد قراني رغم أنفي، لكنه لم

يقتنع بكل ما قلته، وقال لي إن هذه هي الأسباب الظاهرية لحالتي النفسية، وإن الأسباب الحقيقية هي أنني أحسد أخي بسبب امتلاكه لعضو لا أملكه، وأعطاني الطبيب عدة جلسات كهربية، وسألني عما إذا كنت أريد أن أنجب أطفالًا، وقلت له إنني لا أريد أن أتزوج، لكنه أخذ يقنعني بأن أطيع أهلي وأتزوج؛ فالزواج هو الحياة الطبيعية لكل امرأة، وأن أفكر في إنجاب طفل يعوضني عن النقص الذي أشعر به كبنتٍ لا تملك ما يملكه أخي الذكر، وانتهت الأشهر الثلاثة، ولكن حالتي ازدادت سوءًا. وأخرجتْ لي سميحة من حقيبة يدها عددًا من الروشتات المسودة بعدد كبير من أسماء الأدوية والعقاقير: أقراص لإزالة الصداع، وأقراص منوِّمة لإزالة الأرق، وأقراص لفتح الشهية، وأقراص مهدِّئة، وقالت لي سميحة إنها تبتلع ما يقرب من اثني عشر قرصًا في اليوم الواحد من مختلف هذه الأدوية.

وذهبتُ إلى الطبيب النفسي الذي يعالج سميحة، وسألتُه عن اسم المرض الذي يعتقد أنه أصاب سميحة، فقال لي: اكتئاب. وسألته عن سبب ذلك الاكتئاب، فقال لأنها ترفض أنوثتها وتتمنى أن تكون ذكرًا، بسبب عقدة حسد عضو الذكر منذ طفولتها، وقال لي: إن سميحة بلغت الثانية والعشرين من عمرها، ولكنها لم تنضج نفسيًّا وتقبل أنوثتها، وإنها لا تزال في مرحلة الطفولة النفسية، ولم تتخلص من عقدة حسد عضو الذكر.

وقلت لهذا الطبيب النفسي: إن سميحة لا تعاني من أية عقدة، لكنها تعاني من أبيها الذي حرمها من التعليم، وأصر على أن يزوجها رجلًا غريبًا عنها لا تريده.

وردَّ عليَّ الطبيب قائلًا: ولكن سميحة لها ثلاث أخوات بنات أخريات، وقد حرمهن الأب نفسه من التعليم وزوَّجهن، وهن يعشن مع أزواجهن في هدوء، ولم تحاول واحدة منهن الانتحار كما حدث لسميحة.

قلت له: لأن سميحة أكثر طموحًا في الحياة من أخواتها. إن قبول أخواتها للقهر بسبب خوفهن من عصيان الأب، أو لسببٍ آخر، لا يعني على الإطلاق أن تكون سميحة مثلهن وتقبل القهر.

وقال الطبيب: إن الأب هو الذي يملك حق تقرير مصير ابنته، وليس هذا قهرًا، أنا شخصيًّا لا أوافق أن تتزوج ابنتي ضد إرادتي، وإلا فما فائدة الأب؟ إن دور الأب أن يختار لأولاده أحسن حياة، ويوجههم إلى ما هو في صالحهم.

قلت له: هناك فرقٌ كبير بين التوجيه وإبداء الرأي، وبين الفرض والإجبار.

وقال الطبيب: إن سميحة فتاة غير طبيعية، إنها عنيدة صلبة الرأي، وهي تحاول التشبه بالرجال.

وسألته: كيف ذلك؟

قال: إنها تكره الفساتين وأدوات الزينة، ولا تعتني بجمالها كما تفعل كل البنات في سنها.

قلت: ربما لها هواية أخرى غير الفساتين وأدوات الزينة، ربما هي ترى جمالها في شيءٍ آخر غير شكلها، لقد عرفتُ منها أنها تحب القراءة وأنها تفضِّل شراء الكتب على شراء الفساتين وأدوات الزينة.

وقال لي الطبيب: وهل تعتقدين أن هذا طبيعي لفتاة في مثل سن سميحة؟

قلت له: إنه شيءٌ طبيعي جِدًّا لأي فتاة في مثل سن سميحة أن تفضِّل شراء الكتب على شراء الفساتين وأدوات الزينة؛ إن سميحة تعتقد أنها إنسانة لها عقل يجب أن تغذيه وتنميه بالقراءة والمعرفة، وليست مجرد جسد أو أداة لجذب الذكر، إن سميحة تمثل الفتاة الذكية التي تنظر إلى نفسها نظرة إنسانية متكاملة، وليست تلك الفتاة الغبية التي تتصور أن النقود لم تُصنَع إلا لشراء الفساتين والأحذية واللحم والخضار، وأن شراء الكتب ليس من شأنها وإنما من شأن الرجال. وردَّ الطبيب بغيظ: إذا انهمكت المرأة في قراءة الكتب والعمل وخلافه، فمَن إذن سيرعى الأسرة والأطفال، ويُعِدُّ الطعام للزوج حين يعود من عمله مُرهَقًا؟! إن هذه الأفكار لا تقود أبدًا إلى تدعيم الأسرة، بل إلى تفكيك الأسرة، إنها لا تقود إلى سعادة الأسرة، بل إلى شقائها. لقد خُلِقَت المرأة للبيت والرضاعة ورعاية الأطفال وخدمة الزوج، أمَّا الرجل فقد خُلق للأعمال الأخرى.

ولم يكن هناك جدوى من المناقشة؛ واستأذنتُ من هذا الطبيب بعد أن أعطيته قائمة بأسماء الكتب الجديدة في علم النفس.

ولم يكن في إمكان الطبيب النفسي بطبيعة الحال أن يشفي سميحة من حالتها، رغم الأقراص العديدة التي كتبها لها، وقد صممتُ على أن أساعد سميحة وأنقذها من محاولاتها المتكررة للانتحار، والتي كان يمكن أن تفقد حياتها تمامًا في واحدة منها، وذهبتُ مع سميحة إلى أبيها وأمها، وتحدثتُ مع الأب والأم، واقتنع الأب والأم بأن بقاء سميحة على قيد الحياة أهم من زواجها بذلك الرجل (الذي اتضح أنه يملك عمارة كبيرة)، وصرف الأب والأم نظرهما عن هذا الزواج، كما أن العريس نفسه كان قد هرب بعد أن علم عن محاولات سميحة الانتحار، واستطعت في الزيارة الثانية أن أقنع الأب والأم بأن تنتسب سميحة إلى الجامعة من أجل استكمال دراستها، بدلًا من أن تبقى في البيت وتسبب لهم المشاكل، وفعلًا انتسبت سميحة إلى كلية الآداب.

وانقضت بضعة شهور، حين ذهبت إلى معرض الكتاب الدولي الأخير، وبينما أنا أقف في أحد الأجنحة رأيتُ سميحة، لكنها لم ترني، كانت تقف أمام صفوف الكتب وعيناها

من خلف النظارة الطبية تنتقلان ببطء وهدوء فوق العناوين، فيهما لمعة الذكاء والثبات والاستغراق، بالرغم من أن شابًّا وقف بجوارها، بل شبابًا كثيرين من كل جانب، يدفعونها ويتزاحمون، لكنها لا تحس بهم … وعيناها لا تنفصلان عن صفوف الكتب، لا تنشغلان لحظة واحدة عن ذلك الاستغراق الشديد، كأنما العالم كله من حولها لم يعد له وجود إلا تلك الصفوف المتراصَّة من الكتب.

وهبطت عيناي تتأملان جسمها: جسمٌ ممشوق رياضي، وساقان قويتان داخل بنطلون، وقدمان ثابتتان فوق كعب سميك منخفض.

وامتدت يدها إلى كتاب وفتحتْه، ورأيت أصابع يدها، أصابع رفيعة قوية، أظافرها بغير طلاء، قرأت في الكتاب بضع صفحات، ثُمَّ أعادته إلى مكانه وانتقلت إلى كتاب آخر، إنها لا تكتفي بقراءة عنوان الكتاب أو اسم مؤلفه، ولكنها تحاول أن تتعرف أيضًا على شيء من مضمونه قبل أن تشتريه.

أدركتُ أن سميحة قد شُفيت، وأدركت أنها لم تُشف فحسب، ولكنها تمثل الفتاة المصرية الجديدة، وشتان بينها وبين تلك الفتاة القديمة التي كانت تظن أن المعارض لا تُقام إلا لعرض الأزياء والموديلات والبضائع ومستحضرات التجميل، وأن النقود لم تُصنَع إلا لشراء الفساتين والأحذية واللحوم والخضر، أمَّا أن يكون هناك معرض للكتب، فليس هذا من شأنها، وإنما من شأن الرجال، وليس كل الرجال أيضًا وإنما هؤلاء الرجال الذين تخصصوا في القراءة، وكأن القراءة تخصص مُعيَّن لا يقوم به إلا فئة قليلة من الرجال، والقراءة أيضًا كما قالت لها أمها أو جدَّتها تضعف البصر، ويجب على البنت أن تحافظ على جمال عينيها لتجذب الرجل بسهولة، ويرتفع ثمنها في سوق الزواج، والرجل لا يحب الفتاة التي تلبس نظارةً طبية، لماذا؟ إنها لا تدري، ولكن هذا ما قالتْه لها أمها وخالتها وعمتها.

وكم يبدو الفرق بين الفتاة الجديدة والفتاة القديمة، وبين العينين النظيفتين الذكيتين من خلف النظارة البيضاء، وبين العينين الغبيتين الغارقتين في سواد الكحل والرميل والظلال الخضراء!

كم يبدو الفرق كبيرًا بين الجسم الرياضي المشوق وبين الجسم الكسول المرتخي، بين الساقين القويتين اللتين تتحركان بحرية داخل البنطلون، وبين الساقين السمينتين الملتصقتين داخل الميني جيب الضيق، بين القدمين الثابتتين فوق الكعب السميك المنخفض، وبين القدمين المقوستين المتأرجحتين على كعب رفيع عالٍ!

كم يبدو الفرق بين الأصابع الرفيعة القوية بأظافرها القصيرة بغير طلاء، تقلِّب صفحات الكتب في نَهَم، وبين الأصابع الطرية البضة ذات الأظافر الطويلة المدببة الحمراء كمخالب الحيوانات المفترسة تقلب في اللحوم والفساتين في نهم!

كم يبدو الفرق صارخًا بين الفتاة الجديدة التي تدفع بسخاء سبعة جنيهات لشراء كتاب تريده وتبخل بمثل هذا المبلغ على شراء فستان، وبين الفتاة القديمة التي تدفع سبعة جنيهات ثمن تفصيل الفستان الواحد وتعتقد أن الكتاب يصبح باهظ الثمن لو ارتفع سعره عن سبعين قرشًا! كم يبدو الفرق واضحًا بين الفتاة الجديدة التي يحوطها الشباب من كل جانب فلا تنشغل بهم عما تريد أن تقرأه، وبين الفتاة القديمة التي إذا لمحت شابًّا من نافذة أو من على بعد كيلومتر ساوت شعرها وحاجبيها وبربشت بعينيها!

هذه هي الفتاة المصرية الجديدة سميحة، بجمالها الطبيعي وبساطتها وحبها للكتب والقراءة، بنظارتها الطبية البيضاء، وبنطلونها البسيط العملي، وحذائها المنخفض المتين، بشخصيتها الواثقة بنفسها، المعتزة بقيمة عقلها ونفسها، المؤمنة بالمساواة الحقيقية بينها وبين الرجل.

ولم تكن الفتاة الجديدة واحدة فحسب، ولكنها كانت مئات من الفتيات الجديدات يملأن ممرات معرض الكتاب، وامتلأت عيناي بالدموع؛ دموع الفرح، وتذكرتُ كيف كنت منذ عشرين عامًا في مثل عمر هؤلاء الفتيات، وكيف كنت أُخفي الكتب تحت البطاطين وأمارس القراءة خلسة وكأنما هي عمل غير لائق بالبنت يستوجب الخفاء.

فاطمة «ب»

هي فتاة ذكية، حساسة، تشتغل بالثانوية العامة، ومنتسبة إلى كلية الحقوق بالجامعة، تبلغ من العمر اثنين وعشرين عامًا، لم تعرف أباها؛ لأن أمها حملت بها قبل أن تتزوج أباها، وهرب الأب، وواجهت الأم المشكلة وحدها، ووُلدت فاطمة كطفلة غير شرعية، عطفت عليها الأسرة وتستَّرتْ على أمها حمايةً لها من الفضيحة الكبرى بين الناس، لكن فاطمة منذ طفولتها وهي ترى الكراهية حولها، وكثيرًا ما سمعت أمها تقول لها وهي لم تبلغ الرابعة من عمرها: «ليتكِ متِّ قبل أن ألدك»، وبعض أفراد الأسرة حين يضيقون بها يقولون لها: «ليتَ أمك ماتتْ ومتِّ معها وهي تلدك.»

وعاشت فاطمة في ظل أسرة أمها، وحصلت على اسم والد أمها (جدها)، وكان هو الذي يطعمها ويطعم أمها أيضًا، وحين حصلت فاطمة على عمل بالثانوية العامة أصبحت تنفق على نفسها وعلى أمها، وفكرت أن تأخذ أمها وتعيش في مكان بعيد عن هذه الأسرة التي لا تكف عن تذكيرها بالماضي الذي تحاول أن تنساه، لكن أمها رفضت وأصرَّت على أن تبقى هي وابنتها في ظل حماية الأسرة.

وحدثت المأساة حين تقدم أحد الرجال للزواج من فاطمة، كانت فاطمة في الواحد والعشرين من عمرها، وكان هو في الرابعة والخمسين، ولم تشعر فاطمة نحوه إلا بالنفور، لكن الأب (والد أمها) أصرَّ على تزويجها؛ فقد كان هذا الرجل يمتلك مالًا كثيرًا، وكان الأب رب أسرةٍ كبيرة العدد، وله من الأولاد والبنات تسعة، واعتقد أن هذا العريس صفقةٌ رابحة لا يمكن تعويضها، وأصرَّت فاطمة على الرفض؛ فثار الأب، وأخذ يهددها ويلمح لها بالماضي، وبأنه هو الذي منحها اسمه، ومعنى ذلك أنه منحها الشرف، وأنه هو الذي أطعمها وأدخلها المدارس، وبكت أم فاطمة، وراحت تستعطف فاطمة من أجل أن تقبل الزواج من هذا الرجل إرضاءً لأبيها وردًّا لجميله السابق، وضعفت فاطمة أمام دموع

أمها (وكانت تحبها وتشفق عليها كثيرًا)، ووافقت على الزواج من هذا الرجل، وحددت الأسرة موعد عقد القران، وقبل الموعد ببضع ساعات فوجئت الأسرة بصرخةٍ حادَّة من فاطمة، وسقوطها على الأرض عاجزة عن السير، وحين حملوها إلى الطبيب قال لهم إنها أُصيب بشلل في ساقيها، وإنه يعتقد أنه شلل هيستيري، وإنها في حاجة إلى علاج نفسي. وفي اليوم التالي، وبعد أن أدركت فاطمة أن موعد عقد القران قد فات دون أن تتزوج، نهضت من سريرها وسارت على قدميها، وفوجئت كل الأسرة، وتصور الأب أنها لم تكن مريضة، وإنما مثَّلت الدور بإتقان لتهرب من الزواج، وانهال عليها ضربًا وسبًّا؛ لأنها تسببت في ضياع العريس، وفي تلك الليلة ظلَّت فاطمة مؤرقة في فراشها تبكي، وفي الصباح ظلت تبكي، ولم تتوقف عن البكاء إلا عند الطبيب النفسي الذي أخذوها إليه في العيادة الخارجية، وعندما سمع الطبيب حكايتها حوَّلها إلى ضمن حالات البحث الذي أقوم به، وبالرغم من أن فاطمة كانت منهكة القوى إلا أنها استطاعت أن تحكي لي كل حكايتها بدقَّة، وتحلِّل مشاعرها، وتصف مأساة أمها، وقلتُ للأم: إنني أريد أن أقابل والدها لأتحدث معه بشأن فاطمة، وأن عليها أن تحضر معه الأسبوع القادم، وقالت الأم إنه قد لا يوافق على الحضور، فقلت لها إذا لم يوافق فسأذهب أنا إليه لأشرح له بعض الأمور المتعلقة بصحة فاطمة.

وجاء الأب الأسبوع التالي مع فاطمة، وقلتُ له إن موقفه من فاطمة كان موقفًا غير إنساني وغير شريف أيضًا، ونظر الرجل إليَّ بدهشة، وأصرَّ على أنه رجلٌ شريف، وأن كل الناس يعرفون أنه رجلٌ شريف، واتهم فاطمة بالجنون والمرض، وأنها ابنة حرام، وأن له بناتٍ أخريات على قدرٍ كبير من الأدب والطاعة، ولا تستطيع الواحدة منهن أن ترفع عينها في عينه كما تفعل فاطمة، وقلت له: إن فاطمة فتاة ذكية وحساسة وصادقة وشريفة، وليست ابنة حرام كما يقول، ولكن الحرام وعدم الشرف هو أن يحاول أن يبيعها بالمال لهذا الرجل العجوز الذي تنفر منه تحت اسم الزواج، وشرحتُ للأب معنى الشرف الحقيقي الذي هو الصدق، صدق الأفكار والمشاعر والأفعال، وليس الشرف مجرد أن يحافظ الشخص على أعضائه التناسلية. إن ارتباط مفهوم الشرف بالنشاط الجنسي فقط يجعل الناس يكذبون ويزيِّفون ويتاجرون في بناتهم باسم الزواج ويتصورون أنهم شرفاء.

وأدركت من ملامح الأب أنه يسمع مثل هذا الكلام لأول مرة في حياته، وبرغم أنه حاول أن ينكر خطأه إلا أنني شعرت أنه بدأ يدرك أشياء لم يدركها، وأنه مقتنع في أعماقه بما أقول، لكنه حاول أن ينكر ذلك الاقتناع وقال: إن فاطمة بنت عنيدة، وهي تريد دائمًا أن تنفذ ما في رأسها بأية وسيلة.

لكنه عندما عاد إليَّ الأسبوع التالي كان حزينًا وقلقًا، وقال لي بصوتٍ منكسر: «تعرفي يا دكتورة، إن ضميري أصبح يؤنبني بسبب ما فعلتُه بابنتي فاطمة، لقد فكرتُ طويلًا في كلماتك، وأدركت أنني فعلًا كنت سأبيعها بالمال من أجل أن أستريح أنا، لقد كنت أنانيًّا، وكنت أفكر في نفسي وراحتي، ولم أفكر في راحتها وسعادتها، ولكن اعذريني يا دكتورة، إن العبء عليَّ كبير، ولا أستطيع بمرتبي الصغير جِدًّا أن أنفق على تلك الأسرة الكبيرة، الفقر هو السبب يا دكتورة، والجوع كافر!»

ورأيت الدموع في عينَي الأب، فقلت له: «إن فاطمة ستُشفى، ولكن أرجو ألا تكرر ما فعلتَه معها مع بناتك الأخريات، أنت الآن عرفتَ وفهمت».

فقال: «إن الإنسان لا يتعلم إلا من الخطأ، ومهما تأزمت حالتي المالية فلن أكرر مأساة فاطمة مع بناتي الأخريات.»

درية

هي زوجة لمهندسٍ ناجح، وأم لثلاثة أولاد، وقد تركت الجامعة بسبب الزواج، قالت لي إنها تبحث عن معنًى لحياتها، وتحس بالفراغ الهائل، وإنها لا تستفيد بعقلها وذكائها، حين قال لها الطبيب النفسي: ألا تكفيكِ أسرتك؟! أي زوجك الناجح وأولادك الثلاثة الناجحين، قالت: لا، إنني أُهيئ لهم جميعًا كل أسباب الراحة والسعادة، ولكن ماذا عن نفسي أنا؟ أليس لي حق في السعادة أنا أيضًا؟ أليس لي حق في التفكير والنجاح في عمل أحبه وأتفوق فيه؟ إنني لا أستطيع التوقف عن التفكير في مستقبلي الذي ضاع حين قطعتُ دراستي الجامعية لأتزوج، ومما يزيد تعاستي أن زوجي وأولادي لا يستطيعون فهم مشكلتي، وأيضًا أبي وأمي وأهلي لا يفهمون سبب تعاستي، ويظنون أنني طماعة وأكفر بالنعمة التي أعطاها لي الله، وهي الزوج الناجح الذي يحبُّني، والأولاد الناجحون الذين ليس لهم مشاكل. وطبيبي النفسي أيضًا لا يفهم مشكلتي، إنني أطيعه وأبلع الأقراص التي يكتبها لي، ولكن هل تصنع الأقراص لي مستقبلًا؟ هل تعيدني الأقراص إلى الجامعة فأكمل تعليمي وأُثبت للناس جميعًا أنني إنسانة ذكية وأستطيع أن أقدم كثيرًا من الأفكار المفيدة للمجتمع الكبير والإنسانية؟

في يوم من الأيام فتحتْ درية الجريدة الصباحية، فرأت صورة إحدى زميلاتها اللائي كن معها في الجامعة، وقرأت أن هذه الزميلة نجحت في إثبات ذاتها كإنسانة مفكرة، وأشادت الجريدة بنجاح هذه الزميلة وأفكارها العظيمة.

ودون أن تدري بدأت درية تتصور أنها كان يمكن أن تكون مثلها لو أنها لم تقطع دراستها. وانتابتها حالة اكتئاب حادة، وخرجت إلى الشارع تبحث عن عمل؛ أيِّ عمل تثبت من خلاله ذاتها، وبالطبع لم تعثر على أي عمل، ووجدت نفسها عند الطبيب النفسي الذي أعطاها مزيدًا من الأقراص المهدئة والمنومة، لكنها لم تعد تنام الليل، وظلت تفكر،

وصورة زميلتها أمام عينيها ليل نهار، وظلت الفكرة تطاردها، حتى أصبحتْ كلَّ يوم ترتدي ملابسها وتخرج تلف في الشوارع كالتائهة تبحث عن شيء لا تجده؛ عن شيء ضاع منها ولا تعثر عليه مرة أخرى. وقلت لدرية إنني أستطيع أن أفهم مشكلتها، وأقرُّها تمامًا، وإنها في حاجة إلى أن تعمل عملًا تحبه وتختاره، وليست في حاجة إلى أي وظيفة لمجرد الخروج من البيت أو التخلص من الملل أو الفراغ؛ ولهذا فإن خروجها إلى الشارع لتبحث عن العمل ليس هو الطريقة الصحيحة لحصولها على العمل الذي ترغبه.

قلت لها: ابحثي داخل نفسك أوَّلًا عن العمل الذي ترغبين فيه، ما ميولك وهواياتك؟ هل هناك نوع معين من الفنون تمارسينه أو تحبين ممارسته؟ قالت: كنت أحب الموسيقى قبل الزواج، وتعلمت عزف البيانو، ولكني الآن نسيت ما تعلمته؛ لأنني لم أستمر بسبب الزواج والأولاد.

قلت لها: لماذا لا تعودين إلى الموسيقى مرة أخرى، وتدرسين مرة أخرى دراسة منتظمة، وبعد ذلك تنضمِّين إلى إحدى الفرق الموسيقية وتعزفين في الحفلات ليسمعك الناس؟

سألَتْ بدهشة: وهل هذا ممكن؟!

قلتُ لها: طبعًا ممكن.

قالت: أنا في الثامنة والثلاثين من عمري يا دكتورة.

قلت لها: الإنسان الذكي يمكنه أن يبدأ حياته في أي عمر، أنت ما زلت شابة، ولو أخذتِ موضوع الموسيقى مأخذ الجد والاهتمام فربما تصبحين إحدى الموسيقيات القليلات في مجتمعنا، إن معظم الموسيقيين والملحِّنين عندنا رجال، وقد آن الأوان لأن تثبت المرأة المصرية كفاءتها في فن الموسيقى.

وتلفَّتتْ درية حولها في حيرة وقالت: لقد تأخرتُ كثيرًا، معظم زميلاتي تخرجن، ويعملن أعمالًا ناجحة، وأنا أبدأ اليوم فقط!

قلت: أن تبدئي متأخرة خيرٌ من ألا تبدئي أبدًا.

وسألتني: وماذا عن الأقراص التي كتبها لي الطبيب، هل أستمر في أخذها؟

سألتُها: لماذا أعطاك الطبيب الأقراص؟

قالت: لأنام.

سألتها: ولماذا لا تنامين؟

قالت: أفكر كثيرًا.

سألتها: في أي شيء؟

قالت: في كل حياتي، لا أشعر بالسعادة، أشعر أن شيئًا هامًّا ينقصني.

سألتها: ماذا عن حبك لزوجك وحياتك الجنسية؟

قالت: أحب زوجي، وهو يرضيني جنسيًّا تمامًا.

سألتها: تَصلين إلى الأورجازم؟

قالت: نعم، بسهولة جِدًّا، وفي كل مرة تقريبًا.

سألتها: وماذا عن علاقتك بأولادك؟

قالت: أحبهم جِدًّا، وقد كبروا ولم يعودوا بحاجة إليَّ، ومعظم وقتهم خارج البيت أو مع أصدقائهم.

قلت: والآن تجدين نفسك مواجهة بيومٍ طويلٍ وساعاتٍ طويلةٍ لا تعرفين ماذا تفعلين بها؟

قالت: نعم بالضبط.

سألتها: أليس لك صديقات؟

قالت: لي صديقات كثيرات، ولكني أكره أحاديثهن التافهة عن الأكل والخدم والملابس، وأكره الثرثرة والنميمة.

قلت لها: لماذا لا تقرئين، ألا تحبين القراءة؟

قالت: أقرأ أحيانًا بعض الروايات الأدبية، وأقرأ الصحف والمجلات كلها تقريبًا، لكني أشعر بالاكتئاب والحزن كلما قرأت عن امرأة تفوقت في عملها، وأقارن بين حياتها الناجحة وبين حياتي الراكدة في البيت.

وقالت درية في حزن: ماذا أفعل يا دكتورة؟

سألتها: هل اقتنعتِ بموضوع بدء الموسيقى من جديد؟

قالت: اقتنعتُ، ولكن الموسيقى مشوار طويل جِدًّا، ولست شابة صغيرة لأصبح تلميذة من جديد.

وسألتها: وما هو تصورك لنوع العمل الذي كنتِ تبحثين عنه؟

قالت: أي عمل؟

قلت: وهل وجدتِ أي عمل؟

قالت: لا، العثور على عمل صعب لمن يحملون الشهادات، فما بالي أنا؟

وهكذا أحسستُ أن الحوار بيني وبين درية يدور في حلقة مفرغة، ورأيت أن الحل الأفضل لمشكلتها في نظري هو أن تدرس الموسيقى من جديد، وتحاول أن تعمل شيئًا خلَّاقًا في هذا المجال، وكانت ظروفها الاقتصادية تساعدها على هذه الدراسة بكل يُسر، وحاولتُ أن أشجعها على ذلك، وبدا عليها حين تركتني أنها ستبدأ المحاولة، لكني أحسست أنها قد لا تبدأ، وقد تظل في حيرتها فترة غير قصيرة وإن لم يكن طوال حياتها.

خيرية

هي امرأة في الأربعين من عمرها، تزوجت منذ عشرين عامًا أستاذها في الجامعة، ولم تشتغل بعد التخرج؛ لأن زوجها كان ثريًّا ولم يكن في حاجة إلى مرتبها، كما أنها فضَّلت التفرغ لخدمة بيتها وزوجها، ثُمَّ طفليها من بعده. كبر طفلاها، وتزوجت الابنةُ الكبرى، أمَّا الابن فقد تخرج في كلية الهندسة وهاجر إلى كندا، أصبحت حياتها خالية بعد أن غاب ابنها وابنتها عن البيت، زوجها مشغول ليل نهار بعمله وبحوثه وقراءاته، وهو يكبرها بحوالي خمسة عشر عامًا.

حياتها الزوجية كانت هادئة، وكل عام يحتفل زوجها بعيد ميلادها، وحين جاء عيد ميلادها الأربعون شعرت بصداعٍ حاد، وبدأت تنتابها حالات غريبة أشبه بالدوخة، وتشعر بدوار في رأسها وانقباض في صدرها، وحين تنظر إلى وجهها في المرآة ترى بعض تجاعيد حول عينيها وحول فمها، بدأت تزيد من طبقة البودرة لتخفي التجاعيد، وبدأت تفقد الثقة في نفسها، وكلما خرجت مع زوجها في زيارة أو حفل راحت تختلس النظر إلى الفتيات الشابات وتشعر برغبة في الاختفاء عن أعين الناس، وبدأتْ تتصور أن زوجها أصبح يرى التجاعيد في وجهها، وأنه أصبح يتطلع إلى الفتيات الشابات، وبدأت تنهشها الغيرة وعدم الثقة في النفس، تراودها فكرة الموت كثيرًا، وتتذكر أمها التي ماتت منذ أكثر من عشر سنوات، وتشعر أنها ستموت قريبًا، وأصبحت تخاف حين تسير وحدها في الشارع، ولا تخرج إلا بموافقة زوجها، تنتابها أحيانًا نوبات أرقٍ حادة، وتظل طول الليل تتخيل أمها التي ماتت، وتشعر بالاختناق. كانت تشعر بلذة مع زوجها قبل هذه الحالة، ولكنها أصبحت لا تشعر بأية لذة، ويُخيَّلُ إليها أن زوجها لم يعد يرضى بها، وأنه يفكر في امرأةٍ أخرى غيرها أصغر منها سنًّا.

أخذها زوجها إلى طبيب نفسي، فقال الطبيب إنها مُصابة بما يُسَمَّى اكتئاب سن اليأس، بسبب بعض الاضطرابات في الهرمونات، وأعطاها بعض الأقراص والحقن، لم تتحسن حالتها، بل زادت سوءًا، وحين تأخذ الأقراص تشعر بالعرق الغزير يتصبب من جسمها، وتحس كأنما ستموت.

إن حالة خيرية ليست نادرة في مجتمعنا، بل هي إحدى الحالات الكثيرة التي نصادفها في النساء اللائي يبلغن الأربعين أو ما حولها. إن هذا الاكتئاب الذي تشعر به المرأة في تلك السن ليس له سبب بيولوجي أو هرموني في معظم الحالات، وإنما سبب اجتماعي؛ فالمجتمع ينظر إلى المرأة في هذه السن كأنما حياتها انتهت، وكأنما هي أدَّت دورها في الحياة (وهي إنجاب الأطفال وتربيتهم حتى التخرج أو الزواج) ولم يعد لها دورٌ آخر، والرجل أيضًا ينظر إلى المرأة كأنما هي انتهت، ويبدأ ينظر إلى الصغيرات، ولا شك أن نظرة المجتمع والرجل تنعكس على المرأة نفسها، فتشعر أنها أصبحت بغير دور، وأنها لم تعد مطلوبة ولا مرغوبة، وتفقد الثقة في نفسها، وتشعر بالعصاب، وقد تفكر في الانتحار كوسيلة لإنهاء حياتها بسرعة.

لكن هناك نساءً لا يشعرن باكتئاب في هذه السن، وهذا يدل على أن السبب ليس بيولوجيًّا أو هرمونيًّا، هؤلاء النساء هن النساء اللائي أدركن أن دورهن في الحياة ليس الإنجاب، وليس تربية الأطفال، وإنما دورهن في الحياة هو العمل الخلاق والإنتاج والمساهمة في تغيير المجتمع إلى الأفضل، إن المرأة من هؤلاء تظل واثقة من نفسها حتى نهاية عمرها، وتشعر بأنها مطلوبة، وأنها تؤدي دورًا هامًّا للمجتمع.

وحينما سألتني خيرية عن الطريقة التي يمكن أن تشفيها من حالتها قلت لها إنها لا بد أن تخلق لنفسها دورًا في المجتمع، وأن تعمل على تغيير الظروف الاجتماعية التي تعيشها البنات والنساء، والتي جعلتها في البيت للخدمة وغسل الصحون أو شغل الإبرة، أو زيارة الجيران والأقارب، ولم تمارس عملًا خلَّاقًا منتجًا في المجتمع. وقالت خيرية: لقد أخطأت في حق ابنتي وزوَّجتُها قبل أن تستكمل تعليمها، ولا شك أنها ستكرر الحياة الخاوية التي عشتها، وتشعر بأن دورها انتهى بمجرد أن يترك أولادها البيت.

وتساءلت خيرية: ولكن ما العمل الذي يمكن أن أعمله الآن؟

قلت لها: عليك بالانضمام أو إنشاء حركة نسائية أو تنظيم نسائي من أجل رفع وعي النساء، بحيث تتربى البنات في جو يؤهلهن للعمل المنتج وليس للزواج، وتنهدت خيرية في أسًى وقالت: هل أستطيع أنا أن أفعل ذلك؟

وقلت لها: ولِم لا؟ إن أية حركة في التاريخ تبدأ بالأفراد، ثُمَّ تجذب إليها الجماعات.

قالت: إنني لستُ شابة لأبدأ.

قلت لها: أنت شابة، والشباب ليس عدد السنوات التي يعيشها الإنسان، ثُمَّ إن الكبر في العمر ليس عيبًا، بل ميزة، لأنه يُكسب الإنسان خبرة بالحياة والناس.

وإن المرأة الواثقة بنفسها تترك العمر الحقيقي يظهر على وجهها، والعمر الحقيقي لا دخل له بشهادة الميلاد، إن المحافظة على الصحة تجعل المرأة تبدو في شباب دائم وحيوية، لكنها حيوية ناضجة خبيرة بالحياة، والخبرة حين تظهر في العينين تعطي المرأة عمرها الحقيقي، وبعض النساء يرسمن في عيونهن نظرة ساذجة جاهلة «غير خبيرة بالحياة» من أجل التمسك بالشباب وفترة المراهقة.

ولا يمكن لأي إنسان أن يمنع بعض مظاهر التقدم في حياته، إنه قد يؤجل ظهور هذه المظاهر، ولكنها حتمًا ستظهر وبالتدريج على وجهه. إن التجاعيد مثلًا تظهر في أماكن معينة من الوجه، وكثيرٌ من النساء يحاولن إخفاء التجاعيد بالمساحيق، ولكن المرأة الواثقة بنفسها تنظر إلى كل «تجعيدة» في وجهها كجزء من حياتها تعتز به وتفتخر.

إن اعتزاز المرأة بنفسها وحياتها وقيمتها في الحياة يجعلها جميلة في نظر الناس، ويجعل من كل تجعيدة تظهر على وجهها جاذبية خاصة.

فالجمال هو الجاذبية، والجاذبية هي ذلك المعنى الذي ترمز إليه الملامح. حين نقول إن هاتين العينين جذابتان، فنحن نقصد — بوعي أو بغير وعي — أن المعنى الذي يشعُّ من هاتين العينين يجذب أنظارنا إليه؛ وعلى هذا فإن الجمال الخالي من المعنى جمال بغير جاذبية، وبالتالي ليس جمالًا.

ومن هذا المفهوم يمكن لأي امرأة (وأي رجل أيضًا) أن تصنع جمالها الخاص أو جاذبيتها الخاصة، وذلك بقدرتها على إشعاع المعاني المختلفة من ملامح وجهها وملامح جسمها، ومن حركة شخصيتها، ومن حوارها مع الآخرين، ونظرتها إلى الحياة والناس، وتفاعلها مع الحياة، ونشاطها، وعملها، وخبرتها بالحياة.

على كل امرأة أن تدرك هذا المفهوم الجديد للجمال، أن تفخر بخبرتها في الحياة، أن تثق بكل تجعيدة تصنعها الحياة على وجهها، وتعتبرها شهادة طبيعية من الحياة بنضجها وخبرتها، وتسجيلًا حيًّا لمرحلة من حياتها.

أمَّا هذه المرأة التي تظنُّ أن الجمال هو إخفاء حقيقتها تحت المساحيق، والظهور الدائم بملامح الساذجات الغريرات (القطط المغمضة)، فهي امرأة لا تعيش العصر

الحديث، وإنما عصر الجواري، حينما لم يكن مطلوبًا من المرأة أن تكون إنسانًا له ملامح تعبر عن مخ يفكر ويشع مختلف المعاني، وإنما أن تكون كتلة مدكوكة لا تعبر عن أي معنًى سوى أنها كتلة لحم تؤكل حينما يُراد لها أن تؤكل.

ومن الطبيعي لهذه الكتلة من اللحم أن تشعر بالاكتئاب النفسي حين يتقدم بها العمر وتزحف التجاعيد الطبيعية على وجهها، إن اكتئابها ينبع من خوفها من أن تُلقى من فوق المائدة إلى حيث صفيحة القمامة، فهي لا تعرف لنفسها قيمة سوى أن تؤكل، ومن الطبيعي أن أكلة اللحوم (سواء كانوا من البشر أو من غير البشر) يُفضِّلون اللحم الصغير ليُمضَغ بسرعة ودون جهدٍ كبير.

ويمكن للمرأة أن تقي نفسها من الاكتئاب الذي تُصاب به كثيرٌ من النساء بعد سن الأربعين (يُسَمَّى خطأً في الطب النفسي اكتئاب سن اليأس) بأن تدرك أن حياتها لها قيمة أكثر من أن تؤكل، ولها من المعاني الكثيرة المتعددة التي تزداد تعدُّدًا وعمقًا بازدياد نضجها وتقدمها في العمر.

بهذه الحقيقة وحدها تنجو المرأة من اكتئاب سن اليأس؛ لأنها لن تشعر باليأس في أي مرحلة من مراحل عمرها، ولأنها تدرك أن كل مرحلة لها قيمتها، وهي تصنع قيمة لحياتها ووجودها، بصرف النظر عن رغبة الرجل فيها أو إعراضه عنها.

وبالطبع كنتُ أدرك أن كلامي هذا لن يشفي خيرية من الأعراض التي تشعر بها؛ فهي في حاجة إلى أن تشعر أنها مطلوبة ومرغوبة، ولها دورٌ هام في الحياة، وهذا لن يحدث إلا إذا خلقت لنفسها هذا الدور ومارسته، واستطاعت أن تحقق ذاتها من خلاله.

وقد يقول بعض الناس إن خيرية ومثيلاتها نساء طماعات، وماذا يردن بعد كل الحياة التي عشنها، وبعد أن بلغن من العمر أربعين عامًا؟! لكن هؤلاء الناس لا يعرفون أن سن الأربعين إنما هي سن قمة النضوج الإنساني، وهي السن التي يبدأ فيها الإنسان (رجلًا أو امرأةً) في الاستفادة من خبرات الشباب، وهي السن التي يبدأ فيها الإنسان الاستمتاع الحقيقي بالحياة، بعد فترة الإعداد والتجارب السابقة.

ومعظم النساء لا يبدأن فهم لذة الجنس أو تذوقها إلا في هذه السن، ومعظم النساء والرجال لا يبدءون في النضج العقلي والفكري والإنساني إلا في هذه السن؛ ولهذا تُعتبَر سن الأربعين هي المرحلة الأولى من حياة الإنسان التي يبدأ فيها العطاء، عطاء المجتمع خبرته السابقة ونضوجه. وحينما يحكم المجتمع بالإعدام على النساء في سن الأربعين، فقد حرم المجتمع نفسه من العطاء الفكري لنصف سكانه.

لكن المجتمع لا يعترف بأن للنساء جميعًا عطاءً فكريًّا، إن كل ما يهم المجتمع من معظم النساء هو عطاؤهن البيولوجي الجسدي فقط، وما دامت هذه هي نظرة المجتمع للنساء، فسوف تظل خيرية ومثيلاتها (اللائي ضحين بعملهن من أجل الزواج) مريضات بالاكتئاب، ما لم يسعين لتغيير حياتهن.

وديدة

طلبتُ من الطبيبة المشرفة على نزيلات سجن القناطر أن تسهِّلَ لي لقاء بعض المسجونات المصابات باضطرابات أو مشاكل نفسية (بعد أن حصلت على تصريح بزيارة السجن لاستكمال البحث الذي أقوم به)، وكانت أول سجينة أتحدث معها هي وديدة، وهي فتاة سمراء طويلة، لها عينان سوداوان لامعتان تدلَّان على الذكاء والحيوية، وقالت لي الطبيبة إن وديدة تعاني من الأرق والصداع، وأحيانًا تنتابها نوبات هستيرية فتصرخ وتلطم على وجهها وتبكي وتصيح بصوتٍ عالٍ، ثُمَّ تهدأ بعد قليل وتنام لفترات طويلة وهي شاردة تفكر، وسألت عن التهمة التي حُبست من أجلها وديدة فقالوا لي إنها المخدرات، وسألتُ وديدة عن عمرها فقالت لي إنها في الرابعة والعشرين، رغم أن وجهها أوحى إليَّ بأنها أصغر من ذلك، وكانت ملامحها، وبالذات حين تتكلم وتبتسم، تعطيها وجه فتاة صغيرة غريرة، تفيض سذاجة وبراءة. وقالت لي وديدة بعد أن أصبحنا وحدنا: كان أبي تاجر مخدرات، وقد استخدمني أنا وأمي وأختي في هذه التجارة، وكانت أمي ترفض أن تطيعه أحيانًا، فيضربها ضربًا شديدًا حتى يُغمى عليها، وكنت طفلة صغيرة، وشعرت بكراهية شديدة لأبي، ولكني أخفيت شعوري عنه خوفًا منه، وفي بعض الأوقات كان أبي يهجر البيت شهورًا طويلةً دون أن يترك لأمي أي مال، وكانت أمي تضطر إلى أن تذهب إلى البيوت لتغسل الملابس لتحضر لي ولأختي الطعام. وفي إحدى الليالي تأخرت أمي في بيت من البيوت التي تشتغل بها، وكانت أختي الصغيرة نائمة، وشعرتُ بالجوع يقطع أحشائي، فخرجتُ إلى «القهوة المجاورة» وأخذت أشحت من الرجال الجالسين قرشًا لأشتري به طعامًا، وقال لي أحد الرجال: تعالي معي لأشتري لك فطيرة بالسكر. وذهبت فاشترى لي الفطيرة، ثُمَّ اعتدى عليَّ، وكنت في ذلك الوقت في العاشرة من عمري، وعُدت إلى

البيت أبكي، وحكيت لأمي ما حدث فبكتْ معي، وقالت لي ليلتها: يا بنتي الناس ذئاب، لكن الله موجود، ولا ينسى أمثالنا من الغلابة.

وكانت الشهور التي يختفي فيها أبي أفضل من الشهور التي يعود فيها إلى البيت، وكنت أقول لأمي دائمًا: لماذا لا نترك له البيت ونهرب إلى مكانٍ آخر؟ لكن أمي كانت تقول لي وهي حزينة: وإلى أين نذهب يا وديدة؟ وكان لأبي صديقٌ يسهر معه الليل ويشاركه تجارة المخدرات، وفي بعض الأحيان يبيت عندنا حتى الصباح، وفي إحدى الليالي وكنت في الرابعة عشرة اعتدى عليَّ هذا الرجل، وتكرر هذا عدة مرات، وكتمتُ الأمر بيني وبين نفسي خوفًا من أبي، لكنني عرفت أن أبي يعرف كل شيء، وأنه يترك هذا الرجل معي ويغادر البيت، وحكيت لأمي، لكنها لم تكن تملك إلا البكاء والصراخ، وكان أبي يضربها حتى يتجمع الجيران فيقول لهم إنها امرأةٌ مجنونة، مُصابة بالهستيريا، ولا علاج لها إلا الضرب. وفي يوم من الأيام عُدت من إحدى العمليات التي كان أبي يرسلني فيها لأتاجر بالحشيش، فلم أجد أمي في البيت، وعلمتُ من الجيران أن أبي أخذها في عربة إلى مستشفى العباسية، وظللت أبكي أنا وأختي طوال الليل، وحين رآني أبي وأنا أبكي ضربني وقال لي إنني أشبه أمي، لأنه لا علاج لي إلا الضرب، ولم أعد أبكي، وبدأتُ أفكر في وسيلة للهرب أنا وأختي، ولكن أبي أفهمني أنه سيعرف طريقي في أي مكان في العالم، وأنه قادر على إعادتي إليه في أي وقت.

ومضت سنوات، وأصبحت أنا وأختي نشتغل مع أبي في تجارته، وعلمنا كيف نهرب من رجال الشرطة، ولم يعد الاتصال الجنسي بالرجال (زملاء أبي) شيئًا غريبًا، بل أصبح أمرًا عاديًّا بالنسبة لي أنا وأختي، وتزوجتْ أختي أحد الرجال وذهبتْ معه، أمَّا أنا فقد رفض أبي أن يزوِّجني وقال إنه لا يستغني عني طالما أن أمي لم تعُد من المستشفى، وإنه لا يستطيع أن يعيش وحده، ولا بد من وجودي معه لأخدمه، وأيضًا لأساعده في تجارته، وكنت أخاف من أبي، ولم أكن أستطيع أن أخالفه، وسألته: لماذا وافق على زواج أختي؟ فقال: لأنها غبية وليست لها فائدة.

وفي يوم أحسست أنني أريد أن أرى أمي، فذهبتُ لزيارتها بالمستشفى دون أن يعلم (كان أبي يحرِّم عليَّ زيارتها)، وبكت أمي حين رأتني، وأنا بكيت حين رأيتها، وذهبت إلى الطبيب وطلبت منه أن يُخرِج أمي من المستشفى لأنها ليست مجنونة، لكن الطبيب رفض، وقال لي إنها مريضة بالهستيريا، وقالت لي أمي إنهم يعطونها قرصًا قبل أن تنام فتشعر كأنها ستموت، ولا تفيق إلا في اليوم التالي، وإنها تنام في عنبر مع عددٍ كبير من

النساء، وإنها تخاف من بعض هؤلاء النساء، وإن إحدى التمورجيات ضربتها مرة لأنها رفضت أن تمسح دورة المياه، وتوسلتْ إليَّ أمي أن آخذها معي إلى البيت، لكنني لم أستطع بسبب قوانين المستشفى.

وعُدتُ من زيارة أمي وأنا أبكي في الشارع، وفي اليوم التالي أرسلني أبي في مهمة، ولم أشعر إلا وأنا أمام البوليس. إنني في هذا السجن منذ العام الماضي، وبرغم الحياة القاسية هنا إلا أنني لا أريد أن أخرج.

وسألتُ الطبيبة المشرفة عما إذا كانت وديدة قد حصلت على أي علاج نفسي وهي بالسجن، وعلمت أن وديدة عُرضتْ على أحد الأطباء النفسيين، وطلبتُ أن أطَّلِع على رأيه في الحالة. وكان كما توقعت، فقد ظن الأخصائي النفسي (حين علم أن أم وديدة نزيلة بمستشفى الأمراض العقلية بالعباسية) أن وديدة ورثت المرض النفسي عن أمها، ولم يتصور أن أم وديدة ليست مريضة نفسيًّا، وأن وديدة أيضًا ليست مريضة، وإنما المريض هو ذلك الأب الفاسد الذي قضى على مستقبل ابنته وزوجته. ومن الواضح أن أي أقراص تبتلعها الأم في المستشفى أو أي دواء تبتلعه وديدة في السجن لن يعالج حالتهما، وإنما العلاج لا بد أن يوجَّه إلى الأب الفاسد، وإلى الظروف الاجتماعية السيئة التي عاشتاها.

وتُذكِّرني هذه الحالة بحالة «دورا» التي كان «فرويد» يعالجها من ذلك المرض النفسي المُسَمَّى «هستيريا». كانت دورا في ذلك الوقت فتاة ذكية في الثامنة عشرة من عمرها، وقد اعتبر فرويد سلوكها غير طبيعي وتصرفاتها غير محتملة، وأنها كانت تتمثل أمها، وهذه هي كلماته عنها: «كانت دورا ... تتمثل أمها بهذه التصرفات الغريبة التي جعلتْها تتجه إلى هذا السلوك الغريب غير المحتمل.» وكان فرويد قد شخَّصَ أمَّ دورا دون أن يراها بأنها مريضة نفسيًّا بما سماه «ذهان ربة البيت» House wife's psychosis، وبالطبع لا تشعر دورا بأي تحسن مع علاج فرويد؛ فيأخذها أبوها إلى طبيب آخر، الذي استطاع أن يدرس ظروف أسرتها ويدرك حقائق لم يدركها فرويد، وقد كتب هذا الطبيب (د. ليونارد سيمون) عن دورا يقول: إن دراسة فرويد لحالة دورا كان يمكن أن تكون مفيدة لو أنه اهتم بالحقائق في حياتها، والتي تجاهلها؛ لأنه طوال فحصه وعلاجه لعقلها الباطن كان يعرف أنها ضحية صفقة جنسية بشعة اقترفها أبوها. إن هذا الأب الذي مرض من قبلُ بالزُّهري، ثُمَّ نقل العدوى إلى زوجته ... هذا الأب دخل في علاقة جنسية أخرى مع زوجة السيد «ك»، وكانت هناك دلائل واضحة أن هذا الأب كان يستخدم ابنته دورا ليرضي عشيقته الجديدة (وذلك بأن يُقدِّم دورا للسيد «ك»)، وقد كان فرويد على

علم بهذا لأنه كتب: «إن الأب كان مسئولا إلى حدٍّ ما عن الخطر الذي لحق بها؛ لأنه قدمها إلى ذلك الرجل الغريب من أجل أن يشبع هو رغبته الجنسية مع زوجة هذا الرجل»، ولكن بالرغم من هذه الحقيقة؛ بالرغم من أن أباها كان سبب تعبها، فقد أصرَّ فرويد على أن يعتبر مشكلة دورا مشكلة نفسية بحتة، تتعلق بعقلها الباطن فقط، متجاهلًا سلوك والدها، وقد أنكر أن رد فعلها لهذا السلوك الأبوي الشائن رد فعل طبيعي، ويبدو أن فرويد كان يعتبر أنه من الطبيعي أن يستغلَّ الرجل المرأة أو الفتاة جنسيًّا بأي شكل، وأنه من المرض النفسي أن تقاوم الفتاة أو ترفض.

والذي يقرأ عن علاج فرويد لدورا يدهش؛ لأن فرويد لم يحاول أن ينصح الأب بتغيير سلوكه تجاه ابنته، لكنه كان ينصح دورا بأن ترضى بحياتها، وكان يلومها على ثورتها على أبيها، وركز علاجه لها على أن تتكيف مع حياتها، وإلا فليس أمامها إلا مصيرها المحتوم (كأمها)، ألا وهو «ذهان ربة البيت»، وكان شفاء دورا بطبيعة الحال هو أن تعود فتحترم أباها، وتقدس تلك الأسرة الأبوية التي نشأت فيها، بل وتحب أباها وتخدمه، ثُمَّ عليها أن تتزوج رجلًا (لن يختلف كثيرًا عن أبيها)، وتخدمه أيضًا وتقبل حياتها معه، والزهري الذي سينقله لها، ثُمَّ العشيقات اللائي قد يستخدم بناتها لإرضاء أزواجهن، وهكذا تدور الحلقة المفرغة، ويصبح «ذهان ربة البيت» هو الحالة الطبيعية لجميع الزوجات.

وقد حدث شيء مشابه لذلك في حياة دورا؛ فقد تزوجت وعاشت مع زوجها عددًا من السنوات، ثُمَّ ذهبت إلى طبيب نفسي يُدعى «فليكس دوتيش»، وكان من مدرسة فرويد نفسها؛ لأنه رأى أن برودها الجنسي لم يكن بسبب سلوك زوجها الذي لم يكن مخلصًا لها وكانت له عشيقاته كأبيها (وأكثرية الرجال الذين يعجزون عن الاكتفاء بامرأة واحدة)، بل بسبب أنها هستيرية وتكره الرجال (بسبب الحسد بالطبع لأنهم يمتلكون العضو الذي تبحث عنه المرأة بلا جدوى)، وحين مات زوجها (ربما من الزهري أو من مرضٍ آخر) قالت دورا إنها لن تتزوج مرة أخرى، وبالطبع رأى طبيبها النفسي أن هذا يؤكد تشخيصه السابق لها، وكراهيتها للرجال، وهستيريتها الشديدة غير القابلة للعلاج النفسي، فكيف تكره المرأة الرجال إلا إذا كانت مريضة بالهستيريا المستعصية؟ أمَّا سلوك أبيها في طفولتها ومراهقتها، وسلوك زوجها في شبابها، فكل ذلك أشياء طبيعية من الرجل الطبيعي، وعلى المرأة الطبيعية أن تخدمَ أباها هذا وتحترمه، وتخدمَ زوجها هذا وتحترمه، فإن عجزت أو رفضت أو شُلَّت يدها وهي تناوله كوب الشاي وهو راقد على ظهره في السرير، فهي امرأة هستيرية.

كانت خدمة الأب مثل خدمة الزوج (ولا تزال) إحدى الواجبات المقدسة للمرأة، وكانت (ولا تزال) التي ترفض هذا الواجب تُعتبَر امرأة غير طبيعية أو مريضة نفسيًّا، أمَّا الرجل فإنه من الطبيعي أن يخون زوجته مع العشيقات، ولم نسمع عن رجل اتُّهم بالمرض النفسي لأنه خان زوجته.

ويكتب «توماس زاس» عن أعراض الهستيريا، مستعرضًا إحدى مريضات فرويد «Anna O آنا «أ»» التي شعرت بالمرض أثناء خدمتها لأبيها المريض: بدأت «آنا» تلعب لعبة الهستيريا بسبب كراهيتها لتلك الخدمة المهينة، وخضوعها لهذا الاضطهاد، وأن تشتغل كممرضة وبغير أجر، وكأن واجب النساء من الطبقة المتوسطة في عهد فرويد أن يقمن بخدمة وتمريض الأب المريض، وهو ذلك الواجب المفروض على النساء في عصرنا بالنسبة لأطفالهن.

إن المرأة في الحضارة الذكورية لا بد وأن تكون مهنتها في الحياة هي الخدمة: أن تخدم أباها، ثُمَّ تخدم زوجها، ثُمَّ تخدم طفلها. فإن كانت امرأة ذكية، تدرك أنها تستطيع أن تمارس مهنةً أخرى أرقى من الخدمة، فهي امرأة غير طبيعية، تعاني من كراهية الرجال، وترفض الواجب المقدس الذي تقوم به كل النساء، وعلى المعالج النفسي أن يروِّضها لتقبل هذا الدور المفروض عليها بحكم أنوثتها ومصيرها المحتوم في الحياة.

ومن المعروف أن المرأة تقوم بمهنة الخدمة هذه بغير أجر (نظير إطعامها فقط)، فإذا دعت الحاجة الاقتصادية أباها أو زوجها لكي يشغلها في مهنةٍ أخرى خارج البيت، فهي تقوم بالمهنتين معًا، مهنة الخدمة بالبيت ومهنة الخدمة خارج البيت، وبرغم أنها تدفع أجرها الذي تكسبه لزوجها أو أبيها، إلا أنها لا تُعفى على الإطلاق من مهنة الخدمة بالبيت، بالإضافة إلى المعاملة السيئة من الآباء أو الأزواج للبنات أو الزوجات، والحماية الأخلاقية والقانونية والاجتماعية لهم التي تشجع هذه المعاملة السيئة. بعد كل ذلك حين تسقط المرأة من الإرهاق الجسدي أو حين تصرخ من الإرهاق النفسي، فهي امرأة عصبية هستيرية، ولا بد لها من علاج سريع لتعود هادئة مستسلمة إلى حظيرة النساء.

ابتسام

سألتها: ما الذي أتى بك إلى سجن النساء؟ فأجابت بصوتٍ هادئ خالٍ من الانفعال تقريبًا: الدعارة. ونظرتُ إلى وجهها، كان هادئًا، لكنه ليس هدوء الاستكانة والذل، وإنما هو هدوء الترفع والكبرياء، وفي عينيها نظرةٌ مترفعة، وكأنما تقول: إنني أشرف منكم جميعًا. وقد كانت ابتسام رافضة تمامًا التحدث عن نفسها، وكانت تجيب عن أسئلتي بكبرياء وبسخرية أيضًا. حين سألتها: كم عمرك؟ قالت: ستُّون عامًا. لكن المشرفة قالت إنها في الثلاثين. وأدركت أنني أمام امرأة على قدر من الذكاء، وسألتها: هل تعلمتِ؟ فقالت إنها تعلمت في الحياة أكثر مما نتعلم نحن في المدارس، فضحكتُ، وسألتها عن عملها فقالت إنها كانت ممثلة على المسرح، وكانت تريد أن تكون فنانةً عظيمة لولا ذلك الرجل الذي حطم مستقبلها تمامًا.

ولم تفتح لي ابتسام قلبها إلا في الزيارة الثالثة للسجن، حين بدأتْ تثق في أنني لا أسعى إلى الحصول على معلومات منها من أجل إضرارها، واعتذرتْ لي عن عدم قدرتها على الثقة بالناس بسرعة قائلةً: كنتُ أثق بالناس، هذه الثقة هي سبب وجودي الآن في السجن، لكن الناس أشرار، وخاصةً الرجال منهم، ربنا ينتقم منه!

وسألتها: من هو؟

قالت: الذي تسبب في مجيئي إلى هنا، أنا يا دكتورة لستُ امرأة مومسًا كما يكتبون تحت اسمي، ولكن حظِّي السيئ جعلني أتزوج رجلًا مومسًا. إن الحياة الفنية مليئة بالرجال المومسين الذين يستغلون الفنانات الناشئات، وقد كنتُ منذ عشرة أعوام فنانة ناشئة، فتاة بريئة، ولم أكن أحب المدرسة؛ لأنني وأنا طفلة في السابعة كان هناك مدرس يخيفني حين يعانقني في مكان بعيد في الفناء، وكنت أجري هربًا منه، وكانت أمي تضربني لأذهب إلى المدرسة؛ ولهذا كرهت المدرسة جِدًّا، وكنت أحب التمثيل والغناء والرقص.

ومات أبي وأنا في السادسة عشرة؛ فأخرجتني أمي من المدرسة وبدأتْ تبحث لي عن عريسٍ مناسب، وقلت لأمي: إنني لا أريد أن أتزوج، وأريد أن أشتغل ممثلة في المسرح أو في السينما. لكن أمي رفضت، وزوَّجتني لأحد أقاربها، وكان رجلًا بخيلًا جِدًّا وقبيح الشكل، وفي ليلة الزفاف جعلني أكره الجنس كالعمى، فقد هجم عليَّ كالثور، وكانت رائحته كريهة، ولم أشعر بأية لذة، وإنما بألمٍ شديد ورغبة في القيء، وكنت في الثامنة عشرة، وهذا الرجل في الأربعين تقريبًا، وبعد ستة شهور طلقني، وقال لأمي إنني أرفض حين يرغبني، وضربتني أمي، وسألتني لماذا أرفضه؟ فقلت لها إنني أكره الرجال، ولا أريد الزواج، وبعد شهور قليلة تزوجتْ أمي، وبعد زواجها لم تعد تهتم بأمري؛ لدرجة أنني حين قلتُ لها إنني سأشتغل ممثلة في المسرح لم ترفض، وأحسستُ أنها تريد أن تتخلص مني؛ فقد أصبحتُ عبئًا عليها بعد زواجها.

وبدأتْ حياتي الفنية بداية لا بأس بها، فقد أعطوني دورًا ثانويًّا في إحدى المسرحيات، وفرحت جِدًّا بأول أجر أحصل عليه رغم ضآلته، وكنت أشعر بالسعادة وأنا أقف على خشبة المسرح والناس تصفِّق لي، وبدأت أحلم بمستقبلي كفنانةٍ كبيرة مثل الفنانات الشهيرات، لكن أحلامي كلها تحطمت على يد ذلك الرجل. لقد خدعني وأفهمني أنه قد جُنَّ جنونًا بحبي، وكنت ساذجة وبريئة، وصدقته، وكنت أحلم بالحب كأية فتاة في مثل سني في ذلك الوقت، وكنت قد أصبحت في الواحد والعشرين، وتزوجتُ هذا الرجل وأنا أحلم بحياةٍ سعيدة، لكن بعد الزواج أدركت أنه يريد أن يستغلني، وكان يستولي على كل أجري الذي أحصل عليه من التمثيل، وكان يقول لي إن جسمي يصلح للرقص، وعلمني الرقص، وجعلني أشتغل في أحد الملاهي الليلية، ويستولي على أجري. ولم أكن أحب أن أشتغل راقصة؛ لأني كنت أشعر بالإهانة حين يعاكسني الرجال، كنت أشعر بكرامتي أكثر وأنا ممثلة، لكني كنت لا أزال أصدق كلام زوجي وأحاول أن أرضيه بأي شكل؛ لأنني كنت أخاف منه؛ فقد ضربني مرة حتى كدت أفقد الوعي، وفي اليوم التالي ذهبت إلى بيت أمي، لكني علمتُ من الجيران أنها تركت الشقة هي وزوجها، ولم أعد أعرف طريق أمي، ولم يعد لي من مأوًى سوى بيت زوجي، وكنت لا أزال صغيرة، وأخاف أن أعيش وحدي، وأخاف أن يبحث عني زوجي ويجدني ويضربني حتى أموت؛ ولهذا عدتُ إلى بيت زوجي وخضعت تمامًا له، لدرجة أنه حين تركني مع أحد أصدقائه بحجرة النوم لم أرفض، وتكررت العملية مع عدد من الرجال الذين يعرفهم، وعلمت أن هؤلاء الرجال يدفعون له مالًا، ولم أعرف كم يدفعون له، وخفتُ أن أسأله، وفكرت في الهرب يومًا؛ لأني

كنت أكره حياتي وأشعر بآلام شديدة في جسمي ورغبة في القيء؛ فقد كنت أكره الجنس كراهيةً شديدة، وأُفضل أن أشتغل كفاعل وأحمل أحجارًا فوق ظهري ولا يتصل بي هؤلاء الرجال، لكني لم أكن أعرف كيف أنقذ نفسي؛ فقد امتلك هذا الزوج مصيري، وأصبحت عاجزة عن الفرار منه. وكنت أقضي بعض الليالي وأنا أبكي على حالي، وألعن اليوم الذي قابلت فيه هذا الرجل. واشتد بؤسي حين أصبحت حاملًا، وكنت أريد أن أكون أمًّا ويكون لي طفل أعطيه حبي وحناني، لكن زوجي أخذني إلى طبيب وأجهضني، وبكيت كثيرًا، وفكرت في الانتحار، ولم تكن أمامي وسيلة إلا أن ألقي نفسي في النيل وأنا عائدة بالليل من المرقص، لكني لم أكن أستطيع أن أفعل غير ذلك، وكنت لا أزال آمل أن ينقذني الله من ذلك الرجل، وكنت في أشد الحاجة إلى أن أحكي مأساتي لأحد؛ حتى أخفف عن نفسي الحزن، وكان صاحب المرقص رجلًا طيِّبًا، ورآني مرة أبكي فسألني عن السبب، ووثقتُ فيه، وبُحتُ له بمأساتي، وكنت أتصور أنه صديق لي، وسوف يساعدني على الخلاص، لكني فوجئت أنه أحد أعوان زوجي، وبدأت أعرف الحقائق من زميلة لي بالمرقص عن هؤلاء الرجال، وطلبت مني زميلاتي أن أطلب من زوجي أن يعطيني قسيمة الزواج لأنهم يعتقدون أنه لم يتزوجني حقيقة، وأن المأذون لم يكن مأذونًا حقيقيًّا. وحين سألت زوجي عن قسيمة الزواج ثار وغضب، ونظر إليَّ نظرةً مخيفة، لدرجة أنني تصورت أنه ربما يخنقني بالليل وأنا نائمة، وأصابني الأرق، وأصبحت أشعر بالقلق والصداع والآلام في كل جسمي، ولا أدري لماذا لم أهرب منه، ولماذا ظللت أطيعه رغم أنني أصبحت أشك فيه، وأشعر أنه أصبح يريد التخلص مني؟! لكن عقلي كان عاجزًا عن التفكير، ولم تعد بي أية قدرة على المقاومة.

وفي ليلة من الليالي بينما كنت مع أحد الرجال في حجرة النوم انفتح الباب فجأة ودخل رجال البوليس، وقلت لهم إنني بريئة، لكن الرجل الذي كان معي شهد ضدي، وقال إنه دفع لي مالًا، وأنكرت أنني أخذت شيئًا، لكن أحد رجال البوليس رفع وسادة السرير ورأيت تحتها ورقة من فئة الخمسة جنيهات، ودُهشت لأنها كانت المرة الأولى التي يضع فيها الرجل مالًا تحت الوسادة، وكان زوجي هو الذي يأخذ المال مباشرةً من الرجال، وأخذت أستعطف رجال البوليس وأقول لهم الحقيقة، لكن أحدًا لم يصدقني، وأخذ الجميع ينظرون إليَّ بسخرية واحتقار، وحكموا عليَّ بالسجن. فهل ترين يا دكتورة أنني أستحق السجن، وأستحق أن يضعوني في عنبر المتهمات بالدعارة؟! وقد أوشكتْ مدتي أن تنتهي وأخرج من السجن، ولكن إلى أين أخرج؟ وأي مستقبل ينتظرني؟!

وصمتت ابتسام طويلًا، وصمتُّ أنا الأخرى، وكنت أفكر في مأساتها، فهي متهمة بالاتجار بجسدها مع أنها لم تكن تقبض شيئًا، وهي متهمة بالدعارة وممارسة الجنس مع الرجال مع أنها كانت تكره الجنس وتشعر بالآلام والغثيان، وقد ضبطوها مع رجل تآمر مع زوجها المزيَّف ليزجُّوا بها في السجن، مستغلين القانون الذي يُدين المرأة وحدها ولا يُدين الرجل. وقد أراد الرجل التخلص منها بعد أن أدرك أنها بدأت تفتح عينيها على الحقيقة وتدرك أنه زوج مزيَّف، ولم يكن يشعر بالحاجة إليها بعد أن مصَّ دمها عشر سنوات، وأفنى جسدها وشبابها، وذبلتْ وهي في الثلاثين وأصبحت تشعر أنها في الستين. وقبل أن أغادر السجن سألتُ أحد الأطباء عن العلاج الذي تأخذه ابتسام، فقال إنها تعاني من اضطرابات شديدة في الهرمونات، وقال لي الطبيب إن المرأة الطبيعية لا يمكن أن تمارس البِغاء لأنه ضد طبيعة المرأة، وإن معظم المومسات يمارسن البغاء بسبب اضطراب في الهرمونات. وقلت للطبيب: إن ابتسام امرأة طبيعية، وإذا كنتَ قد فحصتَها ووجدتَ عندها اضطرابات في الهرمونات، فهذه الاضطرابات ليست سبب ممارستها البغاء، ولكنها نتيجة لهذه الممارسة التي فُرضت عليها وأنهكت صحتها النفسية؛ مما أدى إلى اضطرابات في الهرمونات.

وقال الطبيب: هناك نساء يبلغ بهن الفقر مبلغًا شديدًا ولا يمارسن البغاء أبدًا، إن الأسباب الحقيقية للبغاء ليست اقتصادية ولا اجتماعية، ولكنها أسباب هرمونية بسبب خلل في إفراز الغدد الصماء لدى هؤلاء المومسات، ولم أسترسل في المناقشة؛ فقد كنت أدرك الطريقة التي تعلمْنا بها الطب، والتي تجعلنا عاجزين عن إدراك الأسباب الاجتماعية لأية مشكلة صحية متعلقة بالجسد أو النفس.

وحينما عُدت إلى بيتي، وبينما أنا أتصفح بعض أعداد المجلة الجنائية القومية باحثة عن البحوث التي أُجريت عن البغاء، لمحتُ عنوانًا يقول: دراسة بيولوجية لمجموعة من البغايا. وقرأت البحث وما فيه من جداول، وكانت النتائج كالآتي: «لقد وُجِدَ أن النساء البغايا يعوزهن تناسق التكوين الجنسي، كما أنهن مُصابات بخلل واضطراب في الغدد الصماء، وأنهن يملن إلى أن يكنَّ قصيرات القامة، وإلى النحافة في الوزن، وإلى انخفاض مستوى الجمال فيهن، وكذلك عدم الاتزان الهرموني.»

وعرفت أن هذا البحث يشبه غيره من البحوث العلمية البيولوجية، حيث يُعزَل الإنسان عن ظروفه الاجتماعية والاقتصادية، ويوضع في أنبوبة اختبار في المعمل، وتُجرى عليه بعض التجارب الكيماوية. ولستُ أقول إن مثل هذه البحوث المعملية بغير قيمة علمية،

ولكني أعتقد أنها لا تصلح لدراسة نفسية الإنسان، رجلًا كان أو امرأة. وكما رفض علماء النفس الجدد نظريات فرويد النفسية عن المرأة؛ لأنه أهمل المجتمع والظروف الاجتماعية التي تعيشها المرأة، كذلك فإن أي دراسة للنساء البغايا تهمل الظروف الاجتماعية لا تقودنا إلى شيء علمي. ولا يمكن لأحد أن يعتقد أن أمثال ابتسام يمارسن البغاء لأنهن قصيرات القامة، أو بسبب خلل في إفراز غددهن الصماء. إن السبب الرئيسي في حالة ابتسام هو ذلك الرجل الذي خدعها واستغلها، وساعدته الظروف الاجتماعية والقانونية على ذلك.

خديجة

لم تشعر خديجة بأي حرج حين سألتُها عن سبب وجودها بسجن النساء، فقالت وهي تبتسم بسخرية: قضية قتل. وقال لي أحد الأطباء: إن خديجة تعاني من حالة قلق وأرق، ولا تنام إلا نادرًا. وسألتُ خديجة عن سبب أرقها، فقالت إنها تقضي الليل في مناجاة الله، فهو الوحيد الذي يعرف أنها بريئة وليست مذنبة. وسألتُها كيف جاءت إلى السجن، فقالت: قتلتُ طفلًا. وسكتتْ، وشردت عيناها في السماء، ورأيت في عينيها كمًّا هائلًا من الحزن العميق، ذلك الحزن الذي لا تراه دائمًا إلا في عيون الفقراء الكادحين، ويشبه السحابة الصفراء فوق العينين، وربما يكون مزيجًا من الحزن ونقص التغذية والإرهاق الجسدي والنفسي الشديدين.

ورفضت خديجة أول الأمر أن تحكي لي قصتها، نظرتْ إليَّ بنظرةٍ مليئة بالغضب والكراهية معًا، وقالت بصوتٍ قوي: لا أريد أن أحكي شيئًا، إنكم لا تفهمون شيئًا، أنتم تأكلون وتشربون، وتسكنون البيوت النظيفة، وتُعلِّمون أطفالكم في المدارس، وتركبون العربات، ولا يمكن لكم أن تفهموا شيئًا عن حياتنا، نحن خدم البيوت، خدم بيوتكم، نحن ننظف لكم بيوتكم ونغسل ملابسكم وملابس أطفالكم، ونغسل صحونكم، ولا نأكل إلا ما يبقى منكم، وفي الليل ندفع ضريبة فقرنا وذلِّنا من أجسامنا وشرفنا! ثُمَّ تأتون إلينا تحت ستار العلم لتبحثوا حالنا من أجل مساعدتنا، وأنتم لا تساعدون إلا أنفسكم، والمآسي التي نعيشها ليست إلا حكاياتٍ مسليةً لكم، وبعد كل ذلك نصبح نحن المجرمين والقتلة، وأنتم الشرفاء أسيادنا، أنتم الذين تضعوننا في السجن، وتحكمون علينا، مع أنكم أنتم المجرمون والقتلة!

كان إلى جواري يستمع إلى هذا الكلام أحد الأطباء، والأخصائية الاجتماعية، وأحد المشرفين، ونظر إليَّ الطبيب كأنما يعتذر عما قالته خديجة، وقال ما معناه إن خديجة

عصابية أو نصف مجنونة، ويمكن لها أن تهذي بأي كلام، وقلتُ للطبيب إن خديجة لا تهذي، وهي عاقلة، بل ذكية، وإنها تعبر عما في نفسها في شجاعة، ودُهش الطبيب بعض الشيء، وقال وهو يتراجع إلى الوراء: سنتركك وحدك مع خديجة، ربما تستطيعان التفاهم معًا.

وأصبحتُ أنا وخديجة وحدنا، وظلَّت خديجة صامتة طويلًا، واحترمتُ صمتها ولم أسألها عن أي شيء، ثُمَّ رفعتْ إليَّ عينيها المليئتين بالحزن وقالت: إنهم يقولون عني إنني قاتلة، مع أنني لم أقتل، هل هناك أمٌّ تقتل طفلها؟! وصرختْ بصوتٍ عالٍ وهي تسألني: هل هناك أم تقتل طفلها؟! ولم أشأ أن أقول لها رَدِّي على هذا السؤال؛ حتى أتركها تحكي دون أن تتأثر بما سأقوله، لكنها كانت مُصِرَّة على أن تسمع ردي، وسألتني مرة أخرى: هل هناك أم تقتل طفلها؟! وعبَّرت عن رأيي بصدق وقلت لها: نعم، هناك أمهات يقتلن أطفالهن، وليس ذلك بسبب الكراهية وربما بسبب الحب، وإذا كنتِ أنتِ قد قتلتِ طفلك فأنا أستطيع أن أفهم كيف حدث ذلك، لا بد أنك عشتِ مأساة، وأن طفلك كان مُعرَّضًا لمأساةٍ أشد، فرأيتِ أن الموت أرحم له.

قالت بصوتٍ حائر: الموت كان أرحم له ولي، وكنت سأحرق نفسي بعد أن يلفظ طفلي نفسه الأخير، لكني صرخت حين رأيته ميِّتًا، وتجمع الناس على صراخي.

وسألتها: كم كان عمر طفلك؟

قالت: عشرة شهور.

وأدركتُ أن المأساة مختلفة عن المآسي التي رأيتها من قبل، حين كانت الأم تقتل طفلها بمجرد ولادته خوفًا من الفضيحة واكتشاف الناس لكونها أمًّا بغير زواج. وهناك بعض الأمهات ممن يعجزن عن كتم أنفاس الوليد حتى الموت، أو ترك الحبل السري ينزف الدم حتى يشحب الوليد ويموت، أو يتركن الوليد حيًّا بجوار جامع ليلتقطه أي قلبٍ رحيم. ولكن طفل خديجة كان عمره عشرة شهور، إن المسألة لم تكن تتعلق بالشرف أو خوف الأم من الفضيحة، وحاولت أن أفكر في نوع المأساة التي يمكن أن تقود إلى أن تقتل الأم طفلها وهو قد بلغ من العمر عشرة شهور.

وقالت خديجة دون أن أسألها: أنا لم أقصد أن أقتله، لم يكن في نيتي أن أقتله؛ لقد كان هو أمل حياتي، وكنت أشتغل وأشقى من أجله هو، ومن أجل أن أطعمه، فكيف يمكن أن أقتله؟ الله هو الذي قتله، هو الذي أخذه إليه ليرحمه من العذاب، لكن الناس تصوَّروا أنني أنا التي قتلته، وحين قلت لهم إن الله هو الذي قتله لم يصدِّقوني، لا أدري

لماذا لا يصدِّقونني، ربما ظنوا أنني أنا الله الذي يأخذ الأرواح من الأجسام، ولكني لستُ الله، أنا امرأةٌ مسكينة، كنت خادمة في بيت كبيرٍ محترم، وكنت أعرف القراءة والكتابة، وكنت أذاكر أحيانًا مع ستي الصغيرة، وأقرأ معها القصص، وعلمتني بعض الكلمات الإنجليزية، وكنت أسمع الراديو وأرى التليفزيون، وعرفت أشياء كثيرة عن الحياة؛ لدرجة أنني تمنيت أن أدخل المدرسة وأتعلم مثل ستي الصغيرة، وكنت أفهم بسرعة عنها؛ لدرجة أن أمها (ستي الكبيرة) كانت تقول لها: «خديجة أذكى منك يا سوسو.» ونجحت الست سوسو في الثانوية ودخلت الجامعة، وكنت أحسدها وأتمنى أن أدخل الجامعة مثلها لأتخرج وأشتغل شغلة محترمة بدلًا من الخدمة في البيوت، ولكني كنت راضية بحياتي في هذا البيت؛ فقد كانت الست سوسو تعاملني كأختها، وكانت تعطيني الكتب لأقرأها، وتدافع عني حين تشخط فيَّ الست الكبيرة، وكانت الست سوسو في نفس عمري؛ أي في حوالي السابعة عشرة، وكان لها أخ يكبرها بعامين هو سيدي الصغير، وكان فاشلًا في الدراسة ويرسب كل عام تقريبًا، وكنتُ أشتغل عند هذه الأسرة منذ كان عمري اثني عشر عامًا، وكان سيدي الصغير هذا يأتي إليَّ في المطبخ كل ليلة ويقول لي لا تقولي لماما أو لسوسو، وكتمتُ الأمر لأني كنت أخاف أن تقول الست الكبيرة لأبي الذي يأتي كل شهر ليأخذ ماهيتي، ولم يحدث أي شيء لمدة سنوات، وتعودت على أن يأتي سيدي الصغير إليَّ، وفي يوم من الأيام أحسست أن بطني بدأ يعلو عمَّا كان، ومضت بضعة شهور، ونظرت إليَّ ستي الكبيرة نظرةً غريبة، وقالت لي: أنتِ حامل يا خديجة؟ وقلت لها: أنا لا أعرف أي شيء يا ستي. لكنها صفعتني على وجهي وقالت إنها رأتني أضحك مع المكوجي، وإنه لا بد ضحك عليَّ وفعل ما فعل، ولكني قلت لها إن المكوجي لم يلمسني، ثُمَّ بُحت بالحقيقة وهي أن سيدي الصغير (ابنها) هو الذي كان يأتيني في المطبخ وظل على ذلك لمدة سنوات، وصفعتني مرة أخرى وقالت لي: لماذا لم تقولي لي؟ طردتني، ولم أذهب إلى أبي لأني خفت أن يقتلني، ودخلت مستشفى القصر العيني لألد طفلي، وقالوا في المستشفى إنني يمكن أن أترك الطفل وأخرج وحدي، ولكني لم أستطع أن أترك طفلي؛ وأخذته معي على كتفي، وصممت على أن أعود إلى الخدمة بالبيوت وأعول طفلي حتى يكبر، وحين كنت أنظر في عينَيْ طفلي أشعر بسعادةٍ غريبة، وأنسى كل آلامي. واشتغلت في أحد البيوت، وكنت أضع طفلي في المطبخ وأنظف الشقة الكبيرة، وحين أسمعه يبكي أجري إليه لأرضعه. وبعد بضعة أيام أعطتني الست الكبيرة حسابي وقالت لي إنهم أتوا بخادمةٍ أخرى؛ لأن طفلي يزعجهم بالبكاء ويشغلني عن عملي. وبحثتُ عن بيتٍ آخر،

لكنهم كانوا يستغنون عني بعد أيام بسبب الطفل، وفي أحد البيوت قالت لي الست الكبيرة: سنشغِّلك عندنا بشرط ألا تُحضري الطفل معك. وقلت لها إنه لا يزال يرضع مني، وإنني ليس لي أحد لأتركه معه، لكن الست الكبيرة اشترطت عليَّ ذلك، وكنت يئست من العثور على عمل، فتركت طفلي الرضيع عند جارة لي عجوز نظير أن أدفع لها جنيهين في الشهر، وكان كل مرتبي الشهري خمسة جنيهات، وكانت المرأة العجوز مريضة ولا ترى بعينيها جَيِّدًا، وكنت أعود في نهاية النهار فأجد طفلي راقدًا فوق التراب يبكي من شدة الجوع طوال اليوم، وكنت أبكي وأنا أحتضنه وأُرضعه وأشفق عليه مما هو فيه، وأحس بتأنيب ضميري لأني أتركه، وكنت أستعطف الست الكبيرة لأحضر طفلي معي لأرضعه أثناء النهار، لكنها قالت لي إنها اشترطت عليَّ منذ البداية ألا أُحضر الطفل؛ فهي مريضة بأعصابها ولا تحتمل بكاء الأطفال. وفي يوم عُدت من شغلي آخر النهار فوجدت طفلي مريضًا، جسمه كالنار من السخونة، ومُصابًا بإسهالٍ شديد، وبكيتُ حتى تورَّمت عيناي من منظر طفلي المسكين، وحملتُه إلى طبيب له عيادة قريبة مني، ودفعت للتمورجي جنيهًا ودخلت للدكتور، وأعطاني روشتة بها ثلاثة أدوية، صرفتها من الأجزخانة بعد أن دفعت ٢٨٠ قرشًا، وأعطيت طفلي الدواء، لكنه كان يُرجعه من القيء، وظللت طوال الليل ساهرة بجواره أبكي، وكلما أعطيته الدواء كان يصرخ ويبكي ويرجعه مع القيء، وفي الصباح فكرتُ في أن أبقى معه ولا أذهب إلى الشغل، ولم تكن أول مرة آخذ فيها إجازة، كنت قد أخذت إجازاتٍ سابقة لأبقى مع طفلي وأرضعه، لدرجة أن الست الكبيرة قالت لي: إذا تغيبت يومًا آخر فاعلمي أننا سنحضر خادمةً أخرى. ووضعت الملاءة السوداء لأخرج إلى الشغل، ونظرت إلى طفلي وهو راقد على الأرض ومن حوله بركة من القيء والإسهال، وملامحه أصبحت كالعجوز من الإسهال والحُمَّى، وحين نظرت إلى عينيه الغائرتين وهو ينظر إليَّ ويبكي أحسست أنه يتعذب، وأنه سيموت، ولم أشعر إلا وأنا أحتضنه في صدري وأضغط عليه بكل قوتي حتى فارق الحياة، وحين رأيته ميِّتًا بين يدي صرختُ وأنا ألطم على وجهي وأصيح: أنا اللي قتلته! وتجمع حولي الجيران، ولم أفق إلا وأنا في السجن.

وصمتتْ خديجة فترة ثُمَّ قالت: لو لم أصرخ وأقل إنني أنا التي قتلته لتصور كل الناس أنه مات وحده، أو أن الله هو الذي قتله ليريحه من العذاب، لكني أنا التي صرخت، وأنا التي اعترفت، وحين أنكرت بعد ذلك لم يُصدِّقوني، وقال الطبيب الشرعي الذي فحص جثة طفلي إنه مات مخنوقًا، وإنني أنا التي خنقته، مع أنني لم أخنقه، لقد ضغطت عليه ضغطة خفيفة جِدًّا، ولم أكن أقصد أن أقتله، لم أكن أقصد أن أقتله، ولكن الله هو الذي قتله!

وانفجرت خديجة في بكاءٍ عنيف، وبكيتُ معها دون أن أدري، رغم أنني قاومت الدموع، لكني لم أستطع.

وسألتها بعد دقائق: ومتى ستخرجين من السجن؟ قالت بغير مبالاة: لا أدري، لا يهمني الآن متى أخرج، إن حياتي هنا ليست أسوأ كثيرًا من حياتي بالخارج، إن ما يتعبني الآن ليس هو السجن، وإنما الصداع والأرق، فأنا أشعر كأن رأسي سينفجر، وأشعر برغبة في الصراخ بأعلى صوتي.

ودخلت الأخصائية الاجتماعية في ذلك الوقت وقالت لي: إن خديجة تصرخ أحيانًا بالليل، وتلطم على وجهها، وقد رأينا تحويلها إلى الطبيب النفسي لتأخذ العلاج المناسب.

ونظرت إليَّ خديجة وقالت: إنهم يظنون أنني أصبحت مجنونة، ولكني لست مجنونة، ولست قاتلة، ولست مجرمة، ولكن قولوا لي ماذا كنت أفعل؟ ماذا كانت تفعل أي أمٍّ في مكاني؟!

ونظرت إليَّ خديجة بعينين تقذفان نارًا، وسألتني: ماذا كنتِ تفعلين يا دكتورة لو كنتِ مكاني؟ هل أنتِ أم؟

قلت لها: نعم.

وسألتْ مرةً أخرى: ماذا كنتِ تفعلين لو كنتِ مكاني؟

وقبل أن أردَّ كانت الأخصائية قد أخذت خديجة من يدها وأخرجتها من الحجرة، وبقيتُ وحدي لحظات أفكر، وظل سؤالها يتردد في نفسي كثيرًا، وكنت أعرف الإجابة، وهي ليست بالتأكيد أن أقتل طفلي، ولكن أن أقتل الظلم والفقر والاستغلال في المجتمع بجميع الأسلحة، وأحد هذه الأسلحة هي الكتابة التي تفتح الأذهان والعيون على الحقائق، ولكن خديجة لم تكن تملك من الأسلحة ما يُمكِّنها من أن تقتل الظلم والفقر والاستغلال.

كل ما كانت تملكه من سلاح هو أن تضغط على طفلها حتى يموت، وتنقذه من الظلم والفقر والاستغلال. لقد مارست خديجة حقها الطبيعي كإنسانة تريد أن تقاوم الظلم. إنها لم تستسلم كبقية النساء المظلومات، وذلك بسبب ذكائها، وبسبب شخصيتها المكافحة الإيجابية. لقد رفضت خديجة الاستسلام، وأرادت أن تقاوم بالفعل، وإن الفعل الذي قامت به هنا لم يكن هو الفعل الصحيح، أو الفعل الذي ينقذها هي وطفلها من الظلم، لكنه كان الفعل الوحيد الذي تملكه؛ الفعل الوحيد الذي تستطيع أن تمارسه وتقاوم به الظروف السيئة التي عاشتها، وإن الصداع والأرق والصراخ والعصاب الذي أصابها ليس إلا نوعًا من المقاومة وعدم الاستسلام. إن خديجة لا تزال تقاوم ما دامت قادرة على ذلك جسديًّا ونفسيًّا؛ إنها لا تملك من وسائل المقاومة إلا جسدها ونفسها،

وهي تقاتل بهما، وتدافع بهما عن حقها في الحياة. إن خديجة ليست مجرمة، وليست قاتلة، ولكنها مقتولة ترفض قبل أن تموت تمامًا، وهي ضحية ظروف اجتماعية ظالمة، استغلتها ونهشتها كقطعة لحم، ثُمَّ ألقت بها في السجن كهيكلٍ عظمي أكلوا منه اللحم. كيف يمكن أن تتصور بعد كل ذلك أن المشكلة داخل رأس خديجة، أو في جسدها، أو في خلل في الهرمونات المؤنثة؟! قال لي أحد الأطباء قبل أن أسمع مشكلة خديجة إن الأم التي تقتل طفلها مثل خديجة مُصابة بخلل في إفراز الهرمونات المؤنثة، وهذا يسبب ضعفًا في شعورها بالأمومة. وقال طبيب آخر إن خديجة تحتاج إلى تحليلٍ نفسي لمعرفة علاقتها بأبيها وأمها في طفولتها، ولا بد أنها عانت من عقدة أوديب، وكانت تكره أمها، وقد أفسد هذا الشعور أمومتها وعجزت عن أن تحب طفلها كأي أمٍّ طبيعية.

وهكذا كان من الممكن للأطباء والأخصائيين أن يُدخلوا حالة خديجة في متاهات علمية عن الهرمونات والغدد الصماء وعقدة أوديب ... إلخ.

وبالطبع لم يستمع أحدهم إلى قصة خديجة كلها، وإذا سمعها فهو لا يرى أن هناك صلة بين ظروفها الاجتماعية وبين تعبها النفسي أو الفعل الذي قامت به (وهو قتل طفلها) من أجل حمايته من الظلم والفقر والاستغلال، وأنها ليست مذنبة، وليست مريضة نفسيًّا، وإنما ظروفها الاجتماعية هي المذنبة وهي المريضة.


هنـــداوي